(شجاعة امرأة)

روايـة

شجاعة امرأة

تأليف:

ابـراهيم جديـد

اسم الكتاب: شجاعة امرأة (رواية)

تأليف: إبراهيم جديد.

سنة الطباعة:2016.

كمية الطباعة: 1000 نسخة.

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق – جرمانا – الآس الشرقي

هاتف: 00963115627060

هاتف:00963115637060

فاكس: 009635632860

ص.ب: جرمانا 259

WWW.DARRISLAN.COM

شجاعة امرأة

راح الشاب أبو اسكندر يقوم بمهمته التي كلف بها نتيجة لأحداث الثامن من أيلول لعام | 1966| على أحسن ما يرام إلى أن جاء يوم كانت به أقسام المراجعين مزدحمة بسبب حلول موعد دفع رسوم الهواتف للمشتركين.

كان بين هؤلاء المتزاحمين سيدتان تقفان خارج الازدحام قليلاً وتستندان بأكتافهما إلى أحد الأعمدة الموزعة في الصالون الواسع.

كان أبو اسكندر يقف خلف طاولته يراقب عن كثب تصرفات بعض المخالفين إن وجدت.. لكن نظرات المرأتين وابتسامتيهما له جذبت انتباهه.. ولما لاحظتاه يبادلهما الابتسامات والنظرات تشجعتا فأقبلتا عليه:

ـ مرحباً يا أخ.

ـ أهلاً.. أهلاً.. ووقف لهما يعبر عن تقديره.

ـ نرجو أن تساعدنا؟.. إن لنا من الأعمال ما يدعونا للسرعة.. لك فضل في هذا.

ـ عفواً.. أنا مكلف.. لي مهمة أخرى.. لا سلطان لي على الموظف المختص.

ـ إن مهمتك تتيح لك مساعدتنا.. أرجوك..

كان للابتسامات فعل السحر في روحه.. فأحضر لهما كرسيين وطلب لهما كأسين من عصير التفاح ثم أخذ منهما المعاملة وانطلق.

ولما كان له التأثير الفعال على الموظف المختص كونه رجل أمن ويعرف الجميع المهمة التي كلف بها، أنجز ما طلبته السيدة اليافعة منه وعاد مسرعاً.

وبعد عودته منتصراً رافع الرأس.. جلسوا قليلاً يتبادلون الحديث والدردشة، وفازتا بدعوته لزيارتهما ولكنه أبى بحجة.. ومع هذا فقد أصرتا على دعوتهما له:

ـ أرجو معذرتي لا وقت لدي الآن.. على كل حال أشكركما.

ـ إذاً خذ رقم الهاتف.. هات قلماً وورقة.. ها هو (.....).

وضع الورقة التي تحمل أمانيه في جيبه مغتبطاً سعيداً وودعهما لطيفاً مهذباً.. واعداً أنه سيزورهما.. بينما هما ترددان عليه:

ـ لا تنسَ.. عليك أن تتصل بنا قبل الزيارة.. ولو بساعة على الأقل.. فهمت؟.

رجع أبو اسكندر لمهمته يعطيها حقها كالمعتاد.. غير أن تفكيره أخذ يشغله.. لقد أحب السيدة اليافعة.. اشتهاها.. وما المانع عنده من ذلك؟.. أليست هي التي ألحت عليه لزيارتها؟.. عازبة أم متزوجة يا ترى؟.. ليتها تكون زوجته.. وهنا اصطدم بصخرة الواقع المرير الذي يعيشه وينغص عليه حياته، ويبعد عنه السعادة حتى التفكير بها.. بالسعادة كان يؤلمه ويعذبه.. لأنه يتلمس الجدار السميك الذي يحجبه عنها.. لقد فرض أهله عليه الزواج من نجوى ابنة خاله سالم.

راحت صور أحداث حياته تتسلسل في ذاكرته.. إذ كان شاباً مراهقاً مندفعاً وكذا كانت ابنة خاله.. فراحت والدته تنتهز هذه الفرصة لتجمع بينهما حرصاً على أن تكون ابنة أخيها كنةً لها.. كما أنها حكمت إذا تزوج ابنة أخيها فلن يكلفها شيئاً.. وربما بغير هذه الطريقة لن يمكنه الحصول على المال من أجل الزواج.

مرت الأيام على الشابين لوعة وجوى إلى أن توصلا بطريقة فطرية طبيعية إلى مالم يكن بحسبان أحد.

لم يكن يعتقد أن ذلك حراماً.. أما ابنة خاله فقد

أحست ان أملها قد أنجز وهي قاب قوسين أو أدنى كي تصبح ربة بيت.. كان هذا ميلها الطبيعي.. نما وكبر بروحها وجاءتها الأماني الجميلة وثبتت أحلامها على ما انتهت به مع ابن عمتها.. كانت سعيدة تعيش حاضرها ولم تحسب للمستقبل إلا ما قدرته خيراً وسعادة.. فطبقت من حيث لم تقصد: كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً أو تفاءلوا بالخير تجدوه.. كم هي مسكينة الآن؟.. لقد أثبتت هذه النظرية عكس صحتها في كل الأحيان.. ولكن ما ذنبه هو؟؟..

ووضع أبو اسكندر رأسه بين يديه خوفاً من أن ينفجر.. لحظات ثم عاد بحياته شروداً من جديد: تمت له الغربة.. وتمت له الوظيفة.. وآن الأوان بتفكير والدته للزواج.. وخاصة عندما وجده قومه يحاول أن يعشق بعض صباياهم.. لم يجد أبو اسكندر من بين أقربائه من يقبل به صهراً إلا ما كفلت له أمه.. ولم يجد من تقبله من البنات عشيقاً إلا المسكينة التي تعالى عنها وأنفها.. والمسكينة التي أحست بالضياع حتى ألحت هذه الإحساسات وتصرفات مالك قلبها حين يذهب بإجازة أو يبعث برسالة إلى أخريات،

مصارحة عمتها ثم أمها. وأخيراً بلغ الأمر الأبوين والأخ الأكبر لأبو اسكندر وقرروا مجتمعين حرصاً على مستقبل البنت وشرفها.. وحرصاً من والديه سراً: أن تكاليف الزواج ستكون معدومة.. وأنها لفرصة.

عندما وصل أبو اسكندر بتفكيره إلى هذه النقطة رفع رأسه قليلاً وتنهّد من الأعماق تنهد المفجع.. وأراد أن يبعد عن رأسه هذه الأفكار لكنه أحسّ بثقله كالجبل فوضع ساعديه على الطاولة متقابلتين وكفه الأيمن فوق معصمه الأيسر وأسند برأسه عليهما ثم أسلم نفسه للذكريات: كان ياسين أخوه الكبير ذو مرتبة أعلى من مرتبته، وشاء له الحظ أن يكون بإمرته.. أو ربما.. هكذا شاء أخوه فلعل له فضل عليه.. فهو الذي أمن له الاستخدام.

وطلب الجميع من أبي اسكندر الصغير أن يعود لرشده فيتلمس ماجنته يداه فعليه وحده تقع المسؤولية ولابد له من عمل شيء.. وليس هناك أي شيء للعمل سوى أن يتزوج من نجوى شرعاً ويلتزم بها عشيرة عمراً طويلاً.. لكنه نفر وأبى أن يعترف بجنايته.. حتى ولم يأبه بها.. لقد كانت من وجهة نظره صلة جنسية طبيعية زرعها اللّه في

نفس كليهما.. ورعتها ظروف اللقاءات والخلوات التي كانت تتحيّنها نجوى حسب تقديراته المتأخرة.. هو ماذا فعل؟.. للناس يقول: لا شيء.. وبينه وبين نفسه: إنه أمر تافه.. هي فعلت وأنا فعلت.. والآن انتهى كل شيء.. هي تذهب لقدرها وأنا أذهب لقدري.. لا أريد أن أكون زوجاً أو أباً الآن.. حتى ولا صاحب بيت.. ويا للسخرية: من أين أستطيع ان أقوم بأود بيت؟.. أنا مازلت مستخدماً لا يعيل أجري أكثر من مقتات رمقاً.. هه.

إنه لا يريد أن يقيد نفسه من الآن.. إنه يبغي الحرية.. وكم اختلف التفكير بها بين ما عاشه في القرية وبين ما يعيشه في المدينة.. إن الحرية في عينه جميلة وهي في روحه غاية ولنفسه أمنية.. لكن أخاه الأكبر راح يوجهه ويوصيه ويقدم له في كل صباح ومساء موعظة ونصيحة.. يطلب إليه أن يكون عاقلاً حكيماً فلا يرمي بفتاة جنى عليها إلى الأوهام والضياع.. إن عليه أن ينقذ شرفه وشرف عائلته من التلوث بالوحل.. أليست هي ابنة خاله؟.. أليس شرفها شرفه؟.. ويكون جواب أبو اسكندر لأخيه الصمت والوجوم ولا شيء غيرهما.. أما رده لنفسه على كلام أخيه:

أنا لا أؤمن بهذا الشرف المزيف.. ثم أنني لا أتعلق بأهل ولا بعشيرة.. إنني أتعلق بذاتي.. بنفسي.. بكينونتي.. أهل؟.. شرف؟.. شرف العائلة؟.. هه.. شيء مخز.. أنا لا أريد الارتباط بما نشأ عليه آبائي وأجدادي.. فإن كنت خاطئاً وهذا مالا أعتقد.. فحسابي على من يقدر محاسبتي.

واصطدم بأمر ورد لفكره حديثاً: المجتمع؟.. إنه يخالف عادات المجتمع؟.. وأعرافه؟.. هنا المصيبة.. ولكن أية مصيبة؟.. ماذا يستطيع أن يفعل به المجتمع؟.. يصب غضبه ولعنته؟.. غير هذا؟.. ربما لا شيء.. إذاً فليلعن وليغضب ما يحلو له وما يستطيع لأنه لا يعجبني.. إنني راضٍ عن تصرفي ولست أهوجاً.. لقد كنت أهوجاً يوم امتثلت.. أما الآن فقد بعتها.. بعتها.. ولن أعود إليها.. لا.. لا أريد ان أكون أهوجاً مرة أخرى.. إنني أدرك واقعي وقد أصبحت متعقلاً.

كان كل يوم يمر على أخيه يراه بعداً عن القضية ونسياناً لها.. ولهذا كلما جاء صباح أو مساء يتجدد العزم في نفسه ويطلبه إليه ويعيد عليه الكليشة نفسها: حرام.. مسكينة.. شرف العائلة.. إلى آخره.. ولما وجد أن جوابه دائماً هو الصمت قرر أن يضغط عليه بشتى الأساليب.. وإذا

لم ينجح صمم: على جلده.. وفعلاً راح يتردد عليه توبيخاً وتأنيباً.. تهديداً ووعيداً إلى أن تجرأ فصفعه على خده غضباً.. وكانت هنا نقطة التحول في حياة الأخوين. صمت أبو اسكندر وقتها علماً أنه كان قادراً على رد الصاع لكنه لم يفعل.. أما الأخ الأكبر فقد شعر بضخامة فعلته وسوئها.. وانفتحت في قلبه جروح شقية معذبة مؤنبة تنزف الندم والأسف ولهذا قرر الاعتذار لأخيه فدعاه إليه.. كان للاعتذار الأثر الفعال على نفس أبي اسكندر الصغير فأحس أن أخاه رقيق محب عكس ما كان يشاهد منه سابقاً فظاً قاسياً.. هكذا إلى أن استسلم الصغير لرقة الكبير.. وأمن له إجازة ومبلغاً يسيراً.

عند وصول أبو اسكندر للضيعة تناقلت أخباره الناس.. ولما رفض طلب والدته بأن يذهب إلى بيت خاله.. لأنه صمم أن يدوس وعوده التي قطعها لأخيه وأن ينسحب من ورطة لا يقدر على تحمل نتائجها.. تصنعت نجوى المرور أمام الدار بحيث تتيح لنفسها الظهور للعيون.. فتم لها ما أرادت إذ رأتها عمتها التي صاحت:

- أي نجوى.. تعالي.. تعالي يا ابنة أخي.

ـ لا.. شكراً عمتي.. إن لدي عملاً آخر هنا.. إني على عجلة من أمري.. لقد جئت لأستعير غربالاً.

ـ انتظري قليلاً.. تعالي.. أراك تترفعين على عمتك؟.. تعالي خذي غربالنا.

ـ استغفر الله يا عمتي.. أنا أفعل هذا؟.. هاه؟.. أنت هنا؟.. لو كنت أعلم.. لما دخلت.

ـ ها أنت علمت.. اذهبي.

ـ حسين.. عيب يا ابني.. هكذا تواجه ابنة خالك.. كوني واسعة الصدر يا نجوى.. لا تفعلي مثله.

ـ هي التي فعلت.. هم؟!.. هذا بدل من صباح الخير؟.. أو مرحبا؟.

صمت الجميع وكأنهم في مأتم لا يستطيعون الكلام رغم رغبتهم في التحدث.. وبدأت الأم التي لم ينقصها حسن الكلام واختلاق مادة للحديث والثرثرة.. وراحت كلما فتر الحديث هيجته من جديد.. إلى أن أصبحت نجوى في جو لا تحسد عليه.. جو تكرهه.. وهذا ما حصدته نجوى.. إذ أصر عليها عالمها بالبكاء. فلم تستطع المقاومة ولذا أرخت دموعها سيلاً ساخناً يحرق الأكباد ويهز الأفئدة.. فتوجعت

العمة وراحت تواسيها بينما حسين نزلت عليه ساعة صراع مريرة..: يجب أن يضمد لها الجراح.. عليه أن يخرجها من دائرة البؤس هذه.. هي تحبه.. لاشك في ذلك.. وهو؟.. هو سيفعل هذا عطفاً ورأفة.. ولو كان لا يكن لها في أعماقه أي حب.. ونظر إليها.. إنها لا تحمل في عينيه ذرة جمال واحدة.. علامات الخبل والفوضى فيها راية.. مظاهر الغباء؟.. تصرفاتها؟.. قالبها؟.. إنها مغايرة للنظر هو لا يملك المال ليتزوج من غيرها على رأي أهله.. هذا صحيح.. ولكنه لا يريد أن يتزوج.. وهذه الدموع؟.. وطلبات الأهل الملحة؟.. إذن لابأس.. سيقدم وليكن ما يكون.. ماذا سيكون؟.. عندئذ مرت بذاكرته سميحة.. لا تتعجل الحكم.. تذكر ما حل بسميحة أيها الأحمق الشقي.

كانت سميحة في حدود الثانية عشر.. وردة لم تتضج بعد.. وزهرة لم تتفتح.. مازالت برعماً.. ولذ لجارها وقريبها محمد أن يقطف رحيقها قبل النضوج.. فهي بعينيه ثمرة شهية.. شهية حتى الجنون للإشباع.. فراح يتودد لها ويتقرب.. يستغل طفولتها ويكشف لها عن مجاهيل لم تكن تدركها حتى تمكن من عواطفها ميلاً جارفاً له.. ولم

يكن أحد يشك بخلوة الإنسان العاقل المهذب (على رأي معارفه) بالطفلة البريئة.. إلى أن أغرقها في بحر حيوانيته تلملم أثارها ندماً وجروحاً تخفيها من أهلها خوفاً واجترارا للّذة التي كانت تعيشها معه خلسة عن أعين الناس جميعاً.. فقد قضى معها أياماً لم يذق بلذتها في حياته كلها حتى مع زوجته التي تزوجها بعد تسع سنوات من فعلته هذه وهو في سن الثلاثين.

كان غنياً وكانت سميحة فقيرة معدومة.. أطعمها الحلوى.. ومنحها القروش.. واندمج الرجل الحيوان صباً ورغبة حيوانية مع قلب الطفلة البريئة حباً ولهفة صادقة.. ونسي أي حساب للمستقبل.. أما هي فقد كانت تعتقد: أن هذا هو كل شيء في الحياة.. إذ قدرت منه الحب لها والإخلاص.. وإن لم يكن هذا؟.. لماذا كان يلاطفها؟.. إلى هذه الدرجة؟.. لماذا كان يمنحها الحلوى؟.. القروش؟.. لاشك أنه يحبها.. هذا ما خلصت إليه المسكينة من تقدير.. وخاصة عندما أحست أن في أحشائها شيء يدغدغها.. تحس بالسعادة والغبطة المختلطة بالشعور بالذنب والخوف وهو ينمو ويكبر إلى أن ظهرت العلامات الدالة للنسوة..

ولفتت نظر الجارات.. فأسرن للأم بالأمر.. وأسرت الأم للأب.. ولما سأل الأب الأبنة عن الفاعل.. أخبرته.

ـ أنت كاذبة.. محمد شاب شريف.. لا يفعل هذا.

كويت المسكينة بالنار وجلدت حتى ازرق جلدها.. لكنها أصرت.. فكيف ترمي بنفسها على من لا تعرفهم؟.. ثم.. إن حبيبها أبو الجنين لن يقبل لغيره أن يملكهما شرعاً.. كما اعتقدت.

وتأكد الأب بجميع الوسائل التي اتبعها: أن الفاعل هو محمد.. ولهذا ذهب إلى وجيه العائلة عثمان بعد أن حسب واقتنع: أنه لخير أن يبقى لأولاده من أن يقتلها غسلاً للعار ويذهب للسجن.

واجتمعت العائلة شباناً وشيوخاً.. وقرروا حل القضية بسلام.. وفشلت بعض الاقتراحات الجاهلية للتخلص منها ومن عارها أو من الاثنين معاً.. فقام وفد منهم إلى أبي محمد يسره الأمر ويطلب منه حل المشكلة على حب وتراض.

العائلة التي منها بديعة والعائلة التي منها محمد.. الاثنتان عائلة واحدة في الأصل لكن جد العائلة الأولى

كان بسيطاً غبياً مسرفاً.. باسم الخير أورث عائلته الفقر والسمعة الطيبة.. أما الثانية فكان جدها ذكياً خبيثاً بخيلاً.. أورث عائلته الغنى والخبث والبخل وعلمهم فسق الأكابر.

لقد كان هذا الفرق سبباً في تباعد العائلتين قليلاً.. فكان الأغنياء يتعالون على الفقراء ولقد زاد هذا الحدث الهوة اتساعاً.. فلما سمع أبو محمد أقوال القوم شخر ونخر واستعظم التهمة ونكر أن يتدنى ولده لهذا المستوى.. هو المتعلم الغني وهي الأمية الفقيرة التي لا تليق به.. وبعد محاولات يائسة لحل القضية تعقلاً وحكمة.. تعقدت وتشابكت وصار لها ذيول.. وتدخل الآخرون إشعالاً للنار وتسلية.. وأصبحت الفتاة ريشة في مهب رياح العائلية والفساد والنميمة والداخلين بهما.. فسقطت في بحر الضياع والنكران.

وحلاً للمشاكل مؤقتاً اتفق الطرفان على أن يقسم أبو محمد عن ابنه اليمين: بأنه لا علم له ولا خبر، وأن هذا ليس إلا تهمة باطلة.. لقد رفضوا أن يقسم المتهم.. لأن هذا لا يجوز.. أيتركون الكبير ويتعلقون بالصغير.. إن هذا عار

ﾑ في عرف مجتمعهم.. كما أن الأب يخاف على ولده حساب ونتائج القسم ولهذا عليه أن يضحي.. فليحاسب هو عن ابنه فلا ضرر إن فات الأبن الأذى إن هو حوسب عنه.

أقسم الأب على المزار الذي اتفق عليه الطرفان بمشاركة الشيخ بعد أن قبض ما أسماه (زكاته) من الطرفين وليكون شاهداً.. إذ لا يصح القسم إلا بوجود شاهد شرط أن يكون شيخاً.. نعم لقد أقسم الأب على مزار يدعى (النبي بلات).. وهكذا انتهى الخصام لفترة.. ثم راح الأبالسة يعملون تحت جنح ظلام الجهل.. لهذا نما العداء وتضخم وصارت له أسباب عدة زيادة على السبب الأول.. وارتبط أغنياء القرية بعهد ضد العائلة الفقيرة.. حيث تخلى فقراء القرية عنها.. وهكذا قرروا مجتمعين.. الأقرع القزم وعزيز آغا وعبد العزيز بك: أن يقوم الأقرع الخبيث بعشيرته وبمساعدة عائلة أبو محمد بهجوم ساحق على العائلة المسكينة يشردونها وينهبونها.. وبغير هذه الطريقة لن يسكتوها على حد زعمهم.. وعلى عبد العزيز بك وعزيز آغا أن يضعوا النتائج الحسنة في دوائر السلطة.. لكن القوم الطيبين تمسكوا ببيوتهم ومسقط رؤوسهم

ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً مشرفاً ولم تتداركهم السلطات إلا بعد أن قتل الرجل الشيخ كامل (رحمه اللّه).

اقتيد بعض الطرفين إلى السجن وكانت الأكثرية من الفقراء.. وحل القضاء عليهم يبتز مال الفقراء.. يستنفذهم تعبهم وعرقهم.. أما الأغنياء؟.. فكانوا متضامنين لا يأبهون لمال يغدقونه. ومضت الأيام تلتقي بها العيون حقداً وازوراراً وتتجابه الألسنة بالتهديد والكلام المخزي.. وتزوجت سميحة من رجل عقيم مسن.. حيث لن يقبلها بعارها في مجتمعها إلا رجل لا حول له في مرأة.

وحل الفقر على عائلتها أكثر وحكم بالسجن البسيط على كل من الأقرع وأبو محمد.. أما سميحة فقد أنجبت طفلاً ثانياً.. ولا يدري إلا اللّه من هو والده.. وتساءل حسين (أبو اسكندر): من الذي عودها على الانحراف؟.. من المسؤول عن انحرافها؟..

حدث ذلك قديماً وأصبح قديماً أما حقد العائلة وجروحها بينهما لا تزال جديدة وطازجة.

وقرر حسين: أن لا يدع الأحداث تعيد نفسها إلى حياته وحياة المسكينة نجوى وحياة العائلتين.. لا.. لن يتركها

تلاقي مصير سميحة.. واندفعت النخوة في رأسه.. فراح يلاطف نجوى ويتقرب إليها.. يهدئ من روعها.. ويطمئن خاطرها.. وتجرأ أخيراً: فأخذ منديله من جيبه وبيده راح ينشف لها دموعها حتى هدأت واستكانت ثم طبع على جبينها قبلة عطف ورأفة.. وكم سر هذا الأم وأسعدها.. فقد راحت تدعو لهما بالتوفيق والسعادة. والآن؟.. مر على التقائهما في عش الزوجية البغيض على نفسه والفاشل في عينيه أكثر من ثلاث سنوات.. وقد أنجبوا طفلة أسموها: لمياء علماً أنه لم يعش معها أكثر من خمسة أيام متتالية.. بل هجران طويل ولقاء قصير.. لكنه صمم هذه المرة الابتعاد عنها إلى الأبد.

كل هذا الوقت مر ولم ينتبه إلى أن وقت مناوبته قد انتهى إلى أن جاء رفيقه البديل فانتشله من ضياعه في يم الذاكرة العميق:

ـ أبو اسكندر.. أبو اسكندر.. ما بك يا رجل؟.. ألا تريد الذهاب؟.

رفع أبو اسكندر رأسه تعباً ونظر إلى رفيقه بعينين وسنانتين ثم نهض منهوكاً بعد أن رد على رفيقه التحية

تمتمة كأنه نفض عنه تراب رمس مرصوص. ثم حرك عينيه وشفتيه يودع رفيقه ويشكره بينما رفيقه يراقبه مستغرباً مستفسراً إلى أن كبل شفتيه ورفع كتفيه دلالة أنه لم يفهم شيئاً.

وهكذا مرت عدة أيام يناقش بها أبو اسكندر ماضيه وحاضره وما ينويه وما يتوقعه.. وأخيراً صمم على زيارة بيت السيدتين قاصداً تمتين أواصر المعرفة وإذا صح له للصداقة.

بعد أن مسك سماعة الهاتف وأدار قرصه عدة دورات راح وهو يسمع طنين جرس الهاتف يحضر: المقدمة.. ماذا سيقول للمجيب؟.. آه.. كم هو أبله؟.. لقد نسي اسميهما.

ـ ألو.. نعم.

ـ مرحبا. قالها متلعثماً.

ـ أهلاً.. مين.

ـ عفواً.. هل هو الرقم..(...)؟..

ـ نعم.. من تريد؟.

ـ أريد أهل البيت.

ـ تريد أهل البيت؟.. من تريد منهم؟.

ـ أريدهم.. هم.. أهل البيت.. أهل البيت.

ـ حسناً من المتكلم؟.

ـ أبو اسكندر.. أبو اسكندر.

ـ أبو اسكندر الذي التقينا به في الهاتف الآلي؟.

ـ نعم.. هو بعينه.. كيف حالك؟.

ـ أهلاً أبو اسكندر.. أهلاً.. يا رجل.. لقد انتظرناك طويلاً.. ما الذي شغلك عنا كل هذه الأيام؟.. هلم لزيارتنا فوراً.. إننا بانتظارك.

ـ عفواً.. إنني مشغول.. وددت تحيتكم فقط.

ـ هذا لطف منك.. لكن.. لا.. لا.. لا يمكن إعفاءك مطلقاً.. إنني بحاجة ماسة لك.. هناك أمر سأستشيرك به.. هيا.. أسرع.. العنوان؟.. العنوان يا سيدي: المزرعة مقابل مصبغة الحرية.. بناية رقم / / ف.. الطابق الأول.. الشقة الأولى على اليمين.. فهمت؟.. يالله.. مع السلامة.

كان الوقت الذي اتصل وقت انتهاء الدوام.. وكان ذلك منه بغير قصد.. لكنه شاء له الحظ: أن يجتمع اتصاله وتحضيرهم سفرة الغداء في وقت واحد.. ولهذا عندما اتصل بهم ووعدهم أنه قادم.. قرروا أن يؤجلوا

الالتفاف حول المائدة إلى أن يشاركهم الوجبة.

استعمل أبو اسكندر سيارة مهمته وانطلق بها متحدياً جميع المخاطر لا يأبه لنتيجة أية مخالفة يرتكبها.

قرع الباب.. فتحت له فتاة في الربع الأول من العقد الثاني قائلة له:

ـ نعم ماذا تريد؟.

ـ أريد أهل البيت.

ـ أهل البيت.. انتظر. قالتها ظانة أنه يعرف أمها أو أحد أهلها ثم ولّت الأدبار.

ـ أهلاً أبو اسكندر.. أهلاً.. تفضل.. تفضل.

بينما كان قلب أبي اسكندر يرقص استجابة لانعكاسات متزاحمة وينحت من شفتيه المرتجفتين بعض الكلمات التي كان يرد بها على ترحيباتهم وتأهلاتهم راحوا يمطرونه بوابل من أسئلة الاشتياق والإطراء والمزاح من طريقة مكالمته بالهاتف..

ومن نسيانه الأسماء بهذه السرعة.. ومالان عودهم حتى جعلوا أبا اسكندر يتأقلم وكأنه مضى على عشرته معهم تاريخ طويل.

تعرف على اسم عشيقة روحه ونفسه عايدة وعلى اسم ابنتها هيام وعلى اسم ولدها الفتي غسان وهو الأبن الأكبر لعايدة من أب طلقته لأنهما لم يستطيعا العيش معاً فترة أكثر (وربما السبب ديناهما وتدخل الآخرين).. ثم تعرف على أختها العانس نعيمة والتي كانت برفقتها في صالة الهاتف الآلي وهي أكبر سناً منها.

واصطدم أبو اسكندر بالصخرة الضخمة.. متزوجة؟.. ولها شاب وشابة؟.. وتذكر ابنته.. يا لسخرية القدر منه.. ولكن لابأس سيذلل الصعاب وسيحطم الصخرة.. فهي شابة رغم ذلك.. إن مظهرها لا يشير من قريب أو بعيد إلى حقيقة عمرها.. إنها في الربع الثالث من العقد الثالث.. لكن الناظر إليها يحكم بأن عمرها في حدود العشرين.. إنها شابة.. شابة لابأس بها.. ولكن.. كم أنا عجول؟.. ربما يكون لقاؤنا هذا عابراً؟.. أو ربما هو الأول والأخير؟.. سأحاول أن أجعل المعرفة أعمق والزيارات لا تنقطع.. ولي الأمل من الظروف القادمة جل المساعدة.

وراح أبو اسكندر ينكر حقيقته ويتنكر لواقعه ويظهر لأصدقائه الجدد بمظهر الإنسان المنعم المترف وصاحب

المنصب المميز والمكانة المرموقة وها هي وظيفته أتاحت له أن يكون تحت تصرفه سيارة حكومية.. له.. وحده.. لا لأحد غيره.. وسواء صدقوه أم لم يصدقوه.. فقد تلمس حقيقة حبهم وودهم.. لقد شغفوا به جميعهم.. إنه وسيم وشبابه لائق.. ولطيف المعشر.. يذهب بالملل عن نفوسهم عندما يحضر بينهم.. حاذق ورشيق.. غير مبال.. جذاب.. إنه جذاب.

تعلقت به قلوب الجميع.. ولكنه تعلق بواحدة.. بعايدة أم غسان.. كيف سينالها؟.. هذا أمر شغل كل تفكيره ووجوده.. في كل حركة يؤديها.. في كل عمل ينجزه يكون هدفه النتيجة التي يحلم بها (نيل ما يتمنى).

وطالت الأيام يتودد إليهم حتى أصبح كأحدهم في البيت.. لكنه كان في كل يوم يشتد لهيب ناره عن أخيه أواراً.. فهي كل يوم تستقبله بالشيال.. قاعدة نهديها الصاروخيين كرخام إلهي هامت بها عيناه واشتهت أكلهما روحه.. وزنداها المكشوفان؟.. وكتفاها العاريان تقريباً؟.. وساقاها حتى فوق الركبتين؟.. كل هذه المظاهر سلبت لبه وراح يحترق.. ويحترق.. والشيء الذي كان يفقده

عقله ويثمله زيادة عما هو به.. إدبارها له.. فتظهر ثنايا ركبتيها السمينتان كالموز المقشر لوناً وكم يود لو يعتصرهما بأسنانه.. أو عندما تجلس أمامه وينحسر فستانها بقصد أو بغيره قليلاً لتظهر له فخذاها كقدسية حلم ركع له وعبده.. وهذا النفق الذي يراه؟.. والذي يشترك الفستان مع الفخذين بصناعته؟.. إلى أين يؤدي؟.. آه.. يا ويله.. كم هو بائس معذب وشقي؟.. ياللّه.. ولكن لابأس.. يجب ألا تتعجل الأمر.. العنف؟!.. لا!.. سأحرم من أماني.. سأحترق بنار الحرمان أكثر.. يجب أن أكون لطيفاً أديباً.. أن أظهر خلوقاً.. وبغير هذه الطريقة لا يمكن قضاء الأرب.. لم لا؟.. ما المانع؟.. إن رضيت بي؟.. سأتزوجها.. إن هذا أخير وأسلم.

لكن تفكيره بالزواج أعاده بذاكرته إلى زوجته وأيامه معها.. وأقام مقارنة بين زوجته وعشيقته زوجة المستقبل.. بين حياته هناك وبين ما يحلم به من حياة هنا.. ولكن عايدة أكبر منه بعقد تقريباًً؟.. لا مانع.. إنها شابة فتية.. ثم إنها شهية.. شهية حتى الجنون.. سيفعل.. سيفعل.. ربما ترفض؟.. فهي غنية وهو مهما حاول أن يخفي الحقيقة..

فستظهر لها أخيراً حقارة فقره المدقع.. وإن كان؟.. ما الحيلة؟.. إنه لم يعد قادراً على البعد.. سيغامر ولو علمت ما شاء لها أن تعلم.. وليكن ما يكون.. سأصارحها بالأمر.. ويكفيه ما ذاقه ألماً من حروق.. إما أن تأبى ويكون له في ذلك كفاية فيمتنع عنها ويرتق جروحه إن أمكن.. وإذا وافقت فتلك النعمة بذاتها.. فسيضعها بين طيات قلبه وسيداوى برحيقها جروحه وسيرطب من ريقها جوفه المحترق فيطفئ النار بها.. وسيعيش معها سعيداً مسالماً قانعاً تائباً إن قدر له ذلك.

وراح يتحين الفرصة لينجز ما حاكه في رأسه.. لكن حظه كان سيئاً فلم يستطع أن يقبض على الفرصة بإحكام علماً أنها مرت عليه أكثر من مرة.. إلى أن فرجت أخيراً.. ويعود الفضل عليه بذلك لعيد ميلاد ابنتها هيام.. فقد طلبت إليه الأم أن يذهب بسيارته إلى إحدى القرى فيشتري للمناسبة السعيدة بعض البيض والفراريج.. وكان ذلك لأبي اسكندر بداية الأمل في نيل ما تمنى.. فعندما أحضر المطلوب رفض قاطعاً: أن يأخذ الثمن.. بحجة أنه واجبه.. وقد قال ملمحاً: إنني أعتبرها ابنتي.. أقدم لها

واجبي.. كان عليه أن يعتبرها أخته لأنها شابة مثله تقريباً لكنه أراد بقوله هذا أن يظهر أمنيته فيكون عماّ لها بمقام الأب.. وربما تلمست عايدة قصده.. ولهذا أو ربما لغيره اللّه أعلم طلبت منه بعد عدة أيام من إطفاء الشموع أن يحملهم رفيقاً بسيارته إلى صيدنايا.. يزورون بيتهم هناك الذي مازال في طور الإنشاء وليبدي رأيه به وبموقعه.. كان لهذا الطلب مكانة قيمة في عقل أبي اسكندر وروحه.. وفعلاً حمل الجميع وانطلق بهم يظهر لهم براعته في قيادة السيارة.. سيارة اللاندروفر.

كان أبو اسكندر يسرق النظر بين الفينة والأخرى إلى ما ظهر من مفاتن الجسد الجميل.. وهو يعاتب بلاهته وغباءه.. لأنه لم يستطع أن يرى في حكمته حيلة يشفي بها غليله من عدوه الحبيب والملاك الجميل الذي بجانبه.

عند العودة وهو على ما هو عليه من إجهاد للفكر وتأنيب للعقل جاءته فكرة بلهاء.. ناقشها.. فوجدها تافهة.. ولكن ما الحيلة؟.. سأكون وقحاً.. سأنفذها.

كان يمشي الهوين قصده أن يطيل النزهة.. اندفع بسرعة جنونية فجأة.. أرعب بها الجميع.. وفرض عليهم

الرجاء علّه يعود لتخفيف سرعته.. تجاهل نداءاتهم وصمتوا يكللهم الخوف والهلع.. ولم يقبل لهم رجاء.. وعندما تمكن من مشاعرهم.. أخذ يمينه وتوقف بدون سبب ثم أسند رأسه على المقعد يتصنع ألماً ثقيلاً حل به.

ـ ماذا دهاك؟.. أبو اسكندر؟.. هل تشكو ألماً.

ـ إني أحس أن رأسي يكاد أن ينفجر.. آه.. آه رأسي.. رأسي.

ـ سلامتك. كرر الجميع.

ـ سلامتك.

ونظروا إليه ببؤس وتوجع.. وتحول خوفهم المرعب إلى حزن في نفوسهم على نديمهم وأنيسهم وتطلعوا إلى بعضهم يتساءلون صمتاً: ما الواجب اتباعه؟.. لكنها ترددت بعض عبارات التشجيع وتطيب الخاطر على أبي اسكندر: حقاً إنه شاحب.. وظنوا أنها علامة تغير سببها مرض مفاجئ.. والحقيقة: أن شحوبه سببه شقاء روحه وتشاؤمها من المستقبل الذي سخر له جميع إمكانياته العقلية والنفسية والمادية ليظهره في حياته انتصاراً ونجاحاً.. إلا أن الفشل يلاحقه؟.. وهذه المرة؟.. إنه لا يدري نتيجتها؟.. المهم: لقد صمّم على شيء.. لكنه لم يدرِ ما هو.. ولهذا أطلق كلمته

جذافاً لا يتوقع منها أي نتيجة.. ولكنها كان لها الأثر الفعال وأعظم النتائج على حياته آخراً.

ـ إنني ما عدت قادراً على قيادة السيارة.

ـ هل يعني أننا سنمكث هنا؟.. طويلاً؟.

ـ لا.. سأذهب إلى المفرق.. سأستأجر لكم سيارة.. تاكسي.

ـ وأنت؟.. تبقى في السيارة وحيداً؟.. لا.. لن نتركك وحيداً.

ـ هذا لابد منه.

ـ عندي فكرة.. ما قولك؟.. لو أنا مسكت المقود عنك؟.. أساعدك؟.. وأنت تتجز الباقي.. إنني ملمة.. قليلاً.. ما رأيك؟.

ـ أخاف العاقبة؟.

ـ جرب؟.. ألم أقل لك: إنني ملمة.

ـ حسناً.. لابأس.

وزحفت بقعدتها بسرعة الإنسان المولع الملهوف لتعلم قيادة السيارة.. والتصقت به وقبضت المقود بيديها وأسندت بكتفيها العاريتين على صدره الذي أحست بدفئه وبصعوده وهبوطه غير العادي.. وربما تأكدت من أن الثورة جن جنونها في رأسه والتهبت النار في جسده.. ولم يرخ للسيارة

العنان.. لأنه يريدها بطيئة متهادية.

يدا أبي اسكندر مسبلتان على جانبيه.. مقيدتان.. فكر بتحريرهما لهذا راح يحاول وضع يده اليمنى على كتفها الأيمن.. متردداً.. تارة يرفعها إلى مسند المقعد وأخرى ينزلها على المقعد.. وأخيراً خدمه الحظ مرة أخرى.. بقدوم شاحنة كبيرة تواجهه مسرعة.. وشعر أن عايدة قد ارتبكت فأسرع يقبض المقود بيساره لكن يده اليمنى اصطدمت بكتفها.

عندما شعر أن عنقها أصبح حاجزاً يمنع يمينه عن المقود أحب هذا الحاجز وراق له هذا المنع فاستسلم ليمينه وساعد عايدة على تلافي الشاحنة بيساره.. ولقد تصنع بأنه فعل هذا بغير شعور منه.. وربما كان منه ذلك.. الله أعلم.. وعلى كل حال فقد وجد أخيراً أصابعه تتلمس اللحم الشهي الناعم.. فارتعد.. ولكنه تجرأ ووجد مخرجاً لنسيانه المتصنع: إن يده موجودة على الكتف تداعب بأصابعه العنق بسكون فقوله:

ـ إنك تجيدين التحكم بالمقود؟.

ـ لقد تدربت قليلاً.

ـ ما رأيك لو علمتك قيادة السيارة؟.. طالما أنه عندك كل هذه الإمكانيات؟.

ـ أتمزح؟.. تهزأ بي؟.

ـ أستغفرك.. أستغفر اللّه.. أقسم.. لا.

ـ إنني راغبة.. لي رغبة.. مستعدة.. وسيكون لك عظيم الشكر.

راح أبو اسكندر يطير بعايدة على طرق المنتزهات.. والجبال والصحراء.. وكانت كل دقيقة تمر من حياته وهي إلى جانبه يعتبرها سنيناً طوالاً.. ويذوق فيها مرارة الشوق والشهوة مدعمة بالحرمان.. فكم مرة بدل السرعة ليسمح ليده ملامسة ركبتيها فقد كانت يده لا تبرح قابضة ساعد السرعة.. كانت هي تفهم ذلك وتتجاهله وربما كانت واللّه أعلم؟.. تعاني من كرب وشوق وعذاب أكثر مما يعاني.. ولكن هذا كله لم يجعله يخرج عن تعقله.. لأنه لم يكشف شيئاً من جواها.. لهذا تابع معها جاداً.. مظهراً أدبه.

أخيراً امتلأت عروقه حنقاً وضغطاً حتى كادت أن تنفجر لولا أن بديهته التي بخلت عليه أرشدته وقرر

الاستجابة لذلك.

وفعلاً.. عندما خرج من المدينة.. أوقف السيارة على اليمين.. وتصنع آلام الرأس.. ولهذا قالت:

ـ أرى آلام الرأس عندك عادة؟.. لعلها تفاجئك هكذا؟!.. دائماً؟..

ـ كلا.. إنها حديثة العهد بي.. آه.. لا أدري ماذا أصابني؟.

ـ أقود السيارة عنك؟.

ـ لا.. لا.. لا أريد أن يحدث لنا مكروه.

ـ لحظة.. ريثما يهدأ.. آه.. رأسي.. رأسي.

وراح يناور بتفكيره.. هنا ستكون نقطة النهاية.. إما لا.. وإما نعم؟.. سيصارحها.. وإن اضطرته؟.. فسيركل أمانيه.. ويدوس على حبه.. أو ربما يستعمل معها العنف؟.. إنه لا يستطيع أكثر من هذا صبراً.. وتحشرجت الكلمات في حلقه:

ـ عـــــايدة.. أريد أن أقول لك شيئاً.

ـ ما هو؟.. هات.

ـ عديني أنك لن تغضبي.

ـ أعدك.. لن أغضب.. هات.. احكِ.. قل.

ـ سأكلمك بموضوع.. إما أن توافقي.. وإما.. لا.. فإن وافقتي؟.. فهذه أمنيتي أشتريها بالدنيا.. أشتريها بالخبز والدم.. وبالدموع.. وإن.. لا.. فلي رجاء أن نبقى على ما نحن عليه.. كأنه لم يكن بيننا أي حديث.. نبقى أخوة.

ـ حسناً.. تكلم.. هات.

ـ لقد مضى على معرفتي بك زمناً لابأس به.. أحترق فيك حباً وهوى.. كل يوم عذاب.. لا أعرف السعادة.. إني لا أحس بها رغم عيشها معي.. معك.. إنني ما عدت أحتمل صبراً.. إنني أحبك يا عايدة.. أحبك بكل ما في هذه الكلمة من معنى.. فإن كنت تقبلين مبادلتي الحب بالحب فأنا لابد عابدك.. وإن أبيت؟.. فلي طلب: أن تقبليني أخاً لك لا يؤثر على علاقتنا حديث.. نعتبره وكأنه لم يكن..

كانت تنتظر منه هذا على أحر من الجمر.. لقد أحبته ووقعت بالشباك التي وقع بها ولكنها تمالكت إرادتها حتى تمكنت منه.. ولهذا قالت بهدوء مبتسمة:

ـ حبيبي.. هناك فرق بيننا.. أنا أكبر منك سناً؟.

ـ أعرف هذا.. لا يهمني.. لا يهمني.

ـ ربما تغير رأيك بعد عمر قصير.. هل أنت واثق أنك لن

تتخلى عني عندما أصبح بنظرك غير نافعة؟.. بينما تكون انت في عز شبابك.

ـ أنا واثق.. لا.. لن ينحيني عنك لا عجز ولا مرض.. فأنا أحبك حتى درجة العبادة.. لن أنساك.. لن أنكرك.. لن أتنكر لك.. لا.. لا.

كل هذه المحاولات لم يحصد منها أبو اسكندر ما يشفي غليله.. لأنها لم تجب بلا.. ولا بنعم.. بل سكتت وسكت معها.. واشتد قلبه خفقاناً.. وعروقه انتفاخا.. وكيف سيحصل منها على جواب؟.. لا داعي لأن يسألها مرة أخرى.. فيحرجها.. إذاً ماذا يفعل؟.

وتجرأ فرفع يده إلى عنقها وراح يداعبه برؤوس بنانه وهي سعيدة.. مسرورة من تصرفه.. انتقل إلى نحرها وكتفيها.. راح يجذبها نحوه شيئاً فشيئاً إلى أن التصقت به وأخيراً ضمها إليه وأخذ يقبلها بشهية وعنف.. ونسي واقعه حتى أنه لم يفكر به وانشغل عن كل شيء باللحظة السعيدة.. اللحظة التي اندملت بها جروحه وأنسته ما ذاقه من ألم وعذاب.

ـ لعل أحداً يرانا؟.. ها هي سيارة قادمة.. أبعد.. أبعد.

ورفع أبو اسكندر شفتيه عنها واستوى على مقعده وعاد بسيارته من حيث أتى قضى الاثنان المسافة صمتاً.. إلا أن كل واحد منهما كان يفكر بشروق شمس السعادة في نفسه.. عايدة تقول لنفسها: أنه شاب يمتلئ رجولة وحيوية.. من أين لها أن تحصل على مثله؟.. لو لم يكن قد خدمها الحظ به؟.. هي المطلقة وولداها شابان؟.. وهو الفتى اليافع؟.. ولكن هناك شيء تخشاه؟.. ما دينه؟.. إن اسمه: أبو اسكندر واسمه لا يدل على دينه.. إن بعض تصرفاته توحي بأنه ابن دينها.. ولكن هناك شك في نفسها.. أتسأله يا ترى؟.. إن هذا عار.. لا.. لا.. لن أسأله فليكن دينه ما يكون.. سأستسلم له بحجة أنني أعرفه ابن ديني.. أما أبو اسكندر؟.. فكان منشرح الصدر.. مغتبطاً.. يمني نفسه بالسعادة.. ها هي استجابت لرغبته ها هو وصل إلى ما كان يعذب روحه ويشقيه.. آه.. كم هو غبي؟.. لو فتح بابه من زمن بعيد لأدخلها به جنة ينعم بها.. ولكن لابأس.. ها هو قد وصل إلى ما أراده.. سيعوض ما فاته.. آه.. ربما هي أشهى الآن؟.. لأنه تعذب بها.. لو حصل عليها منذ معرفته بها؟.. ربما كان ملّها.. وأنفها؟.. وبنفس الوقت الذي كانت

تتساءل فيه عن دينه اصطدم تفكيره بالجزع.. لو تعلم ما دينه؟.. ماذا ستفعل؟.. ربما تنحيه؟.. تتركه؟.. وأعجب من تسميته أبو اسكندر.. لقد تجاهل اسم حسين المتمم لاسمه.. ولكنه كان خائفاً من أن يكشف لها فتوبخه وتتهمه بالخديعة.. ولكن ماذا يفعل؟.. إنه لم يخدعها.. ولم يقل لها شيئاً من هذا أو من ذاك؟.. بهذا سيلاقي مخرجاً له.. إن كنانته مليئة بالحجج.. وإن كانت خاوية بأمور أخرى.. إن أصرت؟؟.. سيتبع دينها لأنها هي بعينيه دينه وغايته.

جوّ البيت تلك الليلة كان يختلف عن غيره.. لأن عايدة كانت منهمكة بإكرام أبي اسكندر أكثر من قبل.. وهو كان يفيض فرحاً ويخرج منه ما لم يسمعوه من قبل.. لقد أدخل البهجة على نفوسهم وقلوبهم أكثر مما مضى.

راحت تختمر في رأسه فكرة: كم دعته لأن ينام في منزلهم؟.. ويوفر على نفسه مشاق الذهاب ليلاً ومخاوفه؟.. ولكنه كان يأبى بحجة ما جبناً وخوفاً مما لم يكن يستطيع أن يحكم على نفسه به.. أما هذا اليوم؟.. ما

سيكون تصرفه؟.. إنه لا مفر له من أن يعتذر.. آه.. ليتها تلح عليه هذا اليوم لاستسلم لرغبتها.. وتصور نفسه نائماً يفكر بها وبينما يكون على ذلك تدخل عليه بالشيال الشفاف.. إنه سيتصنع النوم.. وتصورها ترمي بثقلها عليه.. وعندئذ خرجت منه هزة رقص لها كل جسمه.. قشعريرة وخوفاً وحتى سعادة.

ـ ماذا دهاك؟.. أبو اسكندر؟.. لماذا ارتجفت؟.

ـ لا شيء.. لا شيء.

وأحسّ المسكين بالخجل.. وهزء من نفسه عندما راحوا يعلقون مازحين مما بدا منه.. وكم لام نفسه على ذلك.. وضحك من تصوراته ومن أحلامه.. ولكنها فترة صمت قصيرة ثم عاد بذاكرته إلى تصوراته السابقة وبلا شعور.. هذه المرة تساءل: وإذا لم تأتِ إليه.. ماذا سيفعل؟.. هز واثقاً من أنه لن يستطيع النوم.. أيذهب إليها؟.. وإن طردته؟.. وإن استقبحت فعلته؟.. ماذا سيكون دفاعه؟.. ربما توبخه.. وربما ينتهي كل شيء.. وتلمس عجز رأسه عن حل القضية المعتمدة فيه.. وكم أجهد لذلك تفكيره؟.

وأخيراً خلصه من جميع تصوراته المعذبة صوت

ملائكي ناداه بحب: أبو اسكندر.. أبو اسكندر.. شرف.. شرف.. ولما رفع رأسه رأى أن المائدة قد أعدت والتفت حولها العائلة ينتظرونه ويهتفون: ياللّه أبو اسكندر.. تعال.. شرف.

كانت عايدة لا تزال واقفة.. وعندما نهض عن الأريكة أدبرت إلى المطبخ.. وبشكل رسمي أو طبيعي جرت العادة التي لم تتغير يوماً: أن يجلس حسين وعايدة متجاورين.

كان كرسي عايدة لجواره خالياً وكانوا جميعهم ينتظرون عودة عايدة ليبدؤوا معها تناول الطعام.

الانتظار على المائدة ممل ولو كان قصيراً.

وأخيراً أطلت عايدة وبيدها شمعة كبيرة وإناء من النبيذ.. ولما وقفت بجوار أبي اسكندر وضعت إناء النبيذ وثبتت الشمعة على الطاولة ثم مسكت أبا اسكندر من يساره تطلب إليه الوقوف.. فامتثل لأمرها.. قالت: إني أريد أن أقدم لكم بشرى سارة أعتقد أنكم ستسرون جميعاً.. أو على الأقل أكثركم.. ولكن أرجو لكم جميعاً السعادة لأنني أنا سعيدة بما سأبشركم به.. لقد طلب يدي

أبو اسكندر.. لقد خطبني.. وأنا راضية.. مستجيبة لما طلبه مني.

كانوا ينظرون إليها بعيون جاحظة مشرقة تسجل على أشرطة أفئدتهم خلجات قلبها المغتبطة السعيدة.. حتى وصلت بهم إلى ماذا قلتم الآن؟.

فأجابوها جميعهم مهللين بشراً وسعادة: بدعاء التوفيق لحياة مقبلة ولا أحسن منها.. أما الخطيب فقد احمرت أذناه وأرنبة أنفه وخفض رأسه خجلاً.. لكنه استعاد شيئاً من هدوء طبيعته عندما راحوا يهنئونه ويباركون له في عروسه الجميلة التي تحبه حباً جماً.. كما أنهم لم ينسوا أن يسبغوا عليها أكثر مما قدموه للعريس.. قالت: لِمَ أنت خجلان يا أبو اسكندر؟.. لقد أصبحت سيد هذا البيت.. تعال.. تعال.. وطوقت عنقه وقبلته أمام الجميع قبلة خفيفة وناعمة.. فأشاح البعض بنظرهم وابتسم آخرون.. وربما حسدها بعضهم ولو على سبيل المثال ابنتها هيام.

سكبت الخمر للجميع.. فشربوا الكؤوس احتفالاً وسمراً ولم يظهر أحدهم إلا بمظهر الموافقة والانشراح مما أبدته عايدة على خطبة أبي اسكندر لها.. شربوا نخبه

ونخبها وشربا هما نخب بعضهما.. وقضوا ليلة لم يكن يشابهها مما مضى من تاريخهما إلا نادراً.

استعاد أبو اسكندر متانة أعصابه وفقد حياؤه لما أغرق به من شراب.. فاختمر لبه وفقد شيئاً من اتزانه الجدي.. وكانت عايدة أكثر منه ثملاً ونشوة.

لما كان للقلوب حديثها الخاص.. فقد أحس أبو اسكندر أن هياماً تراقبه عن كثب متضجرة منه ومن أمها وخاصة عندما كان يقبلها.. وظن أنها ربما تحترق حسداً ولهفة.. وربما كرهاً.. ربما له؟.. ربما لأمها؟.. ربما للاثنين؟.

كانت تحكم: كان على أمها أن تترك لها الساحة.. أن تفتش عن رجل يماثلها.. أن تترك لها هذا الفتى.. لأنه يماثلها.. يجب أن تكون هذه الشفتان التي يعتصر رحيقهما شفتيّ.. وليس لأمي الحق أن تحضن للذة شاباً لا يليق بها إلا ابناً.. يجب أن يكون لي.. ولكن كم هو غبي؟.. تعلق بالخدود المجعدة والجسد الناشف وترك الشفاه والخدود الرطبة والجسد البض الطازج.. تعلق بالنهد المطاطي وترك الرمان المعطر الذكي.. آه.. كم أكرههما.. أكره إني

أكره الجميع.. وكادت أن تصل بتفكيرها إلى أن: لو صح لها.. ستقتلهم جميعاً.. أو ربما أمها فقط.. لكنها عادت لتؤاسي نفسها أخيراً: أنا مازلت صغيرة.. وهي؟.. هي أمي.. لا عليها.. يجب أن أسامحها.. أن أساعدها.. وأحس أبو اسكندر بالحرج لما لاحظه من هيام تغيراً في الابتسامات واللون والانطباعات وبالنظرات.. لكن وجوده الحديث العهد دعاه لأن يبعدها من مخيلته وأفكاره.. فليتجاهلها وليتناساها.

وانغمس في دوامة اللا إرادة واللاشعور واللا تعقل.. لكنه كان يغطي هذا كله بفرحته وبما هو عليه من سعادة.. وكانوا جميعهم يقابلونه السرور والاغتباط.. ليقدموا له ما أمكنهم في سبيل المحافظة على سروره وسعادته.. له ولحبيبته.

نام أبو اسكندر تلك الليلة ونسي جميع تصوراته وتأملاته.. لأن الخمرة افقدته كل تفكير له بأي شيء.

هناك شيء واحد بقي متمسكاً به سراً.. اسمه الحقيقي.. فهو لم يخطئ مرة.. ولم يبد أية إشارة تدل من قريب أو بعيد على دينه.. لأنه وجه كل اهتمامه لهذا..

وحرص عليه حرصاً شديداً حتى في ساعة سكره.

لما استيقظ أبو اسكندر في الصباح عادت لمخيلته أحلام البارحة.. وسأل نفسه عن نتائجها.. أحس أنه فشل فشلاً ذريعاً وخسر خسارة لن تعوض.. فأنب نفسه على ما أسماه رأس القضية وأفلته من يده.

خشي مراودتها.. إذ خاف أن تعتبره يهيض بها.. أو ربما يمتهنها.. ولهذا عدل عما ساورته نفسه به.

وهكذا مرت أيام والعلاقة بينهما على ما كانت عليه سابقاً.. إلا أنه تعود حديثاً على أن ينام في بيتهم.. ويتلاقيان بالقبلات ويتوادعان.. إلى أن جاء يوم اختمرت به مشورته لعقله.. فصمم أن يقطف منها هذه الليلة عنقوداً يسكره: وبعد القطاف الأول؟.. يسهل القطاف ويزداد الجنى.

ذهب إلى غرفته قبل الجميع ودون استئذان.. ولما أطال العودة.. قامت عايدة لتستفسره فوجدته مستلقياً على فراشه يدخن بشهية وينفخ الدخان بعزم ليرتطم تقريباً في سقف الغرفة. قالت له:

ـ ما بك يا أبو اسكندر؟.

ـ لا شيء.. لا شيء.

ـ إذن لماذا انفردت؟.

ـ عشقت الوحدة للحظات.

ـ إذن.. معذرة.

ـ إلى أين؟.. تعالي.

ـ تقول: أنك تحب أن تنفرد؟.

ـ لا.. لا.. تعالي.. جاءتني فكرة.

ـ ما هي؟.

ـ إنني لا أطيق النوم.. إن أجفاني متمردة.. ولا أعتقد أن إنساناً في الأرض كلها ولو كان طبيباً.. يستطيع أن يؤنسني ويبعد عني مللي.. إلا أنت.. ولهذا لي رجاء لو تسهرين معي؟.. نتسلى.. ونتحدث؟.

ـ لن يتركونا.. سيتبعنا الجميع بعد لحظات.

ـ اقفلي الباب.

ـ ماذا تقول؟.. سيظنون.

ـ وإن ظنوا؟.. أرجوك.. إن رأسي يكاد ينفجر.. تعالي.. تعالي.. اجلسي هنا.. بجواري.

وجلست عايدة وتركت الباب مفتوحاً.. وراحا يتهامسان ببعض الكلمات.. وقد صح تقدير عايدة؟.. إذ

جاؤوا جميعهم يستطلعون ما أبطأهما هنا.. لكنهم أحسوا بالخجل والفضولية عندما وجدوهما منشغلين عنهم بحديثهما الخاص.. فنظروا إلى بعضهم وانسحبوا دون أن يقولوا أي شيء.. أما نعيمة فقد أغلقت الباب خلفها.. ولم يطل المقام بهم حتى ذهب كل منهم إلى فراشه.. وهكذا أطفأت الأنوار وبقيت غرفة أبي اسكندر مضيئة ينبعث في جوها أحلام نفوس مندفعة وتأوهات شوق محترقة.. وتفوح منها رائحة القبل المتزاحمة التي تعبر عن الشوق والشهوة.

كانت كل حركة من أبي اسكندر تحتاج للتفكير وللجرأة.. لكن جرأته وتفكيره كانا متدرجين.. فقد راحت يده تتنقل من مكان لآخر.. وتابع مناوراته وحركاته مصمماً: أنه لا مفر لذلك من ذلك.. فقد آن أوانه.. وأينع.. فحان وقته.. وقطافه.. وبعد محاولات:

ـ ماذا ستفعل؟.. إن هذا حرام !!.

ـ أي حرام بهذا؟.. إنني لا أقتل أحداً.. لا أسرق أحداً.. لا أكذب على أحد.. أين الحرام إذن؟.. أين؟.

ـ يجب أن نذهب.. نحكّم هذا شرعاً.

ـ أي شرع هذا؟.. ما الفرق بين أن نذهب إلى رجل الدين

ليقرأ بعض كلمات لا نفهمها.. أو لا نذهب؟.

ـ أرجوك.. حبيبي.. كن متعقلاً.. إنك لست على شوق أكثر مما أنا عليه.. ولكن علينا أن نكون عاقلين..؟.

ـ إنني يا عزيزتي ما عدت أحتمل صبراً.. ثم.. إن المانع الذي تتكلمين عنه سخيف.. سخيف جداً.. وهو ضعيف لا سلطان له على العاقلين والشجعان.. جربي إن كان يستطيع ممانعتنا أو عقابنا.. إنه سخف متوارث.. اسمعي.. عندي فكرة ما رأيك؟.. هذه صورة الرب.. قومي نصلي لها ونستأذنها.. إنها فكرة؟.. ماذا قلت؟.. لما لا تجيبين؟.. قومي.. إي.. حبيبتي؟.. هيا.. هيا.

ورفعها أبو اسكندر من معصمها.. وتقدم بها إلى الصورة.. ثم أوقفها أمامها وراح يخاطبها ببعض كلمات لا تخرج إلا من قديسين أصحاء: أيها الرب العظيم.. لقد أطعمتنا من ريحانة رحمتك وقدمت لنا السعادة تقتات بها أرواحنا ولا نؤذي بها أحد.. أيها الرب العظيم.. لقد احتال على أبريائك منافقون ادعو الصلة بك.. فشوهوا سعادتك وحولوا برسيمهم نعيماً وجنتك التي منحتها أبناءك عذاباً وشوكاً وحرماناً.. أيها الرب العظيم.. إنني أحبك.. لأنك

تحبنا إذا أحببنا بعضنا.. وأنا وهذه المخلوقة الطيبة تحاببنا مبتعدين في حبنا عن أذى أبناءك أخوتنا.. أيها الرب العظيم.. إنك أنعمت علينا بغرائزنا سعادة لا يعادلها سعادة ولكن الكلاب أرادت أن تعتبر نعمتك هذه من صنع إبليس.. وليس لإبليس إلا مالهم.. وهم خدمة.. باركنا أيها الرب لأننا امتثلنا لمشيئتك.. وخالفنا الكلاب النابحة.. باركنا.. باركنا.

وكان يجيد أبو اسكندر بعض الحركات التي تعطيه صفة التدين.. فهو قديس بارع.. وقلدته عايدة.

أمسكها من يدها وعاد بها إلى الفراش.. وفترة صمت ملزمة بالخشوع هيمنت على كليهما.

- إني أفكر بما قلته للرب؟.. ربما أنت قديس؟.. ولكنك مخالف للنمط.

- إن هؤلاء يا عزيزتي ليسوا منا.. إنهم المحتالون الذين يودون أن نحملهم على ظهورنا باسم الرب.. وهم منافقون.

- إن قولك هذا يدعوني إلى الواقعية.. إنه قريب من الصحة.. بل قل: إنه صحيح ولكن هذا مخالف؟.

- مخالفة؟.. أية مخالفة؟.

ـ لن يؤيدك أحد.. سيرجمونك بالحجارة.
ـ أنا لا يهمني.. أبغي الحقيقة.. وأعتقد أنك ستكونين إلى صفي.. وهذا ما لمسته.. إذن لاهم لأقوال الناس ولا لآرائهم؟.. فإن أعجبك قولي وهو الحق؟.. فهذه رغبتي وأيم الحق.. وإنه لعظيم فرحي.. والآن؟.. دعينا من هذا.. فقد نامت أعين السعداء والمترفين.. وبقيت وإياك نسهر سهداً والسعادة عنا بعيدة وهي بين أيدينا.. فتعالي.. تعالي.. نمتطي الحب ونرتشف بحراً ألذ من الطيب.. ولك في عنقي أمانة لن يستطيع أحد حملها غيري ومحاسبتي عليها إلا أنت.. كما أن لي في عنقك نفس الأمانة.. أن نبقى أحباء.. متعاونين.. وإن كان لك رغبة؟.. ما لم أفكر به.. فلنأمل وبرجاء أن نرزق بأطفال جميلين.. وليكونوا قلة.

هدأت مطية الشوق في نفس عايدة.. وزاحمتها مطية الخشوع.. من صلاة أبي اسكندر.. أما هو فقد راح يحاورها إلى أن أسلمت نفسها لفراشه ورأسها لزنده وجسدها ليده يكشف عنه كل ما ستر به.. وركب لذته وقبض زمامها يتكيف بها رغبته وما يشتهيه.. يحصد لها نجوم السعادة المنعشة ويرميها بين قدميها لتسجد لها..

ولتقدم نفسها شراباً لترشفه العروسة الرعناء.. المحرومة.. التي عانت الكبت بالقيد.. لقد أفلت الزمام منها هذه المرة.. فأسلمت نفسها للسعادة الروحانية تتأوه بها.. وتعب.. ثم تعب.. فلا بد من الارتواء.. إنه على قيد زمن قادم.

ـ آه.. كم أنا سعيدة الآن.. لكنني أخاف على هذا اللقاء من أن تسخر منه التقادير؟.

ـ لا مجال للتقادير يا عزيزتي.. هنا.

ـ كيف؟.. طمئني؟.

ـ الحب والتفاهم أقوى من كل التقادير.. تطردها.. تهزمها..

ـ إننا تعاهدنا؟.. أليس كذلك.. لا داعي؟.. أنا واثقة.

ـ ثقي.. فأنا واثق أيضاً.

ثقة أبي اسكندر لم تتغير.. لكن ثقة عايدة راحت تعصفها رياح المفسدين والفضوليين وذوي المآرب.. وما ربما يتكشف لها من أسرار يخفيها عنها معبود قلبها.. إنها لم تعد قادرة على الخلاص مما ربطت نفسها به حباً وهياماً.. فراحت كل ليلة عن أخرى تزداد بها همومها وظنونها.. كم مرة حاولت بطريقة أو بأخرى أن تقف على حقيقة شيء وشي به حبيبها.. ولكنها لم تستطع.. وهكذا راحت

تعيش أيامها حباً وجنوناً وغيرة عمياء وشكوكاً متضاربة.. ولم تحصد من تجاربها إلا الخيبة والندم على ما جنته واعتبرته خيانة بحق الحب المقدس الذي ربطت به قلبها بعاشق ظريف طيب القلب يحبها.. أو هكذا لمست منه حباً حتى الجنون.. فكم من مرة همس في أذنها: أن أبا اسكندر شوهد مع ابنتها يختليان.. يتعانقان.. يتبادلان القبل الغرامية.. لكنها لم تستطع مرة واحدة إثبات التهمة.. وكم مرة أخبروها: أنه كان برفقة سلوى ابنة المطربة دلال تارة في الشارع والسينما وأخرى في السيارة على الدروب الطويلة.

أشغلتها هذه الأخبار كثيراً وأخذت من وقتها وتفكيرها كليهما.. فأضنيت.. لكنها ما وقفت على شيء.

الحقيقة أن أبا اسكندر.. كان يشغل روحه قليلاً بدلع هيام.. لكنه لم يكن يترك لنفسه العنان كي يتمادى معها أكثر.. فهو قانع من أمها حاجته حباً وعشقاً وصبابة ولذة مفرطة ولم يدر يوماً في خلده: أنه سيواجه هياماً ترمي بنفسها عليه.. إلى أن جاءه ما لم يكن يحتمله.

دخل أبو اسكندر المنزل ذات مساء فلم يجد به إلا الطفلة اللعوب.. ولما سألها عن والدتها.. أجابته: أنها هنا.. وفتش عنها كل المنزل وهيام من ورائه تلاحقه ثرثرة ودلعاً ومع هذا فلم يحصد إلا هزء هيام منه وخوفه منها.. فقد تأكد له أنها بهذا تغازله.

ـ أين هي؟.. تمزحين؟.

ـ ها.. ها.. ألا تجلس؟.. إن أمي ليست هنا وستتأخر في العودة.

ـ إذن أنا ذاهب.. لا تنسي أن تسلمي عليها.. خاطرك.

ـ لا.. لا.. انتظر.. ستعود قريباً.. صدق.

ولما نظر إليها وفي نفسه ميزان يقيس به كل حركة أو كلمة صدرت منها.. فامتلأت عيناه وأحس أن دلعها كاد أن يأخذه.. وعندما ظهرت له نواياها.. أغوته.

قابلته النظرة وقالت:

ـ ألا يطيب لك الجلوس معنا؟.. ماذا؟.

ـ بلى.. وحياتك.. لكنني أخاف من والدتك.. لو ترانا؟ سوف توبخنا.

قال أبو اسكندر هذا.. يريد أن يظهر لها: أنه يود

مجالستها أو محادثتها.. وليجعلها في ثقة من تقديراتها: إنها يانعة ربما تحوم حولها الشبهات والشكوك.. وخاصة من والدتها.. وهو لهذا لا يريد ولكنه يتمنى.

ـ لا عليك.. أمي لن تعود.. إلا بعد وقت.. نكون به قد تحدثنا كثيراً.

ثم خطت نحوه إلى أن وقفت أمامه ووجنتاها ترقص فيهما ألوان الثورة المجنونة والغريزة المتمردة الثائرة.. ثم أمسكت عروة قميصه برؤوس بنانها ونظرت إليه تعتمل في أحشائها رغبة المراهقين المكبوتين.. وهو ينظر إليها مندهشاً جذعاً.. مشتاقاً.. قالت له:

ـ انظر إلى عيني ألا يعجبانك؟.. ماذا ترى بهما؟.

ـ إن عينيك جميلتان.. أرى فيهما بحراً عميقاً.. أخشى السقوط فيه وأنا لا أجيد السباحة.

ـ ماذا.. ماذا بعد؟.

ـ إنني أتلمس منهما إشعاعاً كسهام ضرب فؤادي بعنف.. وبنعومة.

ـ أتحبني يا أبو اسكندر؟.. قالتها هيام بهيام.

ـ لم لا؟..

ـ قبلني إذن.. أيضاً قالتها بهيام يختمر بشوق.. ثم أغمضت عينيها.

ـ ماذا؟.

كان ردها الوحيد عليه: أن رفعت رأسها قليلاُ وقدمت شفتيها قليلاً.. لكنها بقيت مغمضة العينين تترنح برأسها يميناً ويساراً مظهرة بذلك شوقها واندفاعها.. فما كان منه إلا أن نظر حوله وكأنه يخاف من عزول يراقبه.. ثم مسكها من كتفها وشدها إليه وانحنى عليها يقبلها قبلات شعر بها الفارق ما بين رضاب الشهد الذي ذاق طعمه من شفتيها وما بين عصير الإسفنج الممزوج بأحمر الشفاه والذي كان يقتطفه من ثغر عشيقته.. أمها.

وقفت المراهقة بسكرة الرغبة الملحة تنطوي يديها حول عنقه وتشده بقوة.. لو تستطيع أن تتحد به.. أو.. ليعلمها شيئاً مما تشتهيه وتجهله.. ولما لاحظت أنه لا يمنحها إلا القبلات ازداد في جسدها وروحها شوق إلى مارد يرقص كالنمر الذي أساء له خصمه.. فتشبثت بعنقه تريد أن تثأر النمرة ممن أساء لغريزتها وعاطفتها.

ـ كفى.. كفى يا هيام.. لو جاءت أمك؟!.. لكانت تحطم

البيت من فوقنا!.

ـ لا.. لا.. أرجوك.. إنها لن تأت الآن.. إنها لن تفعل شيئاً.. إني أحبك.. أحبك.. دعك منها.

ـ صبراً.. أي.. حبيبتي هيام.. لا تستعجلي الأمر هكذا.. إني أعدك.. أعدك.

وتخلص منها بعناء.. وخيب جميع رجواتها وانطلق هارباً بينما هي راحت تلاحقه سباً وشتماً يفصح عن الحب والاحتراق.

تعددت اللقاءات بينهما على هذا المنوال.. وشعر أبو اسكندر أنه يغرق شيئاً فشيئاً بحبها حتى توصل أخيراً للمقارنة بينها وبين أمها فظهرت الثانية في عينيه عجوزاً شمطاء بينما الأولى فتية رعناء تسيل من فيها صهباء مسكرة ومنعشة.. وأن زواج أمها المبكر هو الذي جمع الاثنين في قافلة الشباب.

إباء أبي اسكندر وكرم نفسه منعاه من أن يحصد من هيام أو يقدم لها أكثر من ذلك لذة.. فتعودته وأيقنت مقتنعة قسراً أنها لن تنال منه أكثر من هذا حتى ولو أسلمت له نفسها؟؟ وهي قد فعلت أكثر من مرة.. ليقطف

ما يرغب وما يريد.. ثم أنه كان يشعرها أنها لازالت طفلة.

إن تفكير أبو اسكندر بالأم ووعوده لها جعلته خلوقاً إلزاماً.. فما نسي أنه كان بالأمس يراها شابة شهية.. ولولا هذه المغرية الصغيرة اللعوب لما ساور مخيلته أي تفاضل بينها وبين أية امرأة أخرى إلا وكانت هي الشمس وغيرها أقل من كواكب.

أما بالنسبة لسلوى؟.. فقد حدث أمام عايدة ما استرابته.. ولعلها كانت هي السبب.. لأنها عندما خطبها أبو اسكندر؟.. أخبرت كل أقاربها أنها أضحت مخطوبة لشاب يليق بأحسن منها إلى أن تردد صدى الخبر إلى كل معارفها.. ولهذا راحت النسوة وخاصة الفتيات منهن يتزاحمن على بيتها ليتعرفن.. وليقدمن بعض التهاني.. وربما الهدايا؟.

تحسنت المعرفة بين أبي اسكندر وسلوى... وربما أعجبت به وأعجب بها.. أو ربما ببعضهما.. فقد توضح هذا آخراً.. ففي أحد الليالي التي دارت بها الكؤوس وتكلمت بها الخمرة غير المسكرة.. كانت سلوى تجلس مقابلة أبي اسكندر.. وتقابلا خلال السهرة ببعض الكلمات ذات

الألغاز الغرامية وتفهمتها روحاهما.. وعرف كل صاحب طوية.

قالت سلوى: أبي اسكندر.. اعطني علبة السجائر.. لا.. لا.. اعطني العلبة كاملة.. أنا آخذ منها لنفسي.. أرجوك.. أنا أريد أن أنتقي سيجارة على طلبي.

ولما ناولها العلبة وضعتها مع يديها تحت الطاولة بعد أن اخرجت قلماً من محفظتها.. ظن أبو اسكندر أنها تريد ان تكتب شيئاً.. كما ظن الآخرون ذلك وخاصة عايدة.. فهي عندما أعادت سلوى العلبة وعليها رقم هاتفها طلبت منه العلبة لتأخذ هي سيجارة أيضاً.. تنتقيها..

وقع أبو اسكندر هذه المرة.. يا ويله.. ماذا يفعل؟.. لكن بديهته خدمته مرة أخرى.. إذ تردد قليلاً ثم وضع العلبة بين فخذيه وأفرغ سجايرها على الأرض ثم رفعها بيده يمزقها بعد أن أخرج منها سيجارة واحدة ليعلن: أن العلبة أصبحت فارغة إلا منها فقدمها بيده اليمنى لعايدة بينما يده اليسرى راحت تعجن ورق فارغة بقوة ثم قذف بها خارجاً على مرأى الجميع كي لا يبقى في عقولهم أي شك من صدق زعمه بخلو العلبة من السجائر.

الصديقات كثيرات.. أما المقربات منهن فقد ولعن أكثرهن بأبي اسكندر.. لهذا كثرت حوله الأقاويل والإشارات حتى أصبح حديث المعارف والفضوليين.. ولم يقصرن وخاصة من الحاسدات ولعن به وبحياكة خيوط المؤامرات ليبعدنه عن عايدة لأنهن وجدنه متعلقاً بها أكثر من الجميع.. مغرماً غيوراً عليها خانقاً.. ولقد كان لسميرة ابنة أخت عايدة وأختها منى الكيل الأكبر من هذه الحبائل وغيرهن ممن تعرفهن عايدة ويعشقن الدس والخلافات.

وقفت حيرى معذبة لا تدرك من حقيقة ما يحاك حولها إلا فساداً أسهدها كثيراً وحركات من أبي اسكندر حبيبها لا يمكن تفسيرها.. لأنه كان يغطي فساد القوم وحركاته المشككة بالحب الجارف.. ينسيها ويواسيها ويبعد شكها.

أطوار متغايرة ألحت على عايدة وفرضت عليها مصارحة أبا اسكندر بما تسمعه من حديث وتلاحظه من تصرفات.. لكن أبا اسكندر استطاع أن يثبت لها براءته معتمداً بذلك على ثرثرة منى ابنة أختها.. وأثبت لها: أنها تقول له

كلاماً وعكسه لها.. كما أنه أنكر عليها خطبته لسلوى ومحاولة الارتباط بها زوجة.. ثم أنه لا يرى في هيام سوى طفلة لا تدرك من الحياة إلا حب الحلوى واللعب.. وأنه لا ينظر لها إلا كابنة له.. أليس هذا عاراً؟.. حسب قوله.. آه.. كم هم الناس نمامون؟.

مصارحتها له جعلته يحس بالخطر يهدده، ولهذا صمم جاداً ونفذ: فقطع علاقاته بالمتطفلات جميعهن وأعطى نفسه وروحه كلها للسيدة التي اقتنع أنها الوحيدة التي يمكن أن تسعده والتي ملكت عليه جميع مشاعره وإحساساته.. فهو مع غيرها يقضي وقته ولو كان قصيراً؟.. سئماً ضجراناً.. بينما معها.. ولوكان طويلاً؟.. يقضيه منتعشاً سعيداً مسروراً.

ومرت الأيام على الاثنين لا يشوبها تدخل عزول أو غيور.. فبينه وبينها زوجان.. ولا أسعد منهما في الدنيا.. وبينهما وبين الناس خطيبين تترامى عليهما نظرات الحاسدين والراغبين لهما.

لكن المجتمع وما بني عليه من عادات وتقاليد وما حوى من بنية مرضى النفوس وما قام به من تضارب بين

المعتقدات أو الأديان ما تركت جميعها بيتاً سعيداً أو زوجين مخلصين إلا ورمتهم ولو إلى حين بحجارتها المثلمة المدببة تصنع الجروح بهم وتدميها.. فكيف بهذين العريسين؟.. اللذين لم يعترف بهما زوجان لأن الشرع لم يصدر حكمه بهذا.. وهما عن الشرع غير سائلين.. والسبب في تجاهله للشرع خوفهما من الفضيحة والفراق لأن كل منهما كان يحس بأعماقه بعيداً عن الآخرين: أن الشرع ربما يكون عدواً لهما يأبى إلا أن يفرقهما.. فأبو اسكندر يعلم أنها ليست من دينه وهي يغمرها الشك بذلك ولو كانت لا ترغب بإثبات الشك.. ولهذا بقيا على علاقتهما لا يدخلان عليها ما يفسدها.. ثم ما ضررها من ذلك؟.. فهما زوجان رضي الشرع أم لم يرضى؟.. أو خالفاه بذلك عادات قومهم وتقاليده.. فكله عندهما سواء.. ولا هم لهما إلا القناعة بكليهما.. ولكن أين لهما المفر؟.. فحوادث الزمن القريبة والتي نسيها الاثنان وذكرها الاخرون ظهرت لهما صوراً ترعبهما وتخفيهما وتنغص عليهما عيشهما.. فأبو اسكندر متزوج ولكنه أهمل ذلك من تاريخ حياته في ذاكرته.. وعايدة؟.. لا تدرك شيئاً من هذا.. فقد غلب عنها

أن تفهم من أبي اسكندر ذلك إلى أن جاءها ما انتشلها من الانغماس حتى أذنيها.. اصطدامها بالخبر الجديد الذي بلغها أن أبا اسكندر أب لطفلة وزوج لامرأة حرمتها أنسه وحنينه.

تغيرت الظروف على أبي اسكندر وانتهت مهمته وعاد إلى قبضة أخيه الذي كان يتبعه الخطوات.. وفي كل يوم كان يؤنبه على تأخره بالسيارة ويسأله أين ذهب بها.. وأخيراً حجزه عن الخروج إلى المدينة.. وبهذه الطريقة استطاع أن يتعرف على رقم الهاتف.. وعلى اسم المتكلمة التي كان يتصل بها أخوه.. وذلك لما له من سيطرة على عمال المقسم.. ولم يتم له ذلك بسهولة بل استعمل سلطته وهدد بها أيضاً.

لقد كان سبباً في إدخال البؤس على حياة العاشقين لفترة من الزمن.. ولقد تم له ذلك عندما تمكن من رقم الهاتف.. اتصل:

ـ ألو.. مين؟.

ـ ست عايدة؟.

ـ نعم.. من يحكي؟.

- أبو اسكندر..

- أهلاً أبو اسكندر.. من الذي أبطأك عنا؟.. إننا مشتاقون.

- إن ابنتي مريضة.. لقد كنت مضطراً لمرافقتها إلى الطبيب.

- من المتكلم؟.. أنت لست أبو اسكندر؟.

- بلى.. والله.. أبو اسكندر..

- هذا غير معقول؟.

- أقسم لك.. إنه هو.

ووضعت السماعة عايدة فاقدة الوعي حاقدة الشعور.. مشتتة الأفكار.. للذي أصابها بعد أن أنزلت من حسابها جميع الطوارئ التي لم تتوقعها.. فظنت نفسها مغنمة بعد أن ولى كل عائق.. وها هي اليوم تضرب بقسوة على رأسها.. ويكاد أن يغمى عليها.

بعد أن اتصل ياسين بعايدة اطمأن لخطته التي سيصبح بها أخوه خارج بيت عايدة مطروداً كما قدر له.. ولهذا سمح له بالمغادرة.. وفك له قيد الحجز فانطلق بسرعة العاشق المفارق طويلاً.. يمني النفس بلقاء حبيبته مسروراً.

قرع ابو اسكندر الجرس ففتحت له عايدة..

ـ من أنت؟.. ماذا تريد؟.. هاه؟.

ـ اللّه؟.. أريدك أنت.. أريد عايدة.. أنا أبو اسكندر.. ماذا جرى؟.

ـ من أين لك معرفتي؟.. غشاش مخادع.. عد من حيث أتيت.. أرجوك.. أرجوك.

واندفعت الدموع من عينيها تبكي بغزارة حرقة وألماً.

ـ ماذا دهاك؟.. ما الذي أصابك؟.

ـ لا داعي.. فأنا لا أعرفك.. ولا تعرفني.. أرجوك.. أذهب.

ـ أذهب هكذا؟.. لقد دخلت هذا البيت.. وتعارفنا متفاهمين.. فدعيني أخرج منه ونفترق متفاهمين أيضاً.. أعرف ذنبي على الأقل؟.

ـ معه حق يا عايدة. (قالتها نعيمة عند وصولها إلى الباب لتستطلع سبب الحوار).

ـ لا.. لا.. لا أريد.. اذهب.

قالت الكلمات الأخيرة وتركت الباب لنعيمة مدبرة تبكي وتنتحب كالأم التي فارقت ابنها شهيداً.. ولما رأى أبو اسكندر منها ذلك.. تعاظمه وأدبر مودعاً نعيمة يجر أذيال الضياع العقلي.. الأماني.. ولكن قلب الأم الذي يتوج

روح نعيمة دفعها لأن تسرع وتمسكه.. وأبت إلا أن يعود معها.

كانت عايدة تتمنى لو تستطيع نعيمة إقناعه على العودة.. ولما صحت لها أمنيتها وشعرت أن أبا اسكندر لا يريد مفارقتها أنبت نفسها على تسرعها وعدلت.. يجب أن تتأكد أولاً قبل أن تحكم.. فقالت تبكي:

ـ لقد خدعتني.. لِمَ لم تقل لي أنك متزوج؟.. ولك طفلة؟.

ـ من قال لك هذا؟.

ـ أنت ألست الذي اتصل البارحة؟.. أخبرتني بأنك ذهبت بابنتك إلى المستشفى.. وهذا سبب تأخرك.

ـ أقسم.. أنه لا علم لي بهذا.

ـ اعتقدت ذلك.. لكن الذي تحدث باسمك أشار إلى الحقيقة.. هل تستطيع أن تخبرني عن معنى تأخرك عنا كل هذه المدة؟.

كاد أبو اسكندر أن يفشل برده على هذا السؤال.. حقاً: ما معنى تأخري عنهم؟ ولكنه وجدها.. قال: كنت في مهمة.. مهمة خارج القطر.. اسمعي يا عايدة إنني أحبك.. ولا داعي لأن أشرح لك ذلك لأنك تدركين حقيقة

مشاعري.. ولكنني لا أريد أن أضرب نفسي أو أن يضربني ولو كان أنت بخنجر الغيرة وإهانة النفس الأبية.. ها نحن الاثنان هنا.. وقد تعاهدنا على أن نعيش سعداء أكثر من مرة.. يغمرنا الإيمان.. فإن كنت ستتركين النميمة عشاً في صدرك تلجأ إليك؟.. فليس علينا إلا أن نفترق من الآن.. أنا لا أريد هذا.. لا أريد.. أما إذا كانت هذه رغبتك؟.. فسأطيعها رغم عذابي بها.

ـ إن كلامه جميل.. ظريف.. ما قال إلا حسناً. قالت نعيمة موجهة قولها لأختها:

ـ آه.. كم أنا شقية؟.. إني أحبك.. ولي الإيمان العظيم بحسن محبتك.. لكن.. ما معنى هذا؟.. ألست متزوجاً؟.

ـ لقد تعاهدنا.. ويجب أن تكون الصراحة مسلكنا.. ألست مطلقة يا عايدة؟.

ـ بلى مطلقة..

ـ وأنا كذلك.. متعادلان يا حبيبتي.. أفي هذا ضرر؟.

ـ مطلقاً؟.

ـ نعم.. مطلق.. هل نقص من شبابي شيء؟.. هل فقدت شيئاً؟..

فإن كنت ترين من هذا ما يسيء لعلاقتنا؟.. لست أدري.. يا إلهي.. أنت حرة.. حرة.

ـ لا.. لا ضرر منك.. لقد كبرت في عيني أكثر.. لقد طفح كيل حبك أكثر.. ولكنك أشغلت قلبي.. أخبرني ماذا حدث لزوجتك؟.. أحقاً لك طفلة؟.

ـ نعم لي طفلة.. وزوجتي.. لم تعد زوجتي.. لم نستطع العيش معاً.. هي ابنة خالي.. تزوجنا بدون حب ففشل زواجنا.. أقربائي.. أهلي.. كلهم يحاولون إعادة العلاقة.. أنا لا أريد.. مطلقاً.. من الذي تحدث معك؟..

ـ لقد أقسم إنه أبو اسكندر. (قاطعته عايدة).

ـ نعم.. هو.. هو أخي الكبير.. وأراد بفعلته هذه أن يفرقنا.. كاد أن ينجح.. أو ربما نجح؟.. فهو يقدر: أنني إن طردت سألملم جروحي وأعود.. لا.. لا.. لن أعود.. ولو طلبت الفراق يا عايدة لن أعود... لن أتركك إلا إذا استجبت أنت لمآربه.. فتطرديني.. لا أعتقد: وأرجو أن لا تكوني لهذا فاعلة.. لأنك تحبيني.. ولا تبغين لي الجنون.. سأجن يا عايدة لو فعلت ذلك.. لكني لن أعود إلى البيت المعتم الذي أظلم حياتي وسودها.. تحررت منه.. تحررت.. يريدون أن يعيدوني

إلى الشقاء.. إلى البؤس.. إلى التفاهة والضياع.. لا.. لا.. لن أعود.

انجلى الغيم وعاد صيف الحياة بينهما إلى طبيعته لا يشوبه إلا ربيع مزهر ممسك.. واتفق معها على تضليل أخاه.. فأفهمها: انه لا يستطيع القدوم إليها يومياً.. وإذا ما اتصل أخوه بها فلتبدي شوقاً لرؤيته.. ولتظهر استفهاماً مصطنعاً عن سبب انقطاعه عنها بحجة: أنه المتكلم.

وبالفعل فقد أمن ياسين أن أخاه طرد.. وهو لا بد مقلع عن الذهاب إلى هناك ولكن شكّه كان أحياناً يدعوه للاتصال بها لعله يتلمس الحقيقة.. فيكون الرد عليه:

ـ لماذا تركتنا؟.. لماذا بعدت عنا؟.. هل يحق لك كل هذا الجفاء؟.. إننا مشتاقون.. مشتاقون جداً.. ألم تشفَ ابنتك؟.. كيف حال زوجتك؟.. ولم يكن ينسى أن يقدم لها بعض عبارات الهوى والغزل.. وتسكت هي عنه إكراماً لأخيه وهزء به.. إلى أن امتلأ الحبل مرة.. وكانت صدفة: فإذ رن جرس الهاتف.. وأبو اسكندر موجود فتناول السماعة.. ومن حسن حظه أن المتكلم سبقه فقال:

ـ ألو.. وأدرك أبو اسكندر أن الصوت صوت أخيه.. فلم

يجب بل وضع يده على الهاتف وناوله إلى عايدة قائلاً لها: خذي اسمعي لهذا الزبون ماذا يريد؟.. تصرفي معه كما يحلو لك.. خذي حريتك معه.. زودها.

ـ نعم.. مين؟.

ـ ست عايدة؟.

ـ نعم.. هي.. من المتكلم؟.

ـ أبو اسكندر.. كيف حالك؟.

ـ أبو اسكندر؟ !! أهلين.. أهلين.. لقد تباطأت كثيراً.. لماذا لا نراك؟.. أيحق لك كل هذا؟.

ـ حبيبتي.. إنني مشغول.. لقد أخذنا الأبنة إلى الطبيب مرة ثانية.. اعذريني.. إنني مشتاق إليك كثيراً.. كثيراً جداً.. ما رأيك لو تزورينا؟.. نعرفك على الأهل.

ـ أشكرك.. هذا لا بأس.. ولكن ليس الآن.. ألا تأتي إلينا أولاً؟.. ثم نذهب معك تدلنا على البيت؟.

من واجبه أن يقول: هذا ضروري.. إذن عليه أن يحضر بنفسه لأنه لن يخبر أخاه بالأمر.. وإن فعل سيكشف أمره.. لقد ورط نفسه ولهذا كان مضطراً للاعتذار ليتخلص من مأزق وقع به.. فأجاب:

ـ إنني لا أستطيع فأشغالي.. كثيرة.. تمنعني..

ـ إلى هذه الدرجة؟

ـ واللّه.. أنت تعرفين..

ـ نعم.. أعرف أيها الكلب.. الوغد.. كم أنت حقير؟.. سافل.. لقد نغصت علينا عيشتنا بلؤمك.. وقلة أدبك.. أبو اسكندر؟!! هه.. إن أبو اسكندر إلى جانبي.. أيها الأحمق.. وهو يستمع لك.. قليل الأدب.. (قال حبيبتو قال؟.. ألا تخجل؟).

وهنا قفز أبو اسكندر بسرعة البرق ووضع إصبعه على القاطعة قائلاً لها: ويحك.. ماذا تقولين؟.. لماذا فعلت هذا؟.. لكنه ضحك بسرعة حتى كاد أن يستلقي على قفاه.. وأحس بالشماتة تداعب روحه من موقف أخيه.. أما عايدة فبعد أن جلست لحظات راحت تؤنب نفسها على ما بدر منها.. وتعتذر لأبي اسكندر عن أخيه.. ومع هذا فقد شعرت بالراحة والهدوء.. فقطعت عليها فلسفة متطفل غليظ يريد أن يدخل على حياتها من ثقب الإبرة.. يريد أن يقدم لها الهموم باسم الهدية.. والبؤس باسم الصداقة والمحبة.. وارتاحت عندم شاهدت حبيبها لم يقم للأمر.. أمر

تأنيب الأخ.. أي وزن أو اهتمام.. بل على العكس كان مغتبطاً.

لما دخل أبو اسكندر المكتب على أخيه قابله ياسين بوجه عابس يوحي بالغيظ والغضب.. سأله:

ـ أين كنت البارحة؟.

ـ كنت فيما لا أعرف..

ـ عند عشيقتك؟..

ـ ربما.. أجابه ثم حرك شفتيه.. لكنه أخيراً لم يستطع أن يقاوم ابتسامة الهزء والشماتة من أخيه.

ـ لماذا تبتسم؟.

ـ حدس لنفسي.

ـ إني أعرفه.. لو كان في رأسك ذرة من الشرف لما سمحت لها بالتهجم على كرامة أخيك وبحضورك.

ـ ما الذي أدراني أنك أنت؟.. لقد ظننتك أحدهم.. من أين لي معرفة المتكلم؟.. لو كنت أعرف؟.. هل تظنني أسمح لها؟.. أنت تعلم.. لا.. أنت المسؤول.. أنت الذي سمحت للآخرين الاتصال بها بحجتي.

ـ على كل حال إني قصدت خيرك.. وأنت حر.. إنني

أتركك.. أنت حر.. انصرف.. إلى الجحيم ما همني؟.

شعر أبو اسكندر أنه أنزل عن رأسه حملاً ثقيلاً.. وثقيلاً جداً.. حيث أمن جانب أخيه.. ها هو يتنحى عن طريقه ويترك لحريته العنان.. ماذا يضيمه بعد؟.. أما ياسين فراح الهم والغيظ يعتملان في نفسه.. كيف سيخلص أخاه ويعيده إلى رشده؟.. إلى زوجته؟.. لكنه أحس بالعجز.. اصطدم به أكثر من مرة.. أخيراً ألبثه اليأس وأقعده الفشل مدة طويلة قضاها أبو اسكندر مع عايدة أياماً سعيدة هانئة.. لا يعكر صفاءها إلا حرمانهما من السيارة التي جرده أخوه من قيادتها.. هكذا إلى أن مرت برأس ياسين طيف فكرة: فربما أبو اسكندر ينكر على عايدة دينه؟.. إن اسمه أبو اسكندر؟.. لم يذكر مرة أنها هتفت: حسين.. سأتصل بحجة مقنعة وأسألها عنه باسمه.

- ألو تسمعين؟.

- عفواً ست عايدة.. أنا ياسين

- ياسين من؟.

- أبو اسكندر.. معذرة.

- أهلاً.. ماذا وراءك هذه المرة؟.

ـ لا شيء.. إني أعتذر عما بدر مني.

ـ هل تقصد: أننا تصالحنا؟.

ـ كما تريدين.. يا ست عايدة.

ـ طيب يا سيدي تصالحنا.. أنا أسامحك.. وأعتذر أيضاً.. تفضل لزيارتنا.

ـ هذا شرف عظيم لي.. سأفعل عن قريب إن شاء اللّٰه.. أما الآن فأريد حسين لأمر هام.. توقعت أنه نزيلكم الساعة.. فهو قد غادرنا من الصباح.. أهو موجود؟.. إنني أريده لأمر هام.

ـ قلت: تريد حسين؟. قالتها جاحظة العينين.. ضابطة الأعصاب.

ـ نعم.. حسين اسكندر.

ـ إنه غير موجود.. آسفة.

ـ أرجو أن تبلغيه رغبتي عند قدومه إليكم.

ـ طيب.. تكرم.. غيره؟.. أتريد خدمة؟.

ـ لا شيء إلا الشكر.. وأرجو عدم المؤاخذة.

ـ لا.. لا مؤاخذة هناك.. مع السلامة. (قالتها بهزء وسخرية تكتم غضبها).

ـ اللّه يسلمك.

لكنها لم تستمع إلى كلماته الأخيرة فهي قد وضعت السماعة تحمل في أحشائها ثورة عنيفة.. وكم راحت تقتل روحها إلا أنها أقفلت السماعة ولم تنفث عن ثورتها في وجهه.. إنه وغد.. إنها لم تر وغداً كهذا.. إنها لم تتلمس ألطف من هذا اللعين.. مسكين إنه لا يقصد أمراً؟.. اللئيم إنه يقصد السم الذي تحمله نفسه اللعينة كلعنته.. إنه يحاول بشتى الوسائل أن يأخذ منها حبيبها والأخبث من ذلك أنه يريد أن يبدو لطيفاً رقيقاً.. لن تنجح أيها الماكر.. سأحطم مكرك.

كان ياسين يتكلم بطبيعته العادية المتزنة.. كان لا يظهر بقوله أي قصد يدل به على دين أخيه بروح المكرية والخداع يمنيها الانتصار وهزيمة أخيه.. أما عايدة فقد تابعت ثورتها بينها وبين نفسها إلى أن رجعت بتفكيرها إلى حسين.. اسم حبيبها.. حسين اسكندر.. أحست بالمرارة وكاد الدم أن يتجمد في عروقها لولا أنها لامت نفسها على إهمالها معرفة ذلك.. ألم تكن تشك بالأمر؟.. أليست هي التي تجاهلته لتعيش معه بشخصه.. بروحه فقط.. لا بدينه

ومعتقده؟.. والآن؟.. وها هي قد علمت.. ماذا ستفعل؟.. هل تستطيع أن تكرهه؟.. أن تبعده من حياتها؟.. تتخلى عنه؟.. نعم.. لا.. ربما.. ولكن لا وألف لا.. فهو قد أصبح مني بمثابة النور للشمعة.. وما قيمة الشمعة لولا نورها؟.. والناس؟.. والهيكل؟.. ورجال الدين؟.. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل لأجلهم؟.. بماذا سأواجههم؟.. هه؟.. وماذا بمقدور هؤلاء جميعاً أن يفعلوا؟.. ينكرونني؟.. فلينكروا.. ولينبذوا.. طالما هو يعترف بها ويلوذ لها.. فلتصبح بنظرهم نكرة إذا ما كانت بعقله معرفة.. لن يهموها جميعهم.. يهمها هو وحده.. لا غيره.. واللّه؟.. إنها لا تخالف اللّه في أمر.. إن كلامهما حين تزوجا أمام صورة الرب هو الحقيقة بعينها.. لماذا الخضوع لخرافات قوم يخالفون اللّه في أعمالهم؟.. يشوهون عقيدته.. تعاليمه.. إن كلام أبي اسكندر سيدخلها الجنة إن كانت.. أليس هو الحق؟.. إذن أين الحق؟.. أكلما ادعى قوم حقيقة كانت لهم؟.. إذن لماذا يختلفون في حقائقهم؟.. لماذا حقائقهم متباينة.. مختلفة؟.. إن ما قاله أبو اسكندر أمام الرب هو الحقيقة.. لماذا أنكرها إذن؟.. لا لن أنكرها.. وراحت لا تفارق روحها وعقلها

أفكار متضاربة ورعشات تخيل الحوادث المتوقعة.. حزن وكآبة.. سأم وملل.. لا تدري بما ستواجه به أبا اسكندر.. حسين اسكندر.. حسنها الظريف.. هم.. هم.. لقد مكر بي؟.. لا عليه.. لا عليه.

عندما قرع الجرس قفزت عايدة طاردة ضياعها متحفزة إلى جديد.. فتحت الباب ممنية النفس به.

ـ أهلاً.. أهـــــــلاً. قالت هذا وأرادت أن تناديه باسمه لكنها عدلت.. إذ بأي اسم تناديه؟.. ولم تقدم له شفتيها هذه المرة.. لكنها ابتسمت ابتسامة صفراء بترتها عندما فكرت بذلك.. أحس حسين أن شيئاً جديداً ربما دخل على سعادتهما؟.. ولهذا بادرها متصنعاً عدم الخوف.

ـ أراك على غير العادة؟.. هل تشكين مرضاً يا عزيزتي؟.

ـ لا.. لا أشكو شيئاً.. لكنني ضجرانة.

ـ تذهبين للنزهة؟.. للسينما؟.

كانت تفكر بالطريقة التي ستتأكد بهما من صحة زعم أخيه لاسمه.. وعن الأسلوب الذي ستواجهه به.. ولهذا عندما سألها الذهاب إلى النزهة أو إلى السينما أجابته متصنعة التحبب:

ـ لا.. لا.. يا حسونتي.. إن وجودك هنا سيقضي على مللي.. وها أنت قد عدت.

قالت هذا وراحت تنتظر منه أي حركة أو كلمة بترقب وإمعان.. متوقعة: أنه سيسألها عن مقصود قولها.. أو من أين لها معرفة ذلك؟.. أما هو فعندما سمع كلمة حسونتي رجف قلبه.. لكنه تصنع اللامبالاة وبقي عادياً.. ثم وقف على المرآة يهيأ في نفسه رداً.. فيما لو سألته.. ومع هذا فلم ينس أن يجاملها بالرد:

ـ هذا لطف منك.. إن قلبك كبير.. ولكن هذا لا يمنع من أن نذهب سوية.. فنقضي بعض الوقت في نزهة أو مع فيلم؟.

ولما شعرت أنه يتجاهل الأمر قالت له بابتسامة ساخرة: حسين.. تعال هنا.. يا.. يا حسين.. ثم راحت تهز ساقها اليسرى التي وضعتها على اليمنى بشكل عصبي.. ونظر إليها بغير إرادة ودون أن يتمالك أعصابه نظرة تنم عن الاستغراب والهلع.. والعاجز عن قول أي شيء.. بل استجاب لرغبتها فجاء إليها.

عندما جلس بجوارها نظرت له جاحظة العينين قائلة:

ـ إذن اسمك حسين؟.

ـ ماذا تقصدين؟.

ـ ندهتك: حسونتي.. فلم تجب.. تجاهلت الأمر.

ـ آ.. عفواً.. لقد ظننتك تدلليني.. فشبهتني إلى عصفور الحسون.

ـ ها؟.. لم أفكر.. المهم.. لن نختلف على هذا.. بل.. لماذا لم تقل: أن اسمك حسين؟.

ـ لم أفهم ما تقصدين؟.

ـ لم تفهم؟.. إنني لم أسمع باسمك أنه حسين من قبل؟.. لماذا لم تبينه لي؟.. قل لي هيا.. قل.

ـ أي ذنب بهذا؟.. إن كل الناس ينادونني أبا اسكندر.. وأنا ما تعودت على إعطاء اسمي إلا هكذا.. ولو سألتني مرة؟!.. لقلت لك.. إنك لم تسأليني أبداً.

ـ حجة فارغة.. هذا سبيل للاحتيال.. للشرك.

ـ عفوك.. ما كنت أعتقد أنك ستواجهينني بهذه الألفاظ.. حتى لو بحت لك.. إنني أطلب منك راجياً: أن لا تعيدي مثل هذا الكلام على مسمعي؟.

ـ معك حق.. إني لا ألومك.. ظفرت بي.. ثم جئت تتعالى علي.. تنهرني..

ـ أرجوك.. لا تفهمي مالا أقصده؟.. ثم.. من هو هذا المتطفل.. الوسواس.. الذي وسوس لك؟.

ـ ما لك وله؟.. ألم يكن هذا اسمك؟.

ـ نعم.. اسمي.. اسمي حسين اسكندر.. أبو اسكندر.. أيهما؟.. لا يهم.. لكنني أريد أن أعرف هذا اللعين الذي يلاحق سعادتي؟.

عندما سمعت عايدة كلماته الأخيرة.. ولما كان تحاملها على المفسد لا يقل عن تحامله.. نظرت له بصمت.. قليلاً.. ثم قالت: أنه ياسين.

ـ من ياسين هذا؟.

ـ هاه؟.. ألا تعرفه؟.. إنه أخوك.. يا حضرة..

ـ فهمت.. فهمت.. ماذا سأفعل به؟.. إنه يخون تعهده.. لماذا لا يتركني وسعادتي؟.. ماذا يريد مني؟.. يود أن يشقيني.. يعذبني.. آه.. إنني لا أدري.. عايدة.. عايدة.. اسمعي.. إن هذا المتدخل يريد أن يستعملك سلاحاً يحاربني به.. بك.. وأعتقد: أن هذا أقوى طلقاته.. وآخرها؟.. فأنت. إن شئت؟.. فجرتها.. وأصابت قلبي.. وإن شئت؟.. تجاهلتها.. لتعود إليه.

ـ كيف أستطيع أن أتجاهلها.. ونحن في مكانة زوجين.. ولا

زوجين؟.. ديننا مختلفان.

ـ عندما تعرفت عليك يا عزيزتي.. طهرك الحب وأبعدك عن التفكير في هذا.. فلتبقي طاهرة يا حبيبتي.. دعي الحب هو المسيطر.. ألا تثقين بحبي لك؟.. إذن لماذا؟.

ـ ألا تذكر الصلاة أمام صورة الرب؟.. إنها.. لا شيء.. أوف.. لا شيء.

ـ قولي.. قولي.. قولي مرة أخرى: أنها احتيال.. أليس كذلك؟.. لا.. لا يا عزيزتي.. إنني لست من هؤلاء.. ولا من هؤلاء.. أنت.. أنت التي قلت: إن دينك هذا مخالف للنمط.. أنت التي قلت: سيرجمونك بالحجارة؟.. ألم تقولي: أن دينك هو دين الحق؟.. أريد أن أسألك؟.. ألا تتفقين معي أن اللّه.. هو مجموعة المثل العليا من خير وجمال وفضيلة؟.

ـ بلى.. نعم.. أؤمن.

ـ ألا تتفقين أن اللّه مجرد عن أنبيائه ومدعيه؟.

ـ أيضاً نعم.. طبعاً.

ـ أنا يا عزيزتي.. أؤمن باللّه وبمثله من أي مصدر كانت.. لا أتعلق بفلان أو بفلان من البشر كانت لهم فلسفاتهم الخاصة.. لأكون تقياً.. إنما أؤمن باللّه وأحبه وأقتدي به

وبمثله مما أدركته في عقلي حجة أتحدى بها جميع رجال كهنتك والمحاريب.. اللّه؟.. خير.. اللّه؟.. فضيلة.. اللّه يا عزيزتي.. جمال.. طالما أعرفها أنا وتقرينها أنت.. لماذا نربط روحين بتقاليد قوم؟.. لو أدركنا نتائجها لاستجرنا باللّه مما لوثت به قدسية السمو منها.. من هذه التقاليد.. إليك مثلاً قولك: ظفرت بي ثم جئت تتعالى علي.. أريد أن أسألك من الذي ظفر بالآخر؟.. أنا أقول لك: كلانا يا حبيبتي.. الدافع مني.. ومنك.. واللذة.. تقاسمناها ذروة بالتساوي.. فكنا سعداء.. أليس هذا صحيحاً؟.. يا عزيزتي؟.. ألم نكن سعداء وسعداء جداً؟.

ـ نعم.. نعم.

ـ على رسلك.. أريد أن أسألك سؤال: أليست السعادة فضيلة؟.. أليست السعادة خيراً وجمالاً؟.

ـ بكل تأكيد.. بكل تأكيد.

ـ إذن نحن.. فعلنا خيراً؟.. ولكنه يخص بنا.. هذه هي تقوى اللّه.. لا كل التقوى طبعاً.. هل آذينا إنساناً آخر؟.. هل قدمنا شراً؟.. كلا.. وألف كلا.. ولكن.. هل لاحظت كيف اعتبرتني ظافراً بك؟.. انا لا ألومك يا عزيزتي..

فالمجتمع هو الذي قيدك.. واستضعفك.. وأباح لنفسه اتهامك والتحامل عليك.. أقصد المرأة قاطبة في هذا المجتمع.. لماذا لم تحكي أنت بأنك الظافرة؟.. أيضاً.. أنا أقول لك: أنها وراثة لعقلية قديمة حاقدة وسخيفة.. بل أؤكد لك أنك ظافرة.. فها انت تملكين قلبي وروحي.. وربما أنا الخاسر؟.. ربما؟.. أنا لا أملك منك شيئاً.. هذا سيكون.. إن استجبت لرغبة الآخرين.. إلا أطيافاً لذكرى ستعذبني وتشقيني.. نعم سأخسر.. فؤادي وإحساساتي.. وسأربح الآلام إن فعلت.. أعتقد أنك لن تفعلي.

- اطمئن أيها القديس الحبيب.. ولكن.. ما رأيك لو نذهب.. نحصن أنفسنا من كلام الناس؟.. نستسلم شكلياً لرغبة الكهان.

- أحقاً تقبلين لي هذا؟.. أنا لا أقبله إلا طوع رغبتك.

- هل من ذلك ضرر؟.

- نعم.. كل الضرر.. أولاً: أنني أخالف مبدأي.. وثانياً: أكون كاذباً.. وثالثاً: سيحتقرني القوم عندما أكون قد فرضت عليهم احترامي.. بعقيدتي التي تنادي بالحرية.

- إنني لم أفهم.

ـ إن بقينا هكذا سيقول الناس: أنهما متحرران.. لا يخضعان لأحكام قديمة وسخيفة.. أما لو أنني امتثلت لرغبتك.. فسيقولون ما أحقره.. لقد ترك دينه وتبع امرأة.. عفواً أنا لا أحتقر المرأة.. بل أجلها.. ولكن لا أريد أن يكفر بي قومي آمنو بي مستقيماً.. وآخرون يريدون لأنفسهم ما نلته وكنت به مجدداً.. أما إذا كنت تصرين.. فسأضحي لأجل حبك.

ـ عفوك.. معاذ الله أن أريد لك كل هذا.. لو كنت أعرف هذا لما كنت طلبته منك.. غفرانك.. غفرانك يا حبيبي.. أرجوك أغفر.. وتعالى إلي.. تعال.. وليرم أخوك نفسه لنار جاهليته.. تعال.. تعال.

ثم راحت تقبله وتغسل عن روحه ما توقعه عذاباً مقبلاً وتستسمح منه إلى أن أنسته كل شيء.. كل العوالم الأخرى.. وضاع وإياها بعالم واحد هو عالم السعادة الذي حدثها عنه لتوه.. وكم اعترفت وأقرت: أنه الحق.. فها هي تسعد بما تحصده من لذة وبما تجنيه من سمو الشهد في الرعشات العذبة الدافئة.

قضى أبو اسكندر وعايدة ربيعاً جميلاً.. يطيران

ببعضهما إلى حيث تروق لهما السعادة.. فهما قد فهما بعضهما على أحسن ما يتمنيان.. ولم يبق في حياة أحدهما سر إلا وعلم به الاخر.. وبهذا قضيا على كل وشاية (أو بلبلة).. كما أن عايدة تحدت ياسين فاشترت لحسين تاكسي لأنه سلبه اللاند روفر.

ودّعا فصل الورود والزهور واستقبلا فصل الصيف بسعادة أكثر وبفرح أعظم لكن الظروف الدولية التي سبقت أواخر أيار سنة /1967/ فرضت على حسين أن يرحل عن سعادته ويبتعد عنها ولو إلى حين.. كما أنها فرضت على عايدة توديع هذه السعادة..

كان في الجو ثمة رائحة: من استعداد للقتال.. للحرب.. للعدوان.. كل يعد العدة.. إسرائيل لتعتدي.. والعرب لصد هذا العدوان.

محطات العالم تذيع عن تكتلات عسكرية.. إسرائيل حشدت قوات كبيرة على حدود سورية.. سورية هي التي نسجت الخيوط الأولى للعمل الفدائي.. سورية هي التي قضت على عملاء الصهيونية وهزمتهم خارج القطر.. ضج العالم وغنى للحرب طبل وزمر.. وتطوعت مصر لدعم

سوريا.. وطلبت من البوليس الدولي مغادرة الحدود ودفعت بجميع إمكانياتها على الجبهة.. وكذلك فعلت سورية والأردن.. ودعي حسين لأن يكون جندياً في خط المواجهة الأمامي.

العرب بأسرهم خمنوا كما خمنت قياداتهم: أن إسرائيل لن تجرؤ على مواجهة جميع هذه الجيوش الجرارة.. فقد حكموا: إن فعلت ذلك.. فلا بد أنها منتهية به.. حكموا أنها ستتخلى عن مضائق تيران وسوف لن تقاتل.. وأن أمنيتها في قلب نظام الحكم الثوري في سورية قد ذهبت في مهب الريح إلى غير رجعة.

قضى حسين وعايدة أيامهما الأولى فراقاً معذباً.. حسين يتلوى على التراب في إحدى الحفر لا يحس بأي خوف من العدو.. حتى أنه لم يعتريه أي تفكير به إلا من ناحية واحدة: لماذا جيء به إلى هنا؟.. لماذا أبعد عن حبيبة قلبه عايدة؟.. هي التي شغلت كل تفكيره وهواجسه ينظر إلى البعيد فيرى صورتها مرتسمة أمامه على صفحات الضباب البعيدة.. وعندما يغمض عينيه يظنها لجانبه بفراشها الوثير.. وعندما يمد يده ليتلمس شيئاً.. يحس بأن

التراب يملأ (حفنته).. ليتحول هذا الحس إلى مرارة تمزق قلبه.. لكنه لم يكن يتراجع عن أن يضم حفنة التراب إلى صدره التي كانت تتحول إلى عجينة بفعل تعرق يده ومساعدة دموعه التي كانت تتقطر عليها ساخنة.

أحس رفاق حسين.. أنه بعيداً عنهم بواقعه وتفكيره.. يعشق الانزواء والخلوات.. فهمس بعضهم في أذن الرقيب محمد قائد جماعته بعض شيء من هذا.. فقرر الاحتكاك به عله يعرف السبب.. وليحاول الفوز بأن يجعله يتسامر مع رفاقه.. وليبادلهم الحديث والمزاح.

كان حسين ينظر إلى البعيد.. ترتسم في عينيه صورة حبيبته الجميلة.. تحاكي عيناه عيناها.. خضراوان كبقعة حشيش ملونة.. وعندما أحس أنها تبتسم له بحب وحنان أغمض عينيه لحظة ثم ابتسم ومد يده اليمنى إلى جانبه.. ولكنها أمسكت بشيء صلب هذه المرة.. ولما أراد رفعه.. وجده ثقيلاً.. وثقله كان مدعاة ليستعيد شعوره.. ولما فتح عينيه ونظر إلى يمينه.. وجد نفسه يقبض على مقدمة حذاء الرقيب محمد.. الذي ابتسم له بعد أن كان يراقب كل تحركاته وسكناته بخوف وبوجل وبرأفة.. وبعد أن وقف

حسين مرتبكاً.. وقال:

ـ احترامي حضرة الرقيب.

ـ مرحباً حسين.. كيف حالك اليوم؟.

ـ تمام.. شكراً.

ـ مالي أراك بعيداً عن رفاقك كل البعد؟.. أنتم هنا أخوة.. ياحسين.. ستلاقون مصيراً واحداً.. لاينفع الانطواء هكذا.. يجب أن تندمج مع رفاقك.. لتتفاهم وإياهم.. لتبنوا بينكم المحبة وروح التآخي.. الظاهر أنك طيب السجايا.. ولا أعتقد أنه من شمتك الانزواء.

كان يستمع إلى محاضرة الرقيب دون أن يرفع نظره ودون أن يتفوه بكلمة.. إلا أنه كان يحرك رأسه قليلاً دلالة موافقته على صحة كلام الرقيب محمد.

أما عايدة فكان فراشها المثير تنزرع فيه تنزرع فيه الإبر ولا يهنأ لها نوم وكان طعامها الزقوم وطرقها مزروعة.. بالشوك.. تركن للهموم وتجترها بدون إرادتها.. فكم تصورت حبيبها حسين عند وداعه لها وهو يحوص بعينيه الشهلاويتين الجميلتين.. وكيف أن شفتيه ترتجفان.. إنه كان يريد أن يقول شيئاً.. ولكنه لم يقل.. لم يدر ما سيقول.

كانت عايدة تحترق بجحيم الفراق والشوق من ثورة حبها الدافق.. وكانت تعاني من حياتها الأمرين.. فظهر بؤسها على كل ما فيها.. حتى على حركاتها.. لقد كان بؤسها سبباً لبؤس الأسرة بأكملها.. فخيمت الكآبة والسكون المقيت على جو المنزل.. حتى أنواره أضحت باهتة.. كل مظاهره الداخلية والخارجية.. كانت تدل على الحزن والمسكنة.

عندما كان الرقيب محمد ينهي محاضراته لحسين تجمع حولهما بعض الجنود من رفاقه وراحوا يتواردون عليه ببعض الكلمات اللطيفة المؤدبة التي كان يرد عليها بابتسامته الواثقة العميقة المعنى عمق الحزن الظاهر في عينيه الوسنانتين.. من شدة ما عاناه من سهاد وسهر.

بينما هم على هذا الحال يدردشون ويتمازحون.. سمعوا نداءً:

ـ أحمد.. أحمد.. هات الحلوان.

ـ ماذا وراؤك.. سعيد؟

ـ اعطيني البشارة.. أبشرك.. لا تحاول.. إنها مفاجأة سارة.. احترامي حضرة الرقيب.

ـ أعطيك ما تريد.. أفصح.

ـ لا.. اللّه يسامحك.. لا أريد إلا خيرك.. خذ.

ـ اللّه؟!!.. رسالة؟!!.. ممن؟.. شكراً أخي سعيد.. يا عيني.. يا عيني إنها من أمي.. يا عيني أنت.

كانت تلك المفاجآت بالنسبة لحسين نقطة تحول في سلوكه.. فهو قد شعر أن رفاقه يلاحظون عليه شيئاً لا يسره.. ثم.. أنه فكر: بكتابة رسالة إلى عايدة.. حبيبته ليعلمها عن عنوانه.. فلعلها هي الأخرى ترد عليه ويقرأ في سطورها حبها وهواها.

تفكيره بالرسالة فرض عليه اللجوء لرفاقه يطلب منهم ورقة وقلماً.. لكنه أخيراً عثر عليهما عند قائد جماعته الرقيب محمد.. ولقد كانت هذه فاتحة لرفاقه ليتحدثوا إليه أكثر وليبادلوه التحية كلما شاءت المناسبات.

بينما كانت عايدة ترخي بنفسها على الأريكة.. مهمومة.. تمج لفافة بشراهة وشهية فوجئت بجرس الباب يقرع.. واستغربت من نفسها اهتمامها بالأمر ومن وثوبها على قدميها بسرعة ومن اندفاعها إلى الباب الذي لم تقدر على مقاومته.. فقد كان من عادتها أن تطلب إلى أحد

بنيها أو أختها أن يفتح الباب.. هذا إذا لم يفعلون ذلك من خاطرهم.

ـ السيدة عايدة سلوم؟.

ـ نعم. وتمتمت: آآ.. الآن فهمت: انه العقل الباطن.

ـ نعم.. ماذا تقولين؟.

ـ لا شيء.. سلامتك.. على كل حال.. شكراً.. مع السلامة.. انتظر.

وذهبت مسرعة وعادت وبيدها ورقة نقدية.. ثم تابعت: خذ هذا (بخشيش).

ـ ألف شكر.. اللّه يسعدك.

ـ مع السلامة.

وذهب موزع البريد وهو يرفع الورقة النقدية إلى نظارتيه المكبرتين الهرمتين أكثر من هرمه.

راحت أصابع عايدة ترتجف وهي تفض الرسالة بشيء من الفرح يخالطه الشك.. ألقت برأسها على مسند الأريكة ثم بدأت تقرأ الرسالة باسترخاء وسعادة.

عـــــــــايدة حبيبتي

مرت الأيام القليلة حسبتها بالبعد عنك سنيناً طوالاً..

عيناي لم تعرف النوم خلالها ولاشك بأن سبب ذلك هو ظلك الجميل الذي ما فارق تصوراتي لحظة واحدة تدفعني للحاق به سفينة الشوق التي تمخر عباب حبي الهائج.. آه.. يا لأسفي.. إنني لم أحصد من أمل اللحاق بطيفك الحبيب إلا الألم والدموع.. لكن.. ثقي أنني لن أيأس.

واحبيبتاه.. إن ما أعيشه من عذاب مادي هنا في هذه البقعة الصغيرة من الأرض التي أكتب إليك منها.. مهما عظم (وكم ستبتئسين!.. لو كنت تقدرين عظمته.. أو لو كنت تعيشينه معي.. بجانبي).. إنه يا عزيزتي لا يعادل إلا أقل من جزء يسير مما تعانيه روحي شوقاً ومما تحترق به نفسي لهفة.

لا تشكي برجولتي ياحبيبة واعذريني إن لاحظت تبلل كتابي هذا بدموعي.. واعذريني.. إنه حبك وهذا الفراق الذي يشوي كبدي بالشوق إليك.

وكأن روحي رحيمة بي يا حبيبة فأوحت وطيفك إلى دموعي الانهمار أملاً بأن تطفئ ناري.. علها تخفف علي حرقة قلبي.

أما عن وجودي هنا يا حلوتي فإنني لا أحس به لأنك

تملئين وجودي.. وكل ما أحس به: أنني هنا رغم إرادتي.. وكم يتبادر إلى ذهني السؤال: لماذا علي أن أحارب؟... أن أقتل أخي الإنسان؟.. لماذا عليه أن يقتلني؟.. آه.. تباً للاستعمار.

وختاماً: أفيدك: ربما أعود إليك سالماً وعما قريب.. لأنني أتوقع مستنداً على ما أراه أمامي من تحركات العدو ومعتمداً بذلك على تقديراتي العقلية: أنه لن يكون أي حرب بيننا وبين معسكر الإمبريالية والاستعمار (ثمنة الصهيونية) المشيدة على أرضنا.. ربما العدو لم تكتمل خططه واستعداداته بعد.. ربما أكون مقصراً بتقديراتي؟.. إن قيادتنا لم تخبرنا شيئاً.. الظاهر أنها لا تعلم شيئاً.

وتقبلي مني يا حبيبتي هذه الحفنة من التراب التي سأرفقها طي كتابي وأرجو أن تحتفظي بها أو أن تذريها في زوايا عشنا الجميل.. لأنها من تراب وطني.. مقدسة.. ولربما تروي دمائي البقعة الصغيرة التي حفنتها منها.

ولك مني يا حبيبتي لثمة الشفاه المباركة.. كرحى قديس لامست مريضاً وشفى.

لي عندك رجاء: أن تتمني لي النصر والعودة سالماً.. فأنا

لا أريد أن أموت.. أن أقتل أن أستشهد.. أريد أن أعيش لذة الانتصار.. لا أريد أن أتركك وحيدة في هذا العالم المليء بالذئاب الآدمية القوي فيها يأكل الضعيف.. وإياك أن تحكمي علي من قولي: أنني سأكون جباناً.. أنا لا أعتقد ذلك.. فالرجولة تثبتها التجارب الرهيبة التي لم أمتطي متنها بعد.. ولو مرة واحدة.. ولهذا فأنا لا أعرف نفسي.. وكل ما أعرفه.. أنني أحقد على الإمبريالية والاستعمار وأرغب لهما الفناء.. والقضاء على رأس الأفعى منهما (الصهيونية بعصابتها إسرائيل المعسكرة).. وكم أتمنى المساهمة بذلك.. وأعتبره شرفاً.. وإن استشهدت ياعزيزتي؟.. وهذا مالا أريده.. فأرجو أن تكوني حريصة للعثور على جثتي.. لا لأهمية الدفن عندي.. بل لتودعيني بقبلة كريمة.. أقدسها.

بلغي نعيمة وهياماً وغساناً وجميع الأصدقاء أخلص تحياتي وأعطرها.. ودمتي فخورة بي.. وإلى لقاء قريب.. قريب.

حبيبـــــــــــــك البار حسين

اختلطت في عيني عايدة دموع الفرح والكآبة.. لقد اطمأنت إلى أن حبيبها يراسلها وأنه لا يزال على عهده هياماً بها.. وأنه يعدها بأنه ربما عائد عما قريب.. ولقد حز في قلبها حديثه عن الموت جروحاً نازفة.. إنها تكره هذه التصورات وهذه الأحاديث.. إنها لا تريد لحسين الغياب القصير.. فكيف بالغياب الطويل؟.. الأبدي؟.. ولهذا اختلطت الدموع في عينيها حزناً ومسرة.

وقررت أن ترد على رسالته لتطمئنه عن الصحة والأحوال وعن فرحتها بما تلمسته من رسالته.. وفكرت بأن تحدثه بها عن كآبتها.. لكنها أخيراً عدلت بدافع الغرام.

قرأت الرسالة أكثر من مرة.. وأحياناً بصوت مرتفع لتسمع أختها وبنيها مشاعر حسين وكلماته وتحياته لهم.

وانتظرت حلول ساعات النوم حيث هيأت لها الفرصة للوحدة والانفراد لأن تأخذ قلماً وورقة وتكتب:

حســــــــــين.. يا حبيبي.

وصلتني رسالتك.. وكانت أحلى هدية.. لقد انتشلتني

من يم الحزن الذي كنت أغوص أعماقه.. إنني أشكرك على ذلك وأبعث لك بقبلاتي على أجنحة هذا الليل الذي أخط فيه رسالتي لك لتلامس شفتيك القرمزيتين تعبيراً عن الامتنان من جهة وعن السعادة التي أعيشها الآن من جهة وكأنك أمامي بجميع حركاتك وسكناتك.

يشهد.. لا أدري من سيشهد؟.. لن أشهد أحداً.. فأنا واثقة أنك ستصدق ما سأقوله: أنني فخورة بك.. فخورة كل الفخر.. حقاً: أنا لا أريد فراقك.. ولكن إن أنا بخلت بك؟.. ولو فعلت كل النساء مثلي؟.. فمن سيحرس هذا الوطن؟.. من سيحمي الحدود؟.. من سيدافع عنا؟.

أنا لا أعتقد ان الحب يفقد الرجولة.. لقد كان عنترة يحب عبلة حباً ما بعده حب.. ولكنه كان فارساً جريئاً فلا تيأس يا حبيبي.. وإنني لأريدك بطلاً لا يهاب الموت حتى ولا يفكر به.. غفرانك.. فأنا لا لا أتهمك بالجبن.. وأنا أعرفك بطلاً شجاعاً.. ولكنني أقول هذا لتطمئن من شعوري بالفخر ولتثق بأنني غير كئيبة على تجنيدك وحملك البندقية.. بل العكس.. أنا سعيدة.. سعيدة كل السعادة.. ولا أعتقد أنه هناك أحلى من أن أكون زوجة

جندي يشترك بتحمل مسؤولية شرف الدفاع عن الأرض التي نقيم عليها ونعيش من خيرها.. وإنني من أعماقي أباركك في ذلك.. ولا يزعجني من هذا كله إلا فراقك وبعدك عني.. وكم أتمنى لو أكون بجانبك.. أحمل لك الزاد وقربة الماء.. يا ليت قيادة الجيش تدعوني لذلك؟.. أقسم: أنني كنت سأشكرها.. لأنها إن فعلت.. تفرحني.. لكن يا للأسف.. فلم نزل نحن النساء غير موثوق بنا وأننا لسنا أكفاء.. أعتقد يا عزيزي: أن قيادتك خاطئة بتقديرها هذا.. ما الفرق بيننا وبينكم؟.. أليس للمرأة يد تستعملها فيما يستعمل الرجل يده؟.. أليس لها قدم وساق كما كان له؟.. أليس لنا عقول نفكر ونفهم بها نحن المساء كما لكم أنتم الرجال؟.. إن ألسنتنا أنشط من ألسنتكم.. إذن لماذا؟.. نعم لماذا لا تغير قيادتكم رأيها القديم؟.. لماذا لا تكون انتفاضة.. دعوة المرأة إلى الساح.. إلى المعركة.. على الأقل.. فأنا يا عزيزي أجيد الطبخ وصنع الشاي.. (وسر بيني وبينك) إنني أجيد مسامرتك والسهر عليك لتكون نشيطاً يوم الوقيعة.. لم لا؟.. إني لست أدري!.. وكل ما أريد قوله: يجب عليكم.. أنتم الرجال أن تتخلوا عن روح

أنانيتكم المتربصة القاتلة في نفوسكم.

والمهم: ليس المجال هنا واسع للتحدث حول موضوع كهذا.. بل هناك ما لاحظته وهو هام.. والمجال هنا يتسع له.. لقد لاحظت في رسالتك يا عزيزي ما يجلب الاهتمام وهو: أنك والظاهر نسيت أنه كان من الممكن أن تقع رسالتك هذه بيد العدو أو أنك لم تنتبه إلى أسرار هامة قد تحدثت عنها في رسالتك؟.

لا تلمني يا عزيزي.. لأنه واجبي وحقك علي ولا أريد أن أتجاهله.. وأنا والصدق يقال: ما أردت الاستخفاف بك أو بمعرفتك.. لكن من لا ينسى؟.. من لا تمر عليه الهفوات؟.. وأعتقد: أنه ليس من العار لفت انتباهك إلى خطيئة كهذه؟.

القيادة أفهم وأعرف مني ومنك يا عزيزي.. وهي تدري واجبها.. وتعرف وظيفتها.. تخبرك أم لا.. إنه شغلها.. وتقديرك: أنها لا تعلم شيئاً.. وأنه لن يكون هناك حرب.. فهذا يخصك ولن يحاسبك أحد عليه.. ولكنه ربما يفيد العدو لو حدث ووقعت الرسالة في يده.

انا لا أطلب منك سوى الطمأنينة عن صحتك.. لا مانع

من أن تصف لي جمال الطبيعة هناك.. لكنني لا أريد أن أعرف موقع مربضك.. كي لا تحدث المصيبة.. ربما.. من يدري؟.. يمكنك أن تحدثني عن حوادث مضت.. أما ما لم يحدث بعد؟.. أرجوك لا تحدثني عنه.

هذه وصيتي لك.. ولتعتبرها من زوجة مخلصة بارة لزوجها الحبيب.. أو من أم رؤوم لولد غال.. ولا تطلب مقابلها ثمناً إلا الانتصاح منك.. بها.

أفيدك: لقد اتصل أخوك بي وسألني إن كنت أعرف شيئاً عن عنوانك ولما أبديت جهلاً تحسر وتأسف.. وتكلم عن لوعة أهلك عليك.. ولهذا يا عزيزي أعتقد أنه ليس من العار في شيء لو بعثت لهم كتاباً أو قصاصة صغيرة.. تخبرهم على الأقل عنوانك وتطمئنهم عن صحتك.. ولا تخيب رجائي بذلك.. صالحهم.. تودد لهم.. كن سموحاً معهم.. صدقني إنهم يحبونك.

أما عن والدية التي بعثتها.. أو قل: الأمانة.. ثق أني سأحافظ عليها وستكون في عرفي مقدسة.

آمل أن تساعدك الظروف لتنفذ وعدك: أنك ستعود إلينا سالماً وعما قريب.. ويافرحتي حين الوصول.

وختاماً.. تقبل مني يا حبيبي آيات الحب المسكة بقبلاتي الرطبة الندية ومحاطة بالتوسل إلى القادر أن يعيدك إلي سالماً منتصراً مزهواً.

الجميع هنا وخاصة من تخصهم بالذكر.. شقيقتي نعيمة وولداي غسان وهيام يهدونك التحيات ويدعون لك بالنصر والرفعة والعودة سالماً.

المخلصة حبيبتك عايــــــدة.

كان صباح الخامس من حزيران عام /1967/ عندما كان حسين يقرأ رسالة حبيبته له.. يذوب بين كلماتها المعاتبة الرقيقة.. مندمجاً بها كل الاندماج.. ولكنه ما كاد يطويها ويضعها في جيبه حتى سمع هرجاً ومرجاً يرافقه تصفيق مبعثر هنا وهناك وهياصاً مما دفعه لأن يصيغ السمع ويوجه أذنيه الصغيرتين ليتأكد أمراً ما ربما خطر لذهنه لكنه لم يستطع المكوث في مكانه أكثر.. بل دفعه الحماس لأن ينطلق باتجاه مصدر الأصوات الصاخبة.. ولما بلغها وجد لفيفاً من رفاقه مجتمعين حول مذياع يردد بعض البلاغات العسكرية من محطة إذاعة

الجمهورية العربية المتحدة من مصر تقول: أسقطنا للعدو عدد كذا وكذا من الطائرات.. قام العدو بهجوم جوي.. قامت القوات العربية بالهجوم على العدو لتذيقه حتفه.. اشتعلت الحرب.

راح حسين مع رفاقه يرددون عبارات الفرح والتبشير بالنصر وبإبادة العدو.. ويتحركون حركات حماسية شجاعة.. حركات تنم عن حب للقتال تذم الصبر وتغني على الإسراع للوغى..

بينما هم في جوهم هذا متفاعلون معه جاءتهم الصرخة من قريب: تهيؤوا للقتال.. فليذهب كل منكم إلى مربضه.. اسرعوا يا شباب.. اليوم يومكم.

وتفرق الرجال الفوارس.. كل إلى مكانه المخصص له وبيده سلاحه مجهزاً للاستعمال.. وربض حسين في حفرته المتقدمة التي كانت معدة له لكونه رامياً على القاذف المضاد للدرع.. لكنه كم تحسر وتضجر وتمنى: لو يكون بحوذته مذياع.. الله يسامح الرقيب محمد.. لو انتظر على أمره حتى أكمل المذيع السوري بلاغه.. لقد حرمنا من الاستماع إلى قرار قيادتنا.. بأنها قررت الاشتراك في الحرب

إلى جانب قوات الجمهورية العربية المتحدة.

وراح بينه وبين نفسه يعتب على الرقيب محمد ويلومه إلى أن جاءه الوحي أخيراً فقال: الحق مع الرقيب محمد.. لو بقينا حول المذياع أياماً فلن يكون هناك أية فائدة.. الحرب ليست بالاستماع إلى المذياع.. إن قرار قيادتنا بدخول الحرب أمر طبيعي تمليه شروط الدفاع المشترك الذي وقعت معاهدته قبلاً بين الشقيقتين.. الويل لإسرائيل.. لماذا ورطت نفسها في حرب ستكون وبالاً عليها؟.. تستحق الفناء.. إنها نهايتها.. التي لابد منها.. هكذا تفعل الحماقة بالحمقى.. الحق أنه آن الأوان لنتحرر من كابوسها.. من وجودها.. يا للراحة.. يا للحرية إن تحقق ذلك.. يا لازدهار اقتصادنا ويا لتحسن عيشنا.. تباً للخنازير.. تجار الدماء.. لولاهم لكنا في أحسن عيش وأرغده.. ولكن لابأس.. ها نحن سننتهي من الجراثيم الخبيثة.. ستعود لنا الراحة والحرية والأرض.. سنعيش سعداء.. نأمل ذلك.. نامل بإزالة هذه الثكنة عن أرضنا.

وبينما هو يخاطب نفسه بذلك مر بذاكرته طيف الحبيبة الذي ذكره بما تدعوه إليه وتنصحه به في

رسالتها.. وراح يثني عليها حبها له ولوطنها ويمتدح فيها معرفتها وذكائها ويؤيد في قولها: أنه الحق.. وهي مصيبة في ما ترتئيه وفيما تحكم فيه.

بينما هو على هذه الحال في محاكاة نفسية وعقلية فاجأه تصفيق حار من ورائه يرافقه رعيد يملئ الجو.. ولما نظر خلفه وجد رفاقه يرفعون رؤوسهم من خنادقهم في شريط طويل.. يصفقون ويحييون بحماس النسور البواسل الذين مروا من فوقهم يحملون الزؤام للعدو اللعين.

بعد اليوم الأول من الحرب أي بعد اليوم الخامس من حزيران عاش حسين كما كان رفاقه يعيشون جو التربص الصامت إلا من بعض بلاغات يرددها المذياع.. الذي لولاه لما علم أن بعض قطاعات الجيش العربي السوري تحتل مشارف وبساتين (صفد) ولما علم: أن الجيش العربي المصري بدأ بالتراجع إلى الخطوط الخلفية.. وكم تساءل كما تساءل رفاقه عن السبب الذي منع من ظهور الطيران السوري في سمائهم بعد اليوم الأول أو قل بعد المرة الأولى والوحيدة.

ودب الخوف والحقد في نفوسهم.. جيش مصر الذي

كان يعتبر أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط يهزم أمام حفنة غادرة.. على حد زعم معلوماتهم.. وشعر كل منهم أنه بحاجة لاجتماع مع رفاقه.. أو على الأقل مع جماعته ليناقشه أو ليتفهم منه أمر أشغله أو عن قضية كانت تجول بخاطره.. أسئلة كثيرة عنها.. ويشرع كل واحد بمناداة رفيقه يدعوه إليه.. إلى مربضه.. لأنه لا يريد أن يترك مربضه.. وقد كان كل واحد منهم حريص أن يكون رفيقه هو القادم إليه.. وأحياناً يسمع الرقيب محمد نداءاتهم فيحاول التدخل في الأمر ويسعى لكل منهم ليعرف حاجاته.

هذه الصورة لم تكن وحيدة في ذلك المكان من خط المواجهة أو غيره ولكنها كانت مرتسمة للعالم والخطوط في كل مرابض ومواقع الجبهة الأمامية والخلفية.. في كل مكان استفسار واستفهام جامد صامت.. في كل حفرة ثورة تعتمل في النفس وحقد وخوف وانتظار مجهول.

كان نشاط العدو على الجبهة السورية معدوماً تماماً إلا من بعض طائراته التي كانت تمر من فوق القوات تنذر

وتهدد بصوتها القاصف فقط ولا تتعرض لأي هدف كان بل العكس كان الجنود وخاصة رجال المدافع المضادة للطيران يمطرونها بوابل من نيرانهم ويجبرونها على الفرار أو على السقوط ما أتاح لرفاق حسين أن يعلنوا تمردهم على الثبات في حفرهم أو في مخابئهم فراحوا يرفعون رؤوسهم تحدياً ويتجولون في خنادقهم ويلتقون مع بعضهم وأحياناً يجتمعون.. ويقدم كل منهم أسئلته وأجوبته وحتى اقتراحاته ولم يكن ينس أن يلعن ويسب أيضاً ثم يتهم.

كان حسين من بين الجنود الذين لم يستطيعوا ترك حفرهم المتقدمة.. ولما انشغلت نفسه بما انشغلت به نفوس رفاقه راح ينادي قائد جماعته الذي لاحظ أنه يأتي إلى كل من يناديه.. ولم يخب ظن حسين إذ استجاب الرقيب محمد لندائه.. فراح يحبو على ركبتيه ويديه إلى أن وصل حفرته وانزلق بها بخفة وبراعة ثم جلس بعد أن حيّا بعضهما.

ـ ما أخبارك يا حضرة الرقيب.

ـ آخ يا حسين.. آخ.. إنها أخبار سيئة.. من كان يصدق أن الشرذمة اللئيمة تهزم جيش مصر العرمرم.

ـ كنت أعتقد: أننا سنحرر أرضنا من دنسهم خلال أربع وعشرين ساعة.

ـ الحق ليس علينا.. ليس عليّ أو عليك.. ولا على أمثالنا.. الحق يا حسين على القيادات الاتكالية المتتابعة.. التي كانت تغفو خلف الطاولات أو في أحضان العشيقات والغانيات.. لو تتصور: كم هم اللئام أقوياء؟.. نحن لم نكن ندري عن قوتهم تلك أي شيء.

ـ أين رجال مخابراتنا إذن؟.

ـ إنهم مشغولون بملاحقة الأبرياء في شوارع دمشق وغيرها من العواصم العربية الأخرى.. في كافة المدن العربية.. لاهم لهم إلا ملاحقة الأبرياء.. وخاصة النساء المسكينات واللواتي يعشن على حساب كراماتهن وأجسادهن.

ـ أهذا كان واجبهم؟.

ـ ما علاقة الواجب بمن لا يفهمه.. ولا يدركه؟.. إن أحدهم ليفهم: أن فلاناً من الناس له زوجة جميلة ولهذا لا مانع عنده من أن يدعوه إلى المركز متفقاً بذلك مع رئيسه ليوجه له مجموعة من التهم السياسية ثم يحتجزه.. وفي هذه الحالة لا بد أن تسعى زوجته لإخراجه.. فتفتش عنه وتتقرب

وتتودد.. هـــــــي وحنكتها وقوة شخصيتها.. وقدرتها على السيطرة على أعصابها.. هذا هو عملهم.. أما واجبهم فالكراسات والكتب في خزائنها أعلم.

ـ أف.. أف.. والآن ما العمل؟.

ـ لا أدري.. إننا ننتظر أوامر القيادة.. أنت تعرف يا حسين: أننا لا نعرف شيئاً إلا في حينه.. الله يساعد رفاقنا الذين هجموا على مستعمرة (صفد).

ـ لا خوف عليهم يا حضرة الرقيب.

ـ آه يا حسين.. أنت غلطان.. أنت لا تعلم أن الطيران الإسرائيلي استطاع أن يدمر الطيران العربي في مصر وسوريا والأردن خلال ساعات قليلة وهو جاثم على مدارجه وكأنه ينتظر حقدهم ولؤمهم لانقضاضه عليهم.

ـ إذن هذا هو سر.. اختفاء طيراننا من سمائنا؟.

ـ نعم يا أخي.. نعم.

ـ طيب.. وماذا ننتظر نحن؟.. لماذا لا نقاتل العدو؟.

ـ أنا لا علم لي بهذا.. القيادة هي التي تعلم وتأمر.. هه.. هه.. أعتقد :.......

ـ ماذا تعتقد؟.. احك يا حضرة الرقيب.

ـ لا أدري... العدو؟.. هه.. أين العدو؟.. لنقاتله.. إنني لم أرَ عدواً منذ اليوم الأول للمعركة.. لقد حرقت مدافعنا الأرض في أول يوم ولم نرَ أي أثر للعدو.. أين هو العدو؟.. لنقاتله؟!.. نهجم عليه.. نفتش عنه.. ندخل عمقه.. بعدتنا وعددنا.

ـ خليها على ربك يا حسين.. ما الذي سيحمي رؤوسنا من لعنة الطيران؟.

ـ لا هم لنا منه.

ـ لا يا حسين.. لا.. إذا لم تكن سماؤنا محمية تقع الكارثة.. على كل حال.. كما قلت لك: أنا لا أعلم شيئاً من هذا.. إنه شغل القيادة وأوامرها.. لها الأمر وعلينا التنفيذ.

ـ معك حق.. إنّك مصيب.. ولكن كم أنا مستغرب؟.. كيف تجرأت إسرائيل وقامرت في هذه الحرب؟.. لماذا لم تحسب حساب الهزيمة؟.. ألم تفكر: لو قدر وخسرت الحرب عند نتائجها؟.

ـ يا حسين.. يا حسين.. إن إسرائيل قلعة للاستعمار هنا.. يوجهها متى وكيف يشاء.. هو الذي يخططها.. وهو الذي

يكفل لها النصر.. إن الاستعمار بقيادة الصهيونية العالمية لن يتركنا إن استطاع.. لأن نهزم إسرائيل.

ـ أعرف ذلك.. أعرفه.. أعرف أن إسرائيل ثكنة عسكرية للاستعمار بقيادة الصهيونية العالمية.. أقيمت على أرضنا وأطلق عليها: اسم إسرائيل.. تمويهاً علينا وعلى الرأي العام العالمي.. وعلى اليهود الأبرياء.

ـ أحسنت يا حسين.. هذا صحيح.. إنها تستغل عطف اليهود وشعورهم الديني لصالحها.. وتخفي على العالم حقيقتها وغايتها في اطلاق: اسم إسرائيل عليها.. أما علينا: فلم تستطع ولن تستطيع أن تخدعنا عن حقيقتها.. أما عن قوتها.. فالحقيقة: أنها خدعتنا وضللتنا.. إننا لم نكن نعلم عن قوتها شيئاً.. لقد أظهرت عن أضعاف ما كنا نقدره لها من قوة.. أعتقد: أن هذا ليس من براعتها أكثر مما هو من كسلنا واستهتارنا بالقضية..

ـ شيء يحير العقل!!.

ـ ما هو يا حسين؟.

ـ ثقة العدو الغادر بنفسه.. بالانتصار.

ـ لا داعي للحيرة.. إننا نعلم أن إسرائيل هي ثكنة

للاستعمار.. وأنت تعلم أن الاستعمار لا يهمه ولن يخسر إلا القليل.. عندما يدفع بمرتزقته للجحيم أو للمغامرة وهو مطمئن على أنه لن يخسر الأرض.. فلو احتل العرب أي جزء من (ما زعم: إسرائيل) فسيفرض عليهم وبمساعدة هيئة الأمم المتحدة التي تسيطر عليها أمريكا: التراجع إلى ما خلف مواقعهم القديمة.. هكذا يا حسين.. طالما يعلم أنه لن يخسر الأرض.. فلا همّ عليه إن خسر الرجال أو العتاد.. والمرتزقة في هذه الدنيا الفسيحة كثيرون.. والظاهر أنك لم تسمع المذياع؟.

- أحياناً.

- إذن لابد أنك سمعت بما تطلبه أمريكا من فرنسا وبريطانيا؟

- نعم سمعت.. إنها تطالبهما بتنفيذ مضمون المعاهدة الثلاثية لعام 1951 والتي وقعتها الدول الثلاثة وتتعهد بها حماية الكيان المصطنع..

- أحسنت.. هل لاحظت؟.. كيف أن أمريكا ستقوم مقام الجميع لأن فرنسا رفضت أن تقدم لإسرائيل أي عون.. بل على العكس وجهت لها إنذاراً تدعوها فيه لعدم الاعتداء.

ـ حقاً إن فرنسا تستحق الشكر من العرب.. طبعاً وبقيادة ديغول.

ـ صحيح.. أما بريطانيا لم تبدِ أي موقف يشرفها.. بل إننا نحمد عجزها عن التدخل.. إن ظروفها لا تتيح لها التدخل.. هي لاشك ستتدخل.. ولكن ليس بإمكانيات تفيد العدو.

ـ وأمريكا؟.

ـ يا أخ حسين.. أمريكا.. صرّحت: أنها لن تتدخل.. ولكنها تكذب.. لا تصدقها يا حسين.. ستتدخل ولكن بشكل لن تتيح لنا به التعرف على كيفية تدخلها.. إن أمكنها.. إنها العدو اللدود لنا.. أنا لا أعتب عليها.. ماذا تنتظر من عدوك غير الحقد واللؤم؟..

ـ هي الغرابة بعينها.. مسخ صغير يسّخر مارداً.. قولك: هل للمتخاذلين العرب دور في هذا؟.

ـ الظاهر أنك نسيت أن إسرائيل ثكنة للصهيونية.. إنها ليست مسخاً يا حسين.

ـ معك حق يا حضرة الرقيب.. لقد غفلت عن هذا.. الواقع ان أمريكا بحد ذاتها مزرعة وحقلاً اقتصادياً للصهيونية تبتز خيراتها وتوجهها كيفما تشاء.

ـ أحسنت حسين أحسنت.. إن إنتاج المزرعة (أمريكا) وملحقاتها العربية يذهب أكثره لدعم هذه الثكنة التي أقامها الاستعمار الصهيوني.. إن اهتمامه بتمكينها يفوق كل اهتمام.. لقد ترك الاستعمار عنوة جميع البلدان التي كان يسيطر عليها.. وسيخرج من فيتنام رغم أنفه.. لكنه هنا يتشبث ككلب بقيت له آخر عظمة.

ـ إذن إن أهم سلاح لنا هو الإيمان بقضيتنا والتضحية من أجلها.

ـ هذا صحيح.. ولكن هناك ماله الأهمية العظمى.. وهو اتحادنا.. وتعاضدنا وتحاببنا.. آخ.. آخ..

ـ إنك مصيب.. مالك تقف.. إننا جالسان؟.. واعلم أن كل طلقة تستهلكها إسرائيل يدفع العرب ثمنها.

ـ آن الأوان يا حسين أن أذهب.. ربما يحتاجونني.. هناك.. لقد قضيت عندك من الوقت ما لم أمضيه عند أحد من رفاقك.. واعتقدوا أن الدافع لذلك هو ما لمسته من حبك للمعرفة.. إنني اندمجت معك بالحديث أكثر.. هذا لباقة وحسن معرفة منك.. خاطرك.

ـ مع السلامة.. لا تنسَ أن تتردد علي دائماً.. أنا هنا وحيد

منعزل..

ـ سأفعل.. سأفعل.

بقي حسين وحيداً يندب سوء تناسيه: لماذا لم يسأل الرقيب محمد عن موقف قيادته؟.. ولماذا لم يتعامل العدو معنا؟.. هل يكتفي بأن يحارب مصر فقط؟.. هل اقتنع بتدمير سلاحنا الجوي على المدارج؟.. وينزل عليه الوحي مرة ثانية: أن العدو لن يتركنا أبداً من دون أن يعتدي علينا.. لاشكّ أنه يستفردنا.. ها هو يقاتل الجيش المصري.. وغداً سيقاتلنا.. ثم لا شكّ بأنه يتعامل مع بعض قطعات من جبهتنا.. يا إلهي ما أمقت هذه اللحظات.. إن الانتظار مرير.. طلقات رصاص تئز فوق رأسي وأنا أُهيّء القذيفة.. أهوّن عليّ.. علينا من هذا الانتظار.. الذي تآكلت به أعصابنا بين حب الانتقام والتضحية وبين خوف.. إنّه علينا أهون من هذه الحرب النفسية والتي نحسّ بها أنّ جباهنا تارة تناطح السحاب وأخرى تعانق التراب.

راحت خواطره تتدرّج شيئاً فشيئاً حتى وصل به المطاف: لماذا نحارب؟.. من المعتدي؟.. لمصلحة من هذه الحرب؟.. من تفيد ومن تؤذي؟.. لمصلحة من يحارب هو؟.. هل لأنه مواطن

سوري؟.. وإن كان.. ما مصلحة المواطنين السوريين خاصة والعرب عامة من هذه الحرب؟.. ولماذا هيأت الحكومة كل هذا الجيش؟.. وهكذا إلى أن وصلت به تخيلاته إلى فكرة الهرب.. طالما أنه خمّن: أن لا فائدة له من هذه الحرب.. مقرونة بخوفه من الفشل.. ثم الموت مدفوعة بحبه للحياة؟.

عندما راودته فكرة الهرب صعد الدم إلى رأسه وسال عرقه بشكل غزير.. وتضاربت طبول الحمى المؤقتة في رأسه.. يهرب؟.. إلى أين؟.. حتى لا يلاحقه القانون.. عليه أن يهرب خارج البلاد.. ولكن ما قيمة القانون عند أحكام الضمير القاسية المؤنبة؟.. كيف سيتخلص من العار الذي سيرتكبه.. إن فعل؟.. ثم.. ما قيمة الحياة المرهونة بالذل والوضيعة؟. عند وصوله إلى هذه الأحكام.. تذكر قول الشاعر العربي:

لا تسقني كأسَ الحياة بذلّةٍ بل اسقني بالمرِّ كأسَ الحنظلِ

كأسُ الحياةِ بذلـّةٍ كجهنّم وجهنّم بالعزّ أفخر منزلِ

وحكم على نفسه أنه ارتكب عاراً حتى في أفكاره.. يهرب؟.. هه.. يا عيب على أفكاره.. هو الإنسان العاقل المحترم من قبل معارفه.. يلبس نفسه جلباب الذل؟.. لا.. لن يكون ذلك.. الموت أهون عليه.. ثم.. هو من يحارب؟.. هو لا يحارب اليهود كما شرد بأفكاره أول الأمر.. إنه يحارب الاستعمار.. الصهيونية.. يحارب الذين طردوا أخوانه من ديارهم.. الذين سيفتعلون بأهله.. بأمه وبأبيه وبأخوته.. بعايدة كما فعلوا بسابقاتها إن صح لهم وانتصروا.. إذن إنه يحارب لصالحه.. لصالح رفاقه الذين يحاربون معه.. لصالحه ولصالحهم المشترك.. لصالح المواطنين جميعاً.. وتساءل: ما فائدة وزير الدفاع أو رئيس الأركان.. أو رئيس الجمهورية من هذه الحرب؟.. إنه لا ذنب لهم.. سوى أنه شعورهم المرتبط بالمصلحة القومية.. وبالنضال القومي المرتبط بالنضال الإنساني.. والذي يمثل شعوره هو بالذات وشعور كل المواطنين العرب.. وراح يؤنب نفسه على أحكامه عليهم ويعتذر على شتائمه.. واعترف أن الحرب مفروضة عليه.. على الجميع ولا مفرّ منها.. وإنه وإن قرّرت قيادته أو حكومته: الانسحاب من الحرب؟.. فإن إسرائيل

ذات المصلحة بها لن تتركهم..

اتعبت هذه الأفكار عقله وروحه إلى أن خرجت من نفسه آهة متمردة تعني الثورة على ضياع أفكاره.. لماذا منشغل أنا بكل مالا أفهمه؟.. أأفتش عنه بثمن؟.. سألاقيه غداً بدون ثمن.. وبسهولة.. وهنا تذكر أهله وعايدة.. لا عليها.. فقد كتبت لها رسالة بالأمس.. سأكتب إلى أهلي اليوم.. ثم إنها رغبتها.. سألبيها.. لبيك يا عايدة.. لكنه قبل أن يبدأ بالكتابة سحب رسالة عايدة من جيبه يقرأها ويحلل معانيها.. يتفاعل مع كلماتها بالسرور سروراً وبالحزن حزناً وبالحكمة موافقة وتصديقاً حتى نسي نفسه بها: كأنه بعيد عن جو الحرب والقتال.

بعد أن أنهى الرسالة قراءة شرد بذهنه إلى ماضيه مع عايدة نزهاتهما.. غرامهما.. حبهما.. كيف تعرف عليها.. سعادته.. خروجه من الشقاء بها.

للوهلة الأولى شعر حسين بالخوف والهلع والتصق بحفرته حتى صار جزءاً منها.. لكنها عدة طلقات ثم أصبح الأمر بالنسبة له كأنه طبيعي.. فراح يجمع شتات أعصابه شيئاً فشيئاً إلى أن عاد لنفسه هدوءها الطبيعي.. والذي ساعده

بذلك.. أنه لم يسمع صرخة واحدة صدرت عن أحد رفاقه.. لهذا وبدون اكتراث صمم على أن لا يترك الرسالة إلا بعد أن ينهيها.

انتهى حسين من كتابة الرسالة ولكن الدوي لم ينته. بقي فترة وهو يفكر: أيرفع رأسه قليلاً ليشاهد أمراً مما خطر بباله؟.. ولكن ربما تصيبه شظية.. إن ذلك يعتمد على الصدفة.. لماذا الخوف يا هذا؟.. وراح يحاول رفع رأسه قليلاً ولكنه لم يستطع.. لقد أحس أن شيئاً ثقيلاً يضغط على رأسه كلما حاول النهوض.. لم يكن يدري ما هو.. لكنه عندما فكر به تبين أنه الخوف الذي سيطر على مشاعره دون أن يدركه.. لهذا تمالك أعصابه ورفع رأسه وراح ينظر يمينه ويساره، أمامه ووراءه خيفة.. وشاهد النيران تشتعل هنا وهناك والقذائف التي تخرج من الأرض أكثر من القذائف التي تصطدم بها.. لكن صوت قنبلة تزأر في الجو جعلته يلتزم حفرته حماية وخوفاً.. فتحسر وتكدر لأنه لم يستطع أن يؤنس نفسه بنظرة واحدة ولو لواحد من زملائه، وكأنه لا يوجد في تلك البقعة أحد.. أكلهم مختبئون مثله؟

لم يستطع أن يرى حسين شيئاً من خلال حفرته إلا بعض طائرات كان يهوى قسم منها محترقاً ينشر دخاناً كثيفاً.

أخيراً ساد الجو صمت رهيب.. سكتت فيه المدافع والانفجارات وغلب رعيد الطائرات.

لما رفع حسين رأسه قليلاً شاهد رؤوساً تتحرك مسرعة تدل على نشاط في الخندق الذي ربض فيه رفاقه كما أنه سمع صخبهم وأصواتهم متناثرة هنا وهناك.

ـ استعد يا حسين.. هيء قاذفك.. انظر أمامك.. إن رتلاً من الدبابات يتقدم.. هذا ما صرخ به الرقيب محمد.

ونظر حسين إلى المدى الذي أمامه فإذا الغبار يملأ الجو ويزداد.. ولما أصغى قليلاً.. سمع دمدمة راحت تتعالى شيئاً فشيئاً حتى توضحت قرقعة ورعيد، ثم بانت هياكل الدبابات واضحة للعيان.. لكنها مازالت بعيدة عن الرمايات الصائبة.

وجاء الأمر بالاختفاء ثانية والإصغاء والانتباه للأوامر التي ستصدر.

عندما أصبحت الدبابات على مرمى الأسلحة المضادة

الخلفية التي فات على العدو فرصة تدميرها.. صدرت الأوامر بالتصدي لأرتال الدبابات القادمة.

وحميَ الوطيس ورفع حسين سلاحه لا يجدي نفعاً.. غير أن المنظر راقَ له حينما شاهد أنّ أرتال دبابات العدو تتفجر ويهرب الباقي منها.. ثم تجتمع مرة أخرى بعد أن يأتيها الدعم ولكنها لا تلبث ثانية حتى يتدمر أكثرها وتولي الأخرى الأدبار.. سُرّ للأمر ولعب الحماس في رأسه.. فها هي الدبابات متناثرة هنا وهناك.. وها هم بعض رجالها.. من تبقى منهم أحياء يسلمون أنفسهم.. وداعب النصر مخيلته فقال لنفسه: الجبهة السورية؟.. هي الجبهة السورية.. لم تتغير.. ولن تتغير.. كانت على مر الأيام صامدة.. وستبقى صامدة.. لاشكّ أن القول السائد صادق: الجيش العربي السوري هو القلعة الحصينة التي ستتكسر على صخر صمودها أطماع المستعمرين وسلاحهم.. إن خسارتنا لطيراننا لن يغير من الأمر شيئاً.. فها نحن مازلنا نكبّد العدو دباباته بعد أن كنا نكبّده طائراته منذ قليل.. وكم كانت فرحته عظيمة عندما شاهد ما تبقى من دبابات العدو تولي الأدبار هاربة.

عندما لاحظ العدو مناعة المنطقة وتبين له أنّ رماية طيرانه كانت غير مجدية وأن تقدم دباباته مستحيل قرر إدخال طيرانه مرة أخرى في المعركة.

عندما قامت المدفعية الخلفية بصد دبابات العدو ومدرعاته.. تعرف العدو على مرابضها.. فانكشفت له ولهذا كانت رماية طيرانه مجدية.. أكثر من ذي قبل.

لم تتم فرحة حسين.. فقد قضى على فرحته وسعادته سرب من الطائرات.. تملأ الجو رعيداً مرعباً وتغطي الأرض بنار لاهبة تحرق كل ما تلامسه.. لقد كانت أكثرها قنابل يحوي النابالم.

وظهرت أرتال الدبابات من جديد وراحت تتقدم.. وحمي الوطيس أكثر.. فقد تصدّت لها المدفعية المضادة أرضاً وجواً.. وغنى غراب البين في القطاع وحامت به المنية تزهق أرواحاً منا شجاعة طاهرة.. ومنهم الشريرة والخسيسة.

قاومت المدفعية حتى النفس الأخير وكبّدت العدو دبابات وطائرات وجنود.. ولكن قوة العدو كانت له سبباً في نجاحه آخر الأمر في إسكاتها لتلك المواقع.. التي لم تركن ولم تذعن لقوته حتى أفرغت ذخيرتها وبطلت

ميكانيكيتها وأضحى حجر مدبّب في اليد أخيَر منها.. فساد طيران العدو الجو يقصف ويلعب على هواه فقد عوض ما فقده من طيران فوراً وأصبحت الدبابات البعيدة عن الخندق الأمامي بحمى عما كان يؤنسها ويداعبها ثم يكسرها بحممه فتقدمت تقرقع وترعد مطمئنة يحميها في السماء البوم اللعين.. لكن غطرستها ما لبثت أن ضاعت عندما صارت على مرمى السلاح الفردي الذي لم يتكشف للطيران بعد.. ففرق جموعها وزرع الرعب بين صفوفها.. وتفرقت هنا وهناك وولى بعضها الأدبار ودمر البعض الآخر.

كان حسين فارساً بطلاً كرفاقه.. فقد استطاع أن يوقف رتلاً ويهزمه بتدميره لثلاث دبابات متقدمة أعطى بها الفرصة لرفاقه القذّافين أن تكون رمايتهم صائبة مدمرة رغم الطيران الذي كان يقذفهم بحممه والذي لم يكونوا يأبهون به.. وكم سخروا من الموت في تلك الدقائق.. فتضاعفت شجاعتهم وقوة حماستهم.

ولكن من فقد حصانه في الجولات الأولى خسر السباق في الجولات التالية.. وهذا ما كان بالنسبة للقذّافين

الأشاوس.. أفرغوا ذخيرتهم وكشفت مواقعهم واستبد بجوهم الطيران يقذفهم بالنابالم حيث كان له فيهم أجدى.

رمى حسين قاذفه جانباً وأخذ بندقيته يقاتل بها بكل جرأة.

وانفجرت قنبلة هائلة بجوار حسين صم صوتها آذانه وغاب عن الوعي لحظة ولولا شعوره بأن النار تلعب في رأسه وكتفيه لما أفاق من غيبوبته.. وفوراً أدرك أنه أصيب بالنابالم.. فلم يفقد رشده بل تمالك شجاعته وقذف بنفسه خارج الحفرة وراح يتدحرج باتجاه الخندق الذي كان خلفه حتى رمى نفسه فيه ثم أخذ يمرغ رأسه ووجهه وعنقه بالتراب حتى تأكد من إطفائها.

عندما رأى أنه قد سلم من النار إلا من بعض حروق كانت مؤلمة.. ولما حاول أن ينهض سمع ضجيجاً قوياً يقترب منه بسرعة.. أدرك أنها دبابات العدو أصبحت على قيد خطوات منه.. ولهذا تصنع الموت وعاد فطمر وجهه بالتراب ثانية واسترخى بيديه وجسده وقطع أنفاسه طمعاً منه بالنجاة.. وفعلاً مرت بضع دبابات من فوقه دون أن تشعر

بوجوده.. فاطمأن لعدم وجود مشاة إلا في عرباتهم وإن كان ثمة راجلين فإنهم لم يعيروه انتباهاً لأن منظر الأموات طبع في نفوسهم عدم الاهتمام.

وأخذ يزحف على بطنه في الخندق تاركاً آلامه بدون تفكير أو اهتمام.. لكنه كلما كان يسمع ضجيجاً أو قرقعة أو صخباً يعود للرقود ويسكن دون حراك.

وعندما تأكد أن العدو فاته دون أن يعترضه رفع نفسه وأخذ الخندق منحنياً بسرعة فائقة لم يشعر بتعبها إلا عندما أصبح في الوادي الذي يعطيه فرصة الاختفاء والتنقل بكل سهولة.. فاطمأن لنجاته وراح يمشي الهوينا.

لقد كان بعده عن جو الخوف وسيره البطيء وباطمئنان داعياً لشعوره بالتعب والألم ولهذا راح بيده يتحسس خده الأيسر وكتفيه وصدره وبعض نقاط مبعثرة في جسده ولم يهتم لثيابه المحروقة الممزقة المهلهلة بفعل الزحف والنار.

شعر أن خور قوته يزداد لكنه كره اليأس الذي كان يحرضه على الاستسلام.. فراح بكل جلد وصبر يقاوم يأسه وضعف عزيمته.. وتخلص من ثيابه الممزقة.. لكنه أبى أن يترك بندقيته التي كان يتقلّدها حتى ولو كانت

عصا عنده خير منها لأنه أنفق كل ذخيرتها في صدر أعدائه.. وكم أسِف لأنه نسي القاذف في الحفرة.

هام على وجهه لا يدرك سبيلاً يقصده.. تثيره في أعماقه.. آلامه التي راحت تتزايد وتتضخم.. لكن الإرادة الحكيمة شاءت له أن يفاجئه شخصان.. فعندما كان يمشي لا ينظر إلا أمام أقدامه ليتحاشى بذلك التعثر وخوفاً من السقوط.. وكونه كان منشغلاً بآلامه عن كل شيء فلم يشعر أنه دنا من قرية وأن اثنين من أهلها شاهداه وأسرعا فوراً لمساعدته.

لما شعر أن اثنين قد تأبطاه صُعق للمفاجأة وانهار ما تبقى من قواه وأضحى أقرب إلى الغيبوبة وعجز عن أن يرفع قدميه ليخطو ولو خطوة واحدة.. حتى.. أن عقله أضحى عاجزاً عن التفكير فيما إذا كان من فاجأه صديقاً أم عدواً؟.. وربما ركبه اليأس فأحب الموت وعشقه وتمنّاه.. وربما حكم أن فيه السعادة والراحة الأبديتين.. فاستسلم وتراخى.

حملاه ودخلا به أحد البيوت القريبة مسرعين.. وبعد أن أضجعاه على حصير التفت أحدهم إلى صاحبة البيت

ليطلب منها بعض الماء فوجدها إلى جانبه وبيدها خرقة وكوباً من الماء.. فقال: بارك اللّه فيك يا أم جاسم.. هذا ما كنت سأطلبه منك.. هات عنك.. وروحي إلى بيتنا.. قولي لأم عليان تعطيك شيئاً من الزيت.

ـ اللّه يسامحك يا أبا عليان.. لماذا؟.. ألا يوجد عندنا زيت؟.. يا سيدي يوجد.. وأعتقد أننا لن نبخل.. أم عليان أكرم مني؟.. لماذا؟.. لا.

ـ أنت بين أهلك.. لا تخف.. احمد اللّه يا بني.. جاءت سليمة.

ـ إنني لا أعرف كيف أشكركما؟.

ـ لا داعي للشكر يا ولدي.. إنه واجبنا.

ـ لماذا؟.. ماذا فعلنا لك؟.. إنه أمر لا يستحق الذكر.. إننا لا نريد منك إلا شفاؤك.

ـ هات شيئاً من اللبن يا أم جاسم.. إن وجد الحليب.. يكون أحسن.

ـ لحظة.. أحلب الغنمة.. لن أتأخر.

كم كانت نشيطة تلك المرأة المتوسطة العمر؟.. وكم كانت سريعة الإنجاز؟.. لقد كانت طيبة إلى أبعد حدود الطيبة.. لقد عاملت حسين بأحسن مما تعامل به أم ولدها..

لقد تلمس فيها أحسن صفات المرأة العربية ونُبل أخلاقها.. وآخر ما زاد إعجابه بها.. قولها لرجلان عندما كانا يرفعانه على ظهر البغلة: على مهلكما.. كونا حريصين عليه.. احذروا حروقه.

ـ ولو.. أم جاسم.. اطمئني.

ـ الظاهر أنك أحرص عليه منا؟.

ـ لا لوم علي.. إنه واجبي.. إنه رفيق ولدي وأخي.. إنه زميلهما في السلاح.. إنني أحبه لأجلهما.. هم جميعهم أولادنا.. اللّه يحميهم.. اللهم.. إذا ما حدث لولدي أو لأخي.. أو لأي شاب من شباب هذا الوطن.. أي مكروه؟.. فابعث له من يساعده.. ويواسيه.. إني أتوسل إليك يا اللّه.. أنت الأعلم بقلوب الأمهات وأرحم.

ـ آمين يا أم جاسم.. آمين.

ـ اللّه يسمع منك يا أم جاسم.. خاطرك.. ادعي لنا بالتيسير.

ـ رافقتكم السلامة.

كانت خيوط العتمة قد تراكمت في الفراغ عندما انطلق الرجال.. تغلفهم الظلمة السوداء.. صامتين.. كل منهم يفكر بأشياء ويتوقع أشياء إلى أن قطعوا مسافة لا بأس بها.

ـ لماذا نحن صامتون؟.. حدثنا يا أبو محمد؟.. دعنا نضيع طول الطريق.

ـ معك حق يا أبو عليان.. كيف حالك الآن يا ولدي؟.. إن شاء اللّه أحسن؟.

ـ أشكركما.. لابأس.. أحسن.

ـ وهل تعيقك حروقك عن الحديث؟.. بالمناسبة.. ما اسمك؟..

ـ اسمي.. حسين.. حسين اسكندر.

ـ والنعم.

ـ والنعم.

ـ منك.. منكما.

ـ ولكن ماذا أحدثكما؟.. أنا لا أملك مادة للحديث.

ـ وكيف؟.. إنه عندك.. حدثنا عن الحرب؟.. عن المعركة؟.

ـ نعم عن المعركة.. إن فكرتك كانت عظيمة يا أبو محمد.

وصمت الجميع.. الرجلان ينتظران حديث حسين.. وحسين راح يعيد لذاكرته أحداث المعركة.. من بدايتها إلى نهايتها.. ناسياً نفسه عما هو فيه.. مندمجاً مع أيام الحرب التي مرت وعاشها.. ولما طال الانتظار بالرجلين،

قال أبو عليان: هات.. هات يا ولدي.. يا حسين.. حدثنا.. إنّ حديث الحرب لذيذ.. كم كنّا نتمنى أن يكون النصر حليفنا.. لكن.. مع هذا لا بأس.. فالعدو لم ينتصر.. لو كنا نحن الذين خسرنا الحرب.. لأنّ العدو لم يحصد نفعاً.. لن ينتصر.. هات حسين.. هات عيشك يطيب.. أعتقد أنك تحفظ كثيراً؟.. أليس كذلك.. هات.. سمعنا.

وبدأ حسين.. أخذ يحكي ما جرى له وما شاهد.. بكل تعاطف واندماج بينه وبين الأحداث التي مرت.. من جهة.. وبين الحماس والحقد من جهة أخرى.

ـ نحن... هه.. إنّنا لم نحارب كما ينبغي.. لم ندخل المعركة كما يظن البعض.. نستطيع أن نقول: أننا صمدنا أمام العدو لحظات.. أو فترة.. إن شئنا سميناها فترة.. أو أننا أعقنا تقدمه لهذه الفترة.. أما أن يقال أننا دخلنا معه في معركة أو في حرب.. هه.. فإن هذا لم يحدث مطلقاً.. الحرب لها ظروفها.. لها أساليبها.. تحتاج إلى إمكانيات.. تحتاج إلى تخطيط وتقدير سليمين.. لقد كانت للعدو الخيل السبّاقة في هذا كله.. ظروفه الدولية والداخلية.. وإمكانياته الهائلة.. وخططه الجهنمية.. إنه مستعد

ومجهز.. بعكسنا نحن.. أنا واثق أنه كان يدرك قوتنا وخططنا.. أما نحن فلم نكن نعلم شيئاً.. إن لم يكن ذلك.. كيف وثق بالنصر؟.. تصوروا.. لقد نفذت ذخيرتي خلال لحظات.. بالمناسبة.. أين بندقيتي؟.. أرجو أن لا تكونا نسيتماها؟.

ـ اطمئن.. اطمئن.. ها هي معي.. إنني أحملها لك.. انظر.

ـ بارك اللّه فيك.. بارك اللّه فيكما.

ـ اطمئن يا حسين.. أكمل.. إن حديثك شيّق.

ـ آه.. ما الفائدة؟.. لو كان معي قذائف أكثر مما كان لاستطعت أن أدمر دبابة بكل قذيفة.. هذا خطؤنا.. لم نكن نملك السلاح أو الذخيرة الكافية للمقاومة. الحقيقة أعتقد أنه يوجد.. لكن.. الإمداد كان به معدوماً.. لأن القائمين على الإمداد كانوا عاجزين.. إننا لا نهتم بعناصر الإمداد.. علماً أن للإمداد السهم الأكبر في انتصار الجيوش وانكسارها.. إنني أفخر برجالنا.. برفاقي.. إنهم ليسوا مسؤولين عن هزيمتهم.. لقد حاربوا بكل شجاعة وحماس رغم الظروف السيئة التي كانوا بها.. أنا واثق لو مرت هذه الظروف على العدو لما حارب.. ولترك سلاحه..

ولعاف الحرب والقتال.. تصوروا كان الطعام يأتينا كل يومين مرة واحدة.. حتى في هذا اليوم الذي تعرضنا فيه لقوة العدو ووحشيته.. كنا نعاني الجوع والعطش.. الشيء الوحيد الذي كان يؤنسنا هو لطف الرقيب محمد.. لقد كان بالنسبة لنا إلهاً وحيداً بعطفه ورعايته.. نحن لم نرَ قائد غيره.. لم يؤنس نظرنا أو سمعنا صاحب رتبة إلا هو.

ـ ماذا جرى له؟.. أين هو؟.

ـ لقد تركته هناك.. أو ربما هو الذي تركني؟.. ولا أعرف ماذا جرى له.. أو لرفاقي جميعاً.. لا أعرف ماذا حصل لهم.. وهذا خطأ كبير.. لقد كنت منعزلاً عنهم تقريباً.. كنت بحفرة منفردة؟.. متقدمة.. ليس لها أي خندق ليصلها بالخندق الرئيسي.. لهذا كنت منعزلاً.. لا أعرف ماذا جرى لهم.. ولكنني لا أتذكر أنني تعثرت بأحدهم.. عندما كنت أسلك الخندق فراراً.. الظاهر أنه جرى لهم أقل مما جرى لي؟.. أفرغوا ذخيرتهم ثم وجدوا أن الفرار مفروض عليهم.. لقد كانوا ملزمين به.. الله يحميهم.

ـ ماذا تقول يا حسين؟.. هل نسيت أننا كنا نسمع المذياع؟.. لقد كان يصرخ ويرعد مبيناً قوتنا.. لقد هيص وعيط

كثيراً.. أين هياصه مما تقول؟.

ـ الشيء الذي لا أزال أسأل عنه كأي مواطن عربي لايزال يتساءل عن معرفته هو: لماذا كانت المحطات العربية تفضح وبشكل واضح جميع تحركات جيوشها؟.. طبعاً أنا لا أُحمّل الإذاعات المسؤولية.. إنني أُحمّلها للقيادات.. أو ربما لها مبرر بذلك؟.. ربما كان معها الحق بذلك؟.. لأنّها كانت تنوي التطبيل والتهويل على الصهيونية.. لا الحرب.. ربما توقعت بهذا أنها ستخيف إسرائيل؟.. فتجعلها تعدل عن عدوانها؟.. الحقيقة إن كان هذا هو المقصود فلا شك بأنها خاطئة.. فالعدو يعلم من أين تؤكل الكتف.. هي إحدى اثنتين.. إما أن يكون العدو كما وصفته ذكياً.. وإما أن تكون قياداتنا غبية.. وغبية.. فمتى وجد الغباء.. قابله خصمه لضعفه.. حتى لو لم يكن.

ـ حقاً إن كلامك في مكانه.. لقد قيل مثلاً مشابهاً لرأيك (يأخذه إلى البحر ويرجعه عطشانا).

ـ أحسنت.. أحسنت.. الحق ليس من الذكاء في شيء أن نأخذ امرئاً إلى البحر ونعيده عطشاناً.. الغبي أو الذكي إن ذهب إحداهما إلى البحر.. لا بد أن يعود عطشاناً.

ـ المهم يا جماعة.. نحن لا نستطيع أن نحاسب القيادات.. أعتقد أنها ستحاسب نفسها.. لا بد أنها ستستفيد من التجارب التي مرت بها.

ـ لا.. أنا لست مع رأيك يا أبو محمد.. إن لنا الحق في تصحيح أخطائنا أولاً.. وإلزام القيادة بالالتزام للاستفادة من هذه الأخطاء.. وإلا.. فأين دورنا كمواطنين؟.. نعم إنه لنا الحق.

ـ المهم.. أننا نريد أن تكمل لنا حديثك عن المعركة.. وسنرى أخيراً ماذا ستعمل القيادات.. إننا لا نستطيع أن نحاكمها الآن.. إن فعلنا ذلك نظلمها.. هات أخي هات.

وراح حسين يحدثهم بكل ما شاهده وما عاشه.. كيف كانت الطائرات تنقض وتقذف.. وكيف كان بعضها يهوي محترقاً.. وعن معركة الدبابات مع المدفعية الخلفية.. وكيف كانت المنطقة جحيماً كافراً ترشق الحمم وتُرشَق بالحمم.. وكيف أصيب.. وكيف خلى المكان.. وكيف خاف من مفاجأتهم له.

بهذا راح يحدثهم كل الطريق.. وهم يظهران له تشجيعاً وإصغاء وكم كان حظهم عظيماً.. فلم يصادفوا

بطريقهم ما يقطع عليهم ثقتهم واطمئنانهم أو هدوئهم واندماجهم مع أحاديثهم الشيقة.

سُرّ الرجلان عندما أوصلا حسين إلى المكان الأمين بخير وسلام دون أن يعترضهم أي عارض.. لقد غمرهما الإيمان أنهما أديا واجباً وإنجازاً خيراً.

كانت عايدة تحتضن مذياعاً صغيراً تصغي له ببؤس وغم، عندما رن جرس الهاتف.. لقد سبب لها الانزعاج والغضب.. لأنه شوه عليها اندماجها ففصلها عن المذياع لحظات.. ربما فاتها بنبأ؟.. الأخبار كانت ثمينة.

ـ ألو.. نعم؟.

ـ مين عايدة؟.

ـ نعم.. عايدة.. من المتكلم؟.

ـ أنا أمل.. مرحباً يا عايدة.

ـ أهلاً.

ـ كيف حالك؟.

ـ أشكرك.. كيفك أنت.

ـ مليحة.. اسمعي يا عايدة.. لقد جاءنا بعد منتصف الليل جندي مصاباً ببعض الحروق.. عندما أخلعته ثيابه لأعطيه

غيرها تابعة للمستشفى.. يا حرام.. إن جميع ثيابه لا تعادل شيئاً.. المهم عندما أفرغت جيوبه من حوائجه لأتركها له.. وقع من محفظته كرت صغير.. لما رفعته عن الأرض وجدته صورتك.. إنها صورتك يا عايدة.

ـ ماذا تقولين؟.. أمل؟.

ـ أقول لك الحقيقة.. إنها صورتك.. لقد كنت أود الاتصال بك فوراً.. لكن الليل كان آخره.. وأنت تعلمين البقية.. قولي لي هل عرفتيه يا عايدة؟.. هل تعرفينه؟.

ـ هل تعرفين اسمه؟.

ـ لا.. لم أفكر بهذا.. أوف.. كم أنا غبية؟.. لقد فاتني.

ـ هل هو قريب منك؟.. هل يستطيع أن يحدثني؟.

ـ إنه في المهجع المجاور.. ولا أدري إن كان يستطيع أن يحدثك أم لا؟.. ثم إني أعتقد أنه ليس من اللياقة أن تكلميه.. قبل أن تتعرفي عليه.. تعرفيه؟.

ـ المهم طمنيني.. هل حروقه صعبة؟.. مؤذية؟.

ـ والله.. إنها حروق.. لكن أذاها ليس بالذي تتصورين.

ـ اسمعي.. هل يمكنك أن تنتظريني على باب المستشفى؟.

ـ آسفة.. يا عايدة.. إنني لا أستطيع.. باب المستشفى بعيد..

ووقت قدومك غير معلوم.. إنني لا أتمكن الابتعاد عن المرضى هكذا.. قدومك غير مؤكد.. محاط بالمجهول.

ـ إنني قادمة فوراً.

ـ إذاً لا بأس.. اصعدي فوراً إلى المستشفى.. البناية الثانية.. الطابق الثاني.. المهجع رقم ثمانية.. على كل حال إذا لم تجديني في نفس المهجع.. ولم تتعرفي على صاحبك.. هذا.. فأنا سأكون في الممر بين كل فينة وأخرى... أي فرصة تتاح لي سأنتظرك في الممر.. المهم أسرعي.. شكراً مع السلامة.

كان حسين مغمض العينين.. تظهر عليه علامات الهدوء رغم الأنين الصامت الذي لم يكن يسمعه إلا أعماقه.. لكن شهيقه وزفيره كانا واضحين وإن كانا لا يبديان أي ألم أو حزن.

هاجس جعله يصغي إلى همسات عهد بعضاً منها.. وقطع أنفاسه ثم فتح عينيه.. فإذا بحبيبته عايدة تقف أمامه ممعنة النظر إليه في محاولة التعرف عليه من وراء التغيير الظاهر على وجهه وكل شكله.. ولما لاحظ منها ذلك مرفقاً بالعطف والرأفة وببعض التقزز النفسي.. همس:

عايدة.. ولما سمعت منه اسمها.. تأملت واندفعت إليه وهي تهتف: حسين؟.. حسين؟.. بشجن.. إنه حسين إنه حسين.. يا حبيبي.. أنت.. ولما أرادت أن ترمي بنفسها فوقه فاقد الشعور مقدرة وضعه الذي هو به.. أدركتها أمل ومنعتها عن ذلك للحظات راحت بها تطيب خاطرها مبتئسة لإجهاشها ولبكائها بدموع تنحدر مدراراً.

ـ ماذا ستفعلين؟.. عايدة؟.. احذري حروقه.. ربما تسببين له الآلام؟.

وهزت عايدة رأسها علامة الموافقة.. والشكر.. واستحسان التصرف.. ثم رفعت يدها اليسرى عن وجهها لتزيح أمل من طريقها بينما باليد اليمنى راحت تمسح دموعها عن عينيها وهي تشهق شهقات تحرك بها رأسها من الأسفل إلى الأعلى..

ولما استسلمت أمل لرغبتها تابعت تقدمها ثم انحنت بهدوء وروية ثم وضعت رأسها بلطف على بطنه وأحاطته بذراعيها وهي لا تزال تشهق وتبكي.. حتى أن شهقاتها كانت تهز السرير لتسبب لحسين السعادة الحزينة وهو يرد عليها همساً ورأسها بين يديه يداعب لها خصلات

شعرها الجميلة الناعمة: لم بكاؤك يا حبيبتي؟. كفى بكاء أرجوك.. حبيبتي عايدة.. اطمئني.. فإني على أحسن ما يرام.. الإصابة سليمة.. الحمد للّه.

كانت أمل تقف متفرجة.. وكم أثار المشهد عاطفتها حزناً ورأفة.. وأيضاً سروراً.. لكنها أخيراً تركتها وعادت تصرف وقتها في رعاية مرضاها الآخرين.. فغير أن الذي أشغلها قليلاً ودون اكتراث هو علاقة عايدة برجل اسمه حسين.. لكن جو الأنين أبعدها عن الاهتمام بأمور كهذه.

هدأت دموع عايدة بعد أن أفلح حسين بإبعادها عن جو البكاء.. وانغمسا بحديث من التقيا بعد فراق طويل من تحيات وسلامات واستفسارات عن الصحة والأحوال.. كما أنه لم ينسَ أحدهم أن يشرح لرفيقه كيف قضى زمن الفراق.. وكم عانى.

استطاعت عايدة أن تحصل على بطاقة دخول وخروج من وإلى المشفى حين تشاء.. وهكذا أضحت ممرضة تسهر على حسين الليل والنهار.. كما أنها لم تتوانَ عن تقديم مساعداتها لكل نزيل تشعر أنه بحاجة إلى المساعدة.. فكم أُثني عليها وحمدت.. وكم تردّدت عبارات الشكر

هنا وهناك للإنسانة الرحيمة.. وكم هُنِئ حسين أو حُسِد على حبها وصداقتها وعلى إخلاصها.

كان حسين يميل إلى الشفاء بصورة حسنة.. كأن شعوره بالنعمة التي ترافقه جعله يبرأ من حروقه بهذه السرعة.. لقد أحس أن الأيام التي قضاها تحت إشراف عايدة وبرعايتها لا تحسب إلا من دور النقاهة.

وأخيراً منح حسين نقاهة طويلة بعد أن تعهدت عايدة تمريضه والإشراف عليه.. وهكذا خرج وإياها من المستشفى يحملان الحزن والألم وبؤس الطوية.. لقد نسيا كل ألم جسدي لأن سقوط القنيطرة في يدي الأعداء كان أكبر مصاب ضاعت عنده جميع المصائب الأخرى.. حتى الموت كان تافهاً قياساً في عقول الناس عند الفاجعة الكبرى.

سرّح حسين بعد أن أعفي من الخدمة الميدانية في الجيش ومنح مبلغاً من المال تعويضاً له عن الإصابة.

قضى حسين شهوراً قلائلاً لا يعرف فيها غير السأم والملل.. يمج أيامه في البيت والشارع.. يبدد النقود التي قبضها دون تكلف أو اهتمام.. لا يشعر من أيام ما يؤنسه

إلا ما يقضيه مع عايدة.. وكانت سويعات..

عندما يصبح المرء فاقداً الأعمال يجتر أيامه.. لابد له من أن تنشط أفكاره وتتخلل مخيلته ميادينا فسيحة تجوب بها معالم الكون ومجاهله.. وهذا ما كان بالنسبة لحسين.. أما الذي أشغل تفكيره أكثر.. فهو: الإنسان.. هدفه.. وغاية وجوده.. فكم قاسَ وفكر.. قرّر وبعد وأخيراً خلص إلى النتيجة التي أعطاها من عبقريته حكمته التي تقول: الإنسان لن يبلغ قمة المجد إلا بتفانيه ونكران ذاته وبالبعد عن أنانيته.. ولم يبلغ التسامي إلا عند قضائه نحبه في سبيل الغاية المثلى أو على الأقل نصرها.. ثم فسر ذلك بقوله: أن أجسادنا فانية ولا مفر من فنائها.. فلماذا إذاً لا ننفقها في سبيل القضية العادلة؟.. الموت أمر محتوم.. فلنمت إذاً مناضلين.. ولهذا حكم على نفسه.. أن يكون فدائياً.. ينفق جسده وحياته في سبيل أمته لتبلغ روحه القمة.. ولما شاور عايدة الأمر أبدت له عدم تدخلها بأشياء اعتبرتها شخصية لا علاقة لها بها وأنها لا تريد أن تحجمه أو تؤيده حتى لا تكون مسؤولة اتجاه ما يريده ويرغبه.. وأن له فكره وعقله كما قالت:

والحقيقة: أن عايدة قررت بينها بين نفسها: أن لا تبخل على هذا الوطن بحبيبها حسين.. وصممت: أن لا تقف حائلاً دون عليائه وأنها ستلحق به عندما تتأكد من حسين اندفاعه إن استطاعت ذلك.

وفعلاً تطوع حسين فدائياً واندمج مع الفداء يقدسه ويعطيه روحه وينهك به جسده مخلصاً بتفانٍ لا يهمه ما كان يعرض به نفسه للسقوط وكل الذي كان يهمه.. هو الوصول إلى بغيته والانتصار في غايته.. فغدا بطلاً يملك على الناس وخاصة معارفه.. أحاديث سمرهم ومضرب أمثالهم.. فسرا على كل شفة ولسان.

لقد أضحى حسين قائداً لمجموعة من الفدائيين يحبونه ويحبهم.. ويقودهم من نصر إلى نصر ومن إنجاز إلى إنجاز.

مرة كان حسين في أحد الكهوف مع جماعته يخططون لعملية جديدة.. دخل عليهم حارسهم يخبرهم أن في الخارج رسولاً يحمل إليه كتاب من القيادة.. وأن برفقته امرأة ترتدي لباساً مموهاً.

أدخله أيها الرفيق.. دع المرأة بعيدة لنرى.

ولما فتح حسين الرسالة وقرأها.. تبين له أن امرأة تحمل

اسماً حركياً فدائياً سرياً قد أمرت القيادة بانضمامها إلى مجموعته.. ولهذا طلب إلى الرسول إحضار المرأة.. ولما دخلت الباب نظر إليها متمعناً كما نظر إليها بقية الرجال.. وخوفاً من أن يشكّ بمعرفتها رفعت عن رأسها سيدارتها.. ولما فعلت جحظت عينا حسين ووقف مذهولاً وهتف: عايدة؟.. اللّه؟.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟.. وهجما على بعضهما يتعانقان بينما الآخرون يقفون مستغربين لا يدركون شيئاً مما يجري.. لكن نباهة حسين جعلته يدرك الأمر.. فعرفها على الرفاق.. سلمت عليهم وسلموا عليها جميعاً وعرفهم بها: إنها زوجته.

كانت الخطة قد هُيئَت وأُعدَت للتنفيذ.. ولهذا قال حسين لعايدة انتظرينا هنا يا عزيزتي مع الرفيق (سهم) وكان هذا اسماً حركياً فدائياً أيضاً.. سنعود إليكما بعد إنجاز المهمة.. لكن عايدة قالت له: إنني جئت هنا لأنتظر أو لتقول لي انتظري.. بل جئت لأعمل.. ولأنتج.. لقد تبرع أحد الرفاق قائلاً: أيها الرفيق (أدهم وهو الاسم الحركي لحسين) ابقَ مع زوجتك.. ننفذ المهمة هذه من دونك هذه المرة.. وأعتقد أنه لا بأس عليك من هذا.. لكن حسين

رفض أن تنجز المهمة بدونه وهو مدبر لها.. ولم يوافق على طلب عايدة بل سألها: عن اسمها الحركي.. فأجابت: (ربوة).. فقال لها: أيتها الرفيقة ربوة.. أنت تبقين هنا.. ولا شيئاً غير هذا.. إلا أنه يمكنكما أن تحضرا لنا طعاماً ليكون جاهزاً عند عودتنا.. وودع رفاقه وانطلقوا تحميهم عايدة بقدسية روحها الصادقة وقلبها المؤمن المخلص.

كانت خيوط العتمة تدب بطيئة فاهية.. يفقدها كلاحتها ضوء القمر الذي كان بدراً كجوهرة حمراء ترتفع في الأفق لتملأ الكون لوناً خمرياً يشع في النفوس غبطة الجمال وسعادة الاطمئنان.

عندما كانت عايدة تسرح بأفكارها مع سرحان البدر الجميل في فضائه اللامتناهي جاءتها رعشة خفيفة وجف قلبها من صوت انفجار عميق تلته أصوات انفجارات متلاحقة.. ومع هذا فقد ابتسمت للقمر وكأنه وشوشها ليطمئنها.. أن المهمة قد أنجزت بكل نجاح وأن الأبطال في طريق عودتهم إليها.. وفي مقدمتهم أو ربما في مؤخرتهم بطلها الحبيب.. ولكنها ملّت الانتظار أخيراً لأنها وقعت في خطأ تقدير المسافة والزمن.. ولم يخفف من ضجرها أنس

القمر ولا رفيقها سهم الذي انضم إليها بعد الانفجارات والذي أخذ يحدثها عنها.. وذهب الليل أوله وانتقل القمر من بدر إلى هلال عندما سمعت طلقة بندقية على مسافة لا بأس بها.. طلقة واحدة جعلتها تتخبط بالخوف والرعب أكثر من ضخامة الانفجارات ومع هذا فقد عاودها أمل: أن حبيبها أصبح دانياً.. ولم تكن تعلم: أن الطلقة التي سمعت صوتها أخرجت من فوهة بندقية أحد الأبطال.. زوجها ورفاقه ليصرع بها ثعلباً لتصنع لهم قوتاً.

وكلما قربت المسافة بينهم وبينها ازداد في روحها الضيق والضجر.. وكانت كل دقيقة تمر عليها تحسبها ساعات ولكن الفضل يعود للأمل الذي كان يداعب خيالها وأحلامها.

وأخيراً نسيت جميع همومها وأفكارها وسأمها عندما ظهر لها أشباح تقترب بصمت وسكون.. ولم تشعر بأي وجل عندما خالط تفكيرها ظناً بأنه ربما يكونوا أعداء.. فقد أبعدت الفكرة من رأسها فوراً وأيقنت واثقة أنهم هم الأبطال.. ثم وثبت منحدرة تستقبلهم.. وفعلاً كان في مقدمتهم بطلها.

ـ ما هذا الذي في يدك يا حسين؟.

ـ إنني هنا أدهم وليس حسين.. تذكري (أدهم) وحذارِ.. من حسين هنا.

ـ عفوك أيها الرفيق أدهم.

ـ خذي.. إنه صيد.

ـ ما هذا؟.. ثعلب؟.

ـ نعم.. لقد رميته بطلقة واحدة.. عند تلك التلة.

ـ ما حاجتك به؟.. إنه قبيح.. ثم.. لا فائدة منه.

ـ هه هه.. هه هه.. لا أيتها الرفيقة.. إنه سيكون طعامنا.

ـ هذا الثعلب!.

ـ نعم.. ما ضرره؟.. إنه يؤكل.. إننا نأكل هنا كل ما تقع عليه أيدينا.. وإلا لا داعي لأن نكون صاعقة وفدائيين.

ـ ولكنك ربما كشفت طريقكم بطلقتك؟.

ـ آه.. كم أنا فخور ببديهتك؟.. إنك تفهمين فتلاحظين.. لكن اطمئني.. لا تخافي يا رفيقتي.. إنها طلقة وتضيع في الهواء.. لأنها غير منتظرة.. وغير معادة.

وهزت رأسها علامة الموافقة ولكن بدون اقتناع.

نام الرفاق مثقلين من الكد الذي عانوه.. وبقي أدهم

يحرسهم تؤنسه ملهمته حبيبته ربوة.. بعد أن طلب إليهم الراحة والنوم ورفض طلب رفاقه أن يقف أحدهم حارساً عوضاً عنه.. والحق يقال: أنه وإن كان ذلك منه بدافع التآخي.. فإن حبّه ورغبته للانفراد بعايدة هو الدافع الثاني.

ولهذا أخذ يحدثها ويستنكر فعلتها وهي تدافع عن نفسها بحجة: أنها ابنة هذا الوطن وأنها إحدى دعائمه.. وقادرة على أن تفعل وتنتج بينما كان الهلال ينحدر رويداً رويداً إلى المغيب.

لما أقنعته برأيها عادا للحديث العادي وبشيء من الغزل.. وعندما سألته عن المهمة التي نفذها مع رفاقه قال: لقد دمرنا أربعة مهاجع لجنود الأعداء.. ومكتب قيادة.. ولما سألته: كيف؟. تابع: إنك يا رفيقتي قد لاحظتي أننا انطلقنا من هنا عند الأصيل وهناك.. على مقربة من الهدف لجانا إلى مخبأ حتى أسدل الليل حجابه.. ثم.. انطلقنا بخفة ولياقة حتى وصلنا ثكنة الأعداء.. وكنت قد وزعت الوظائف بين الرفاق.. وقسمتها إلى ثلاث مجموعات.. مجموعتان منا انتشرت وتشبثت بالأرض لتحمي الثالثة التي هي مجموعة التنفيذ.. وقد كنت عضواً فيها.. هنا كانت

يا عزيزتي المهمة الصعبة.. فقد اجتزنا الأسلاك الشائكة زحفاً على بطوننا.. لقد قطعنا منها ما يعيق زحفنا.. ثم.. تابعنا تقدمنا على الأربعة كالكلاب.. الظاهر أن الأغبياء كانوا منشغلين ببعض (روتينياتهم).. غافلين عن مفاجأتنا لهم.. متناسين أنّنا لهم بالمرصاد.. وفعلاً: استطعنا أن نضع المتفجرات في زوايا المهاجع ومكاتب القيادة دون أن يشعروا بما ندبره لهم.. تصوري أننا وضعنا الصواعق الكهربائية ومددنا تلك الأسلاك وهيأنا كل شيء للتفجير دون أن يعترضنا أحد..

- وكيف انسحبتم؟.

- عندما دوت الانفجارات.. وقع القوم في ذعر.. فراحوا يندفعون خارج المهاجع مرعوبين مسرعين.. وهنا أمطرهم رفاقنا مجموعتي الحماية بوابل من رصاصهم.. بينما نحن مجموعة التنفيذ انسحبنا بكل سهولة.. ولكن من جهة غير الجهة التي كانوا بها رفاقنا متمركزين.

- ولكنكم.. جئتم جميعكم مترافقين؟.

- عفوك يا رفيقة.. لقد حددنا نقطة نلتقي بها.. بعد أن نكون قد أنجزنا المهمة.. وفعلاً يا عزيزتي نفذناها.. وها

نحن عدنا جميعاً سالمين.. كما رأيت.. والآن وها هو الهلال يعانق المغيب.. فقد حان وقت الانطلاق إلى مكان آخر آمن.. ولهذا أرجو أن تكوني يقظةً لحظات.. إنني ذاهب كي أوقظهم.. سأعود إليك فوراً.

ـ انتظر لحظة.. قبل أن تذهب لتوقظهم.. هل لك أن تخبرني إلى أي مكان سترحلون؟.

ـ عفوك أيتها الرفيقة.. ربوة.. ستعرفين عندما نصل المكان.. فأنت رفيقتنا إليه.. بعد أن أيقظهم ليعدون أنفسهم للرحيل عاد إليها دون أن يتأخر وراح يقضي معها بعض الحديث يسألها عن أخبار البلد ودمشق.

ـ ها؟!.. لقد ذكرتني.. كنت تلومني وتعاتبني وتستنكر قدومي إليكم علماً أنني لم أفعل ما يستحق التقدير تجاه ما فعلته إحدى الفتيات في أسبوع التبرع للعمل الفدائي.. حقاً أنا جئت إليكم لأقاتل معكم.. هذه هي أمنيتي كما تعلم.. إنها تضحية.. ولكنها لا تقاس بتلك التضحية التي قدمتها تلك القديسة.

ـ ماذا فعلت؟.. هل أكثر من أنها تطوعت مع الفدائيين أو تبرعت بمالها أو بدمها.

ـ إنه أيها الرفيق أدهم أعظم من ذلك بكثير.. هه.. لقد وقفت على المنصة أمام جموع المحتشدين (المزاودين).. وقفت فجأة وبشجاعة ثم قالت بصوت جهوري: أيها الناس. ورنا القوم إليها جميعهم يستغربون ما تريد قوله هذه الفتاة الجميلة التي شقت الجموع وقفزت إلى المنصة دون استئذان.. ولما رأتهم مشرئبين بعيونهم وقلوبهم إليها تابعت: إنني أتبرع بثمني للعمل الفدائي.

ـ يا اللّه؟.. إن هذا لعظيم حقاً.. ما كنت أتصوره من فتاة في بلدنا.. في أمتنا.

ـ على رسلك.. انتظر.. لقد تابعت: إنني الآن أعرض نفسي للمزاد.. والذي يزيد أكثر هو الرابح.. أكون زوجة للرابح.. أو عبدة إن شاء.

واغرورقت عيون بعضهم بالدموع وبكى آخرون.. لقد أحب وفضل كل واحد منهم أن يدفع كل أمواله ولا أن تدنس فتاة طاهرة كهذه.. هكذا أوحت لهم عقولهم.. وفي خضم المعارك بين كل نفس وروحها حول هذه المفاجأة الجديدة التي أطلق عليها بعضهم: فجيعة.. صاحت: أنا أبدأ المزاد.. لا داعي للخجل ولا للبؤس ولا مهيطة.. إنني أدفع

عشرة آلاف ليرة.. هي كل ما أملكه من مال.. وشرط المزاد ألا يقل عن الألف ليرة.. أعتقد أنني لن أكون أكرم من أحدكم.

وبدأ القوم يتسابقون لا لساناً لهم يتحرك وإنما دموع تسيل.. تصور أيها الرفيق انها أفادت العمل الفدائي بأكثر من نصف مليون ليرة لأن المزاد شمل كافة محافظات القطر.. وحتى بعض الأقطار المجاورة كالأردن ولبنان بواسطة التلفزيون.. إن في شعبنا شباباً تملأ الشهامة نفوسهم.. ويفيض الإباء من عروقهم.. لو تعلم ماذا حدث أخيراً.. إن الذي ربح المزاد قال بعد أن أصبحت ملكاً له اعترافاً منها: إنني أعتقك لوجه الفداء.. لكنني أرغب لو تكونين زوجتي.. فأنا عازب.. لك حق الرفض وحق القبول.. أنت حرة.. أنت حرة.. ولكن كم يحلم المرء بطاهرة كريمة مثلك.

ـ إنه شيء مؤثر في النفس وفي المشاعر.. ما قيمة حياتنا تجاه عظمة ما قدمته تلك القديسة.. ولكنني أتساءل: من أين جاءتهم هذه الأموال؟.

ـ إنها من أموالهم.. لها أرباحهم من متاجرهم ومعاملهم.

ـ إنها ليست من أتعابهم.. أليس كذلك؟.. إنني لا اؤمن بهذا المزاد ولا اؤمن بمجتمع فيه قوم يستطيعون المزاد وآخرون لا يستطيعون.

ـ ولكن عملهم هذا يدل على براءة في نفوسهم وطيبة طوية.

ـ ولكنهم لم يزاودوا من شيء قدموا وبذلوا له عرقهم وشقاءهم.. إنه لا يقاس بما قدمته امرأة تستحق أن تقلد وسام التضحية والشرف.. إنها تستحق أن تقلد وسام الشجاعة.. مَن مِن نساء هذه الأمة عندها جرأتها؟.. من تجرؤ على التعرض بنفسها في مجتمعنا.. في سبيل وطنها وأمتها.. لقد تحدت ناموس الشرف المزيف.. لقد أصابت صميم الشرف الحقيقي.. هي وحدها الشريفة.. ليست التي تختبي خلف الباب أو الحجاب شريفة.. بل هي الشريفة.. آه.. كم فتاة عملت جاسوسة صاحبت وصادقت.. سكرت وعربدت في سبيل أمتها..

ـ هذا صحيح.. هدئ أعصابك.. الذنب ليس ذنبهم.. فهم أبدوا كرماً واندفاعاً وتضحية.. ولكنه ذنب النظام.. النظام الذي يخطوه المجتمع والذي كاد يُبلي ولا يُبلى..

كان الرفاق قد اجتمعوا حولهما يعلنون استعدادهم

للانطلاق عندما كان يجيب أدهم: الحق معك يا رفيقة.. إن نظام مجتمعنا فاسد حتى النتن.. ومن الواجب والضرورة تغييره من الجذور.. ولقد أجابه بعض الرفاق عن هذه العبارة بدون أن يدروا من الحديث شيئاً إلا هي.. هذا صحيح.. و.. أصبت يا رفيق.. و.. كلامك جواهر.

كانت ربوه سريعة الفهم حيث تعلمت كل شيء عن سلاحها وواجباتها حين التصرف.. وكم أعجب بذكائها أدهم..

لقد كانت أول عملية وإن كانت بسيطة نفذتها ربوه بجرأة وسهولة.. فقد ذهب بها أدهم إلى رابية تكللها صخور وشجيرات.. أفهمها مهمتها التي ستنفذها غداً في المنطقة.

وفي الصباح كان قد أمن لها لباساً قروياً ظهرت به عند ارتدائها إياه زينة من زينات العرب مما جعلها تدفع في نفس حسين دواليب العشق والهوى مسرعة.

ومضت تحمل على ظهرها كيساً تتصنع به جمع الحشائش بحيث لا يشك إن شاهدها عدو أنها فلاحة فلسطينية تجمع لسوائم أسيادها بعض الحشيش.. وقضت

نهارها على الرابية تسجل كل شيء تراه وتسمعه.. ((ستة دبابات قطعت الطريق واختبأت في النهر.. ثلاث عربات مجنزرة خرجت من النهر وذهبت بعيدة ودخلت المعسكرات البعيدة التي تظهر خلف التلة الغربية لو وقف المراقب على الرابية.. جاءت سيارة نقل من نفس الثكنة التي دخلتها العربات المجنزرة في الساعة الثانية عشر ظهراً ويعتقد أنها تنقل طعاماً وتقودها امرأة.. دخلت النهر حيث الدبابات.. لم تمكث طويلاً ولكنها عادت من حيث أتت.. قبل الغروب جاءت من نفس الثكنة شاحنة مكشوفة تنقل بعض الصناديق ويُظن أنها ذخيرة.. بعد لحظات ظهرت على المفرق المجاور للشجرة الضخمة سيارة جيب مكشوفة قادمة باتجاه النهر تحمل بعض النساء.. عادت الشاحنة التي كانت تحمل الذخيرة من حيث أتت)).

كان هذا تقرير ربوة عندما عادت إلى رفاقها.. ولقد استطاعوا بناء على المعلومات التي جاءت بها خلال ثلاثة أيام متتالية أن يتأكدوا أمراً وينسفون ثلاث عربات مجنزرة ودبابتين وعربة التموين وأن يقتلوا تسعة رجال وامرأة.

تطورت مشاركة ربوة مع رفاقها مبتدئة بزرع لغم منتهية إلى ما كانوا يقومون به من غارات وكمائن تدميرية حتى غدت بطلة مثلهم لا تلين لها قناة ولا يفتر لها عزم.. وزادت في نفوس رفاقها الحماس على الحماس والتضحية على التضحية والإقدام على الإقدام.. زد على ذلك أنها أصبحت لهم أما وشقيقة تعتني بهم وترعاهم.. وكم كان الأمل الباسم والخيال الجميل يداعب أفكار حسين ويهمس في روحه: امرأة في العقد الرابع تستطيع أن تعطي اكثر مما يعطينه الصبايا.. إنها لأعجوبة مجتمعها الذي لو صح أن يكون فيه مجموعة من أمثالها لشمخ وعلا ولوثق النصر أو لأيقن.. والشيء الذي يعيدها إلى فكره ذكرى واحدة من مجموعة ذكريات الأعمال التي قامت بها.. ذكرى أسرها صهيونياً.. عندما لاحظ الرفاق ازدياداً في نشاط العدو وآلياته.. وعندما ألحت عليهم ظروفهم وواجباتهم أن يتعرفوا على سر الأمر الذي خفي عنهم.. تقارعوا متسابقين أن يكون أحدهم المضحي.. ولكن إصرار ربوة على أن تكون هي المنفذة جعلتهم يرضخون لطلبها ولما استطاعت أن تقنعهم به.. وكيف أنها ارتدت اللباس القروي واعتمدت

أن تظهر به فاتنة جميلة تحسبها ابنة العشرين زهرة يانعة.. وتذكر ما قصته عليه: كيف أنها عندما مرت بالجوار من العدو تتصنع مرور المسافرين.. وكيف أن أحدهم اعترض سبيلها يطري عليها جمالها وفتنتها.. وكيف أنه تعلق بها عندما صدته بنظرة فيها شيء من القسوة بحيث لم تجعله يفقد الأمل دفعة واحدة ولهذا وقع عراك بينها وبينه هي تشد الحبل تارة وترخيه أخرى وهو يشد به مرة ويرخيه أخرى إلى أن أظهرت مفاتنها لأمنيته بناءً على إلحاحه وليس رغبة منها ولهذا حمد ربحه واستعد لأن يكون طوع بنانها.. تعال إلى هناك.. لا.. هنا ظاهرون.. تعال إلى خلف هذه التلة.. إنه لأمر يؤسف له.. أيضا هنا ظاهرون.. تعال معي إلى الوادي.. وعندما أصبحت بعيدة عن الأنظار في طيات الوادي طلبت منه أن يقدم لها زهرة عربونا للمعرفة بينهما قبل أن تسلمه نفسها: انظر إلى هذه الوردة الزهرة اقطفها وقدمها لي هدية ثمناً لتعارفنا ولما خطا باتجاه الزهرة وقطفها رفعها بيده ودار إلى ربوه ليقدمها لها.. لكنه كان مسكيناً لأنه وجد نفسه وجها لوجه مع فوهة مسدسها الغاضب الحاقد الذي لن يتوان عن أن يصرخ

بوجهه صرخة يسكته بها إلى الأبد لو حاول ان يبدي أية حركة أو صوت.. قلب ربوة كالصخر لم تلينه دموع الاسترحام ولا نداءات العطف.. وهكذا اقتادته أمامها وجاءت به إلينا.. هنيئاً لها لقد منحتها القيادة وسام الشجاعة.

كان عندما ينظر إلى ربوة يشعر كأنه يملك سعادة الدنيا كلها.. فقد أضحت تشاركه الخطط وتقدم له آراءها ليتقبلها وتكون فيها مصيبة.

ـ ربوة..

ـ أيها الرفيق.. ما رأيك..

ـ ألم تشتاقي إلى غسان وهيام؟..

ـ هذا الأمر لابد منه.. ولكن لا إلحاح هناك..

ـ لا.. يجب أن تذهبي إليهما..

ـ لا ضرورة لذلك..

ـ أنتِ أمُ يا ربوة.. ثم.. إن كنت تنسين ظروفك.. فإنك ملزمة لأن تقدري ظروف ولديك.. ربما هما بحاجة.. ربما هما إليك مشتاقان.. يرغبان لو يريانك.. وهذ أمر واقع لا محال.

ـ على كل حال.. الوقت ليس مناسباً.

ـ لا.. بل ستذهبين.. إني آمرك.. أمنحك أسبوعاً إجازة.. أيها الرفيق فهد بلغ الرفاق أن ربوه سترحل عنا لأسبوع إجازة.. وبعد أن اجتمعوا الرفاق تابع: استعدا أيها الرفيقان مصعب وشراك لترافقا ربوه إلى خارج الحدود.. أقصد إلى داخل الأراضي السورية.. ستنطلقون من هنا بعد العشاء.. إن كان أحدكم أيها الرفاق من يحتاج إلى شيء من بلدته فليوصي ربوه.. الوقت ما زال باكراً.. أيها الرفيق سهم ألا تريد من أهلك في دمشق شيئاً؟..

لم يكن أدهم يحب دقيقة تبتعد بها عنه حبيبته ربوه ولكن.. هذا لا بأس ولو سيكون على حساب شقوته بفراقها.. إنه سيستوحشها حبيبة ورفيقة بطلة.. ولهذا لم ينسَ أن يهمس في أذنها: إياك أن تتأخري فأنا تعودت الفداء أنيساً بجوارك.

قضت عايدة مدة إجازتها مع ولديها وشقيقتها نعيمة وبعض أقربائها وجيرانها الذين كانوا يأتون لزيارتها بشيء من السعادة لكنها لم تكن كاملة.. فكم وجدت نفسها مضطرة لأن تجيب على كثير من أسئلتهم وأن تجادل بعضهم بصحة الطريق التي تسلكها.. وكم غضبت

واستهزأت بآخرين.. وكم تمنت لو أنها تثق بولديها المقدرة.. لكانت تدعوهما لأن يكونا رفيقيها إلى الجهاد.. فهي لم تتوانَ أن تدعوا كل من تعرفهم وقادرين إلى أن يكونوا رفاقاً لها.. وكم كانت تحتمل هزأ البعض وسخريتهم.. ثم إن سعادتها لا تكتمل إلا بجوار حسين وبتجاوبها مع ما آمنت به جهاداً في سبيل القضية.

فقد كان التفكير يخيم على حسين وعايدة كل الوقت.. لا يغيب أحدهما من مخيلة الاخر.. فكم مرة تصورته وأنست بخياله يتحرك ويمشي أمامها ذهاباً وإياباً.. يشرح لها ويؤشر بيديه.. ثم لا يلبث أن يقف وينظر لها بتعجب لحظة وتتحول نظراته إلى نظرات حب يبديها من عينيه الوسنانتين.. ولكنه أخيراً يحاوص بعينيه فجأة ليعود لما كان يحدثها به.. وكم تذكرت عبارات الغزل الصادقة الخارجة من أعماقه والتي كان يقدمها لها.. ثم قبلاته الندية الدافئة.. إنها يجب أن تعود إليه.. ولكن هناك سراً خفياً تجهله.. عذبها كثيراً عندما كانت تتصور أنها ستفارق أسرتها عما قريب وكان عقلها الباطن يدرك أنها المرة الأخيرة التي ستلتقي بها مع أسرتها حيةً ترزق.

أما حسين.. فبعد أن ودع عايدة عاش أيامه السبعة على غير عادته من الضحك (والفرفشة).. تعذبه في أعماقه صورته أمام المرآة عندما ينظر إلى نفسه ليرى وجهه القبيح الذي شوهته الحرب.. وليزداد في روحه الحقد والغضب وليتساءل هل ما زالت عايدة تحبه وتأنس لهذا الوجه المرعب المخيف.. إنها لم تبدِ أي شعور إلا شعور الحب والتقدير.. آه كم هي كبيرة القلب.. صادقة الحب.. إنه لا يعلم شيئاً يستطيع أن يقابل فضائلها به.. إنه فقير بكل مادة ومعنى تجاه ما يريد.. إنه لا يملك سوى قلبه وروحه ونفسه لهذا تعهد في سره أن يقدمها شطرين لها وللوطن.

ودّعت عايدة أسرتها ويتعامل في نفسها صراع عميق بين شوقها لحبيبها ولرفاقها وبين صعوبة الفراق لأهلها وحزنها الذي لم تكن تعلم سببه.. لمست البؤس في روحها.. لقد كاد أن يخنقها ولكنها لم تعدل بل ودعتهم واثقة مظهراً رافعة الرأس شامختة.

لم يلتقِ أدهم بربوة ولم تندفع إليه لفراقهما الطويل كما تفعل بعد فراق هذا الأسبوع.. لقد كان لقاؤهما وكأنهما تفارقا سنيناً.. لقد كان لقاءاً أظهرا به كل

حبهما وشوقهما ولوعتهما من الفراق.. لقد كان الرفاق يقدرون هذا الحب فملكت عليهم مشاعرهم وحافظوا عليه مخلصين يرعونه بإيمانهم وحبهم للزوجين الرفيقين.

واستمر النشاط يزداد ويتتابع والعدو يولول ويهدد ويستغيث.. لقد كانت أخطر عملية قامت بها ربوة ونجحت بها مع رفاقها نجاحاً باهراً وكان لها بذلك الفضل بالنصر المبين واليد الطولى والباع الطويل.. لقد كلفت بمهمة استطلاع في عمق دفاع العدو.. في عمق فلسطين المحتلة.. وعلى العادة كانت ترتدي لباس القروية.. واستطاعت من خلف إمكانياتها العقلية والفكرية ومن خلف نشاطها الجسدي الروحي أن تقف على عدة أسرار أفادت منها خير إفادة.. ومن الأسرار التي اكتشفتها معتقلاً سرياً للفدائيين الذين كانوا يقعون في قبضة العدو وبعد عراك معه.. واستطاعت مع رفاقها وبقيادة أدهم أن يحرّروا المعتقلين وأن يأسروا الحراس والجلادين يعودوا إلى مكمنهم دون أن تقابلهم أية صعوبة إلا خشية قلوبهم وخوفهم من أن يعترض عدو طريقهم.. كانت نتيجة ذلك أن أمرت القيادة بأن تتحمل ربوة قيادة المجموعة ولهذا أصبحت رئيسة على

أدهم ورفاقه.. فلم يتذمروا بل على العكس تلبسهم الفرح وشربوا نخب ذلك إبريقاً من الشاي.. والوحيد الذي لم يرغب لذلك هي لأنها لم تفكر حتى ولم تحب أن تكون زعيمتهم وخاصة بوجود حبيبها الذي كان قبل هذا الأمر زعيمها وزعيمهم.. وإنه لنعم الرفيق وهم أيضاً.

لم يكن منظر أدهم يعذب ربوة ولا يشقيها.. حتى ولم يدفع في نفسها العطف أو التوجع لأنها كانت تحس بأنه ليس بحاجة للعطف أو للرأفة بل على العكس كان يملأ نفسها الإكبار والإعجاب فهي لم تشعر يوماً أن أدهم وقف أمامها بائساً يشكو قبح وجهه.. وكانت لا تفسر ثورته وحقده على العدو إلا دوافع حب الوطن والانتقام لأهل هذا الوطن.

من يتسلم القيادة حقاً عليه أن يكون أهلاً لها حكمة واتزان واستقامة.. ولهذا لم تكن عايدة تفرق بين أدهم ورفاقه إلا في قلبها وعند الخلوات.. وكم حاول أدهم أن يحتج على ذلك بينه وبينها أو بينه وبين نفسه فيتذكر حبه.. حب عايدة له.. وقلبها الكبير.. إخلاصها له.. وللقضية.. فيواسي نفسه ويعدل عن أفكاره ليظهر بشوشاً

مرحاً دائماً.

ـ رفيق أدهم.. إليّ بك قليلاً.. إنني أريد خارطة المنطقة التي تقع على يميننا.

ـ الغاية؟.. يا رفيقة.

ـ إنني أريد أن أدرس مستويات الجبل الذي يقع على يسار المدينة ولأعين عليها نقطة وقوع المعسكرات.

ـ يا رفيق سهم.. أين وضعت الخارطة رقم /6/ التي كانت معك الليلة؟.

ـ إنها في الجعبة أيها الرفيق أدهم.. سأحضرها لك.

وفرشت ربوة الخارطة على الأرض بعد أن جمعت الرفاق حولها.. وراحت تتعاون وإياهم على توجيهها ودراسة المستويات والتعرف على المنحدرات والمسيلات وعلى التلال الصغيرة الكائنة بين سفوح قمم الجبل المتناثرة وعلى الوهاد: هنا قمة الجبل.. على اليسار وهدة صغيرة.. يليها مرتفع بسيط.. وإلى الشمال يقع المسيل الكبير الذي ينحدر إلى الوادي.. هذا هو المسيل.. هل لاحظتم؟.. على يمين القمة أيضاً وهدة لكن كبيرة.. أكبر من الوهدة التي تقع على يساره.. يليها تلة أقل ارتفاعاً من التلة التي على يسار القمة..

أيضاً.. إلى اليمين واليسار تقع وهاد صغيرة وتلال صغيرة.. لو تطرفنا إلى أقصى اليمين.. يمين الجبل.. هل لاحظتم؟.. هل تلاحظون؟.. نشاهد أن الانحدار هنا خفيف وبسيط وفيه مسيلات كثيرة.. هذا مسيل.. وهذا مسيل.. وهذا مسيل.. أما لو تطرفنا إلى أقصى اليسار.. نشاهد أن الجبل ينحدر نحو السهل قاسياً حتى يلامس النهر تقريباً.. ليس من تلة نشاهدها إلا هذه التلة التي تقع إلى الأمام باتجاه المدينة.. إنها منتظمة الارتفاع.. وهذا ما تدل عليه خطوط التسوية.. انظروا كيف هي بشكل دوائر منتظمة تقريباً.. إلى الأمام منها ينحدر الجبل سفحاً شديد الميل.. لا يوجد به تعاريج ولا مسيلات.. أعتقد أن الجبل لا يخلو من الشقوق الصخرية.. أعتقد أنه يصلح للعمل.. على كل حال سنستطلعه هذه الليلة.. سنحدد على الخارطة جميع أهدافنا.. سيرافقني أدهم وقعناس وجلمود.. سننطلق في منتصف الليل قبل وقوع القمر بحيث نصل إلى القمة عند الشعاع الأول له.. سيساعدنا ضوؤه على رؤية الأهداف.. الرفيق قعناس يجيد تقليد أصوات الحيوانات.. ينطلق أمامنا لمسافة مئتي متر.. إشارة الخطر.. يعوي عواء الثعلب

مرتين الأولى قصيرة والثانية طويلة.. من له اقتراح؟..
استفهام؟.. ماذا أيها الرفيق قعناس؟.

- ربما نضيع الطريق أيتها الرفيقة.. المسافة بيني وبينكم كبيرة وخاصة أن ضوء القمر سيكون متأخراً والظلمة سوداء.. أرى لو نحدد مسيرنا وكيفيته قبل أن ننطلق.. وأعتقد: أنه خير لنا لو نقصر المسافة بيننا.. فتكون خمسين متراً أو أقل.. الرؤية ستتضارب علينا إن كانت أكثر من ذلك.. ماذا رأيت أيتها الرفيقة؟.

- الحق معك.. نحن سنعين الطريق المتبع.. أما المسافة.. فلا يمكننا أن نقصرها.. فنحن بحاجة أن ننجز المهمة.. وهذه المسافة ستكون حيطة لنا.. نحن سنستفيد من تقليدك صوت الثعلب إذا واجهك أي خطر.. انظر معي إلى الخارطة.. هل ترى هذه التلة الصغيرة.. تنطلق على يمينها.. بعد أن تجتازها تواجهك تلة أخرى.. تتابع سيرك على يسارها.. تلاحظ على يسارك وهدة قليلة الانحدار يليها ميل جبلي خفيف الانحدار.. تأخذه مواجهة.. عندما تصبح على قمة التلة تنتظرنا هناك.. هناك سنحدد الطريق الذي سنسلكه إلى قمة عالية.. قمة الجبل.. فنحن سنصبح وجهاً

لوجه معها هناك.. عند قمة التلة.. غيره؟.. من عنده أي اقتراح؟.. إذاً اتفقنا.. آآ.. الآن هلمّوا بنا إلى تناول العشاء.. لقد صنعت لكم أرنباً وثلاث أفاعي.. لقد عاونني الرفيق صقر بصناعته وبعمل (الكرابيج).. يجب ألا نذهب قبل أن نكون ممتلئي البطون.. خذ أيها الرفيق صقر عشاءك واذهب لتحل محل رفيقك نمرود في حراسته.. ابعثه ليتعشى.. بعد العشاء سنستريح.. كل من سيشترك بالمهمة عليه أن يذهب إلى النوم ليستريح.

وانطلق قعناس يتقدم رفاقه يستمد الصبر على مخاوفه من عزيمته.. لقد سبب له انفراده وحشة ضاق بها زرعاً.. لكن إيمانه بالقضية ومراعاة لظروف المهمة التي أوكلت له.. مشى منصاعاً بكل رغبة ورحابة صدر مقتلعاً الخوف من أعماقه ماضياً بكل عزيمة ونشاط.

سار على الطريق الذي رسمته له ربوة ولم يحد عنه قيد أنملة.. لكن قيامه بمهمته على أحسن ما يرام من مراقبة وتصنت ضيعت عليه قياس الزمن والمسافة ولم يشعر إلا وهو يصعد التلة.. هنا شعر أن المهمة صعبة والمراقبة شبه مستحيلة ولهذا اعتمد على تصنته متسلقاً

التلة على الأربع.. وكم جفل من وشوشة بعض الأعشاب التي كان يداعبها الهواء.. لكنه أنس لذلك بعد لأي وتابع مهمته يعطيها عزمه وإيمانه.

لما وصل إلى قمة التلة تسلق الأرض وراح ينظر في جميع الجهات.. ولكن الرؤية.. كانت صعبة جداً.. ولقد كانت الوديان والوهاد الصغيرة من حوله مغلفة بغطاء من الظلام الداكن الأسود.. وحاول عبثاً أن يرى شيئاً من حول التلة.. لكنه لم يستطع أن يرى إلا السواد.. لقد استطاع أن يرى قمم التلال السوداء البعيدة والقريبة ولكنه لم يستطع أن يرى ما قبلها.. ولم يستطع أن يرى رفاقه إلا بعد أن أصبحوا قريبين منه.. من قمة التلة التي يتسلقها.. فبانوا له أشباحاً تتمايل يميناً ويساراً.

وحمد الله.. فقد فاز بالمرحلة الأولى.. لكنها هاجمته احتمالات سيئة عند تفكيره بالمرحلة الثانية.. إنها صعبة.. ربما وربما.. ما الفائدة.. إنه لا مفر ولا يأس من التنفيذ.. وصل إليه رفاقه وأنس بهم وكأنما انتشل من بئر عاش فيها سنيناً.. ولكنه لم يطل ولم يتجاوز عدد أصابع اليد دقائقاً حتى طُلب إليه الانطلاق لتنفيذ المرحلة الثانية من

المهمة على أن يأخذ خطاً مستقيماً يسيره الى القمة العالية حيث سيتربص هناك إلى أن يلحق به رفاقه.. فهم سيسيرون متبعين خطاه.

لقد كانت الفرحة عظيمة عندما وصل برفاقه إلى قمة السلامة وذهب عنه خوفه ووحشته.. وولّى عنه الثقل العظيم الذي كان يحمله (المهمة).. وكم كان اغتباطه شديداً عندما وصل إليه رفاقه وراحوا يتسلقون الأرض على يساره ويمينه.. فقد كانت ربوه أول من تسلق الارض على يساره ثم وضعت ساعدها الأيمن على كتفيه وراحت براحتها اليمنى تربت على كتفه الأيمن.. لقد جعلته هذه الحركة من ربوه ينسى جميع ما قاساه وما كابده.. فقد أحس أنها أماً تغسل الهموم والشقاء وأيقن انها رفيقة مثلى ولا أخلص.

بعد أن استراحوا قليلاً وخفتت تنفساتهم من شهيق وزفير قالت ربوه.. لقد بقي لبزوغ القمر نصف ساعة تقريباً وهذا وقت أكبر من تقديرنا فقد توقعنا أن نصل التلة عند البزوغ.. إننا لن نستطيع أن نعمل شيئاً.. لأننا لا نرى شيئاً وليس لنا الآن إلا المكوث حتى يتكرم علينا القمر بأشعته.. إننا سنحتاج لأكثر من ساعة هنا حتى يصبح نور

القمر كافياً للمساعدة.. التلة هنا لا تصلح للعمل لأن حركة الهياكل والأشكال على الذروة تمكن من الظهور.. وربما الانكشاف.. يمكننا أن نتمركز إلى الأمام قليلاً بحيث نبتعد عن الذروة.. الآن؟.. نبقى هنا للمراقبة.. فليختص كل منا في جهة يراقبها.. ولا حركة.. بعد أن يأخذ كل منكم اتجاهه.. أدهم خذ اتجاه يسارك.. جلمود خذ اتجاه يمينك.. وأنت يا قعناس اتجه إلى ورائك.. أية شكوك من أحدكم في مشاهداته؟.. يضرب حجراً أخر لتكون إشارة للبقية بذلك.

بعد أن أخذ كل اتجاهه زحفت ربوه قليلاً الى الأمام ثم استوت وراحت تتقدم مقصية الى أن بعدت قليلاً.. ولكنها لم تلبث أن عادت وأخذت مكانها السابق تشارك رفاقها مهمة المراقبة.

راح شعاع القمر يؤنسهم ويبعث في نفوسهم الطمأنينة شيئاً فشيئاً حتى ملأ الكون بنوره وانعكست أشعته على صفحة دنياهم يدلهم على ما يبتغون.

عندما ضربت ربوه حجراً بأخيه زحفوا إليها جميعهم وشكلوا معها مروحة مركزها رؤوسهم وقوسها أقدامهم..

قالت ربوه: أنا وأدهم وجلمود سنزحف إلى مكان قريب هنا.. هنا أمامنا.. لنعمل منه.. وأنت أيها الرفيق قعناس.. تبقى ثابتاً بدون حراك إلا في قليل من رأسك حيث تتلفت به في جميع الجهات.. تراقب وتكون نابهاً يقظاً جداً.. الإشارة كما اتفقنا عليها سابقاً وهي أن تقلد عواء الثعلب.. إذا لا سمح الله ودوهمنا.. تنسحب أنت بعد إعطاء الإشارة.. لا تنتظرنا.. فنحن سنلحق بك عاجلاً أم آجلاً.. إياك واستعمال السلاح.. إلا في حين لا مفر لك.. فهمت.. حذار.. حسناً..

وفتحت ربوه الخريطة وحاولت مع رفيقيها جاهدة أن تتعرف معالم المنطقة.. لكنها لم تستطع أن تتبين منها سوى خربشات لا معنى لها.. ولهذا طوتها قائلة إنه لا يمكن الاستفادة من استعمال الخارطة في هذا الليل.. اننا بحاجة إلى خرائط فوسفورية.. سنتدبر الأمر في المرة القادمة.. أما الآن فلا بأس.. إن الأهداف مرئية.. انتبهوا.. غداً سننقسم إلى مجموعتين.. إحداهما تتمركز خلف التلة التي على اليمين تلك.. هل تشاهدونها.. حسناً.. والثانية أمامنا عند ذاك السواد الرفيع.. إنه شق ضيق.. وليذهب اثنان منا.. والأحسن أن يكونوا ثلاثة.. ليتربصوا قرب ذلك المعسكر..

على الطريق المؤدية له.. المجموعة الأولى والثانية.. ستقومان بقذف المعسكر من مكان تربصهما بواسطة الهاون والصواريخ.. أما الثلاثة الذين سيتربصون على طريق المعسكر.. فسيحمل أحدهم القاذف الـ ر ب ج والآخرون.. كل بندقية رشاشة.. سنكون هنا عند صلاة العشاء.. يذهب أدهم مع اثنين الى مكان التمركز.. قرب المعسكر.. وسيكون مسلحاً بالقاذف.. سأذهب أنا إلى التلة اليمينية وبرفقتي مجموعة.. ويذهب جلمود إلى الشق وبرفقته أيضا مجموعة.. هنا ربما نقع بخطأ التقدير لأننا ربما نبدأ بالرمي قبل أن يصل أدهم ورفيقاه إلى مكان تربصهم.

ـ ما رأيك أيتها الرفيقة لو أذهب الآن.. إلى هناك.. تنتظروني هنا حتى أعود.. أقدر الزمن الذي نحتاجه للوصول.. كوني أحد الثلاثة..

ـ إنها فكرة حسنة.. لكنها تحتاج إلى أكثر من واحد ولهذا تكون العملية صعبة وربما تكشفان..

ـ لا.. لا عليك.. أذهب لوحدي متوكلاً على الله.. إنني لن أتأخر.

ـ انتظر.. حسناً.. قبل أن تذهب أكمل شرح العملية.. هل تدري مهمتك؟..

ـ أعتقد.. عندما تتأكدون من تربصنا ستبدؤون بالرمي على الهدف.. في هذه الحالة ستخرج قوة من المعسكر.. تمام.. طبعاً تقصد النيل منكم.. عندئذ سأوجه قاذفي إلى المدرعات القادمة.. وسيمطران رفيقاي من سيترجل منها بوابل من بندقيتيهما.. وبهذه الطريقة سنحمي انسحابكم.. أما انسحابنا نحن.. سنتدبره.. أعتقد: أنكم لن تستطيعوا أن تقدموا لنا أية مساعدة..

ـ لقد أصبت.. ولكن جاءتني فكرة.. ما رأيك لو تصطحب معك الرفيق قعناس.. في المهمة.. غداً.. وتوفر على نفسك مشاق هذه السفرة..

ـ قصدك؟.. يا رفيقة..

ـ يعطينا عند وصولكم الإشارة.. أعتقد: أنه أسهل علينا وعليك..

ـ ولكن ربما يكشفنا بعوائه..

ـ لا.. لماذا.. نحن لن نترك لهم المجال.. للتقدير.. سواء كشفنا أم لم نكشف.. الرمي سيكشفنا آخراً.. عند

تنفيذ المهمة.. إنه أمر لا بد منه..

ـ لا أيتها الرفيقة.. نحن سننكشف.. هذا صحيح.. ولكن ربما ننكشف نحن قبل شروعكم بالمهمة.. وبهذه الحالة ستضيع علينا مهمة حمايتكم.. ثم.. ربما لا تسمعون عواءه.. ونكون بهذه الحالة أيضاً بددنا الوقت.. وبدون فائدة.. إنه لأخير لنا أن أذهب وحيداً.. سأقدر الزمن والمسافة.. أنا قلت لكم: لن أتأخر.. خاطركم.. أنتم لا عليكم إلا الدعاء لي بالتوفيق.

ـ حسنا.. كما تريد.. مع السلامة..

قضى جلمود وربوة وقعناس المدة التي غابها عنهم أدهم صامتين إلا بينهم وبين نفوسهم.. ربوة وجلمود يبتهلان صامتين: أن يعود أدهم ناجحاً وبسرعة.. أما قعناس.. فإنه لم يدر شيئاً سوى أنه رأى أحد الأشباح الثلاثة راح يبتعد عنه منحدراً في السفح وما برح يراقبه ويتساءل السبب حتى غاب عن نظره تماماً.. وكم اشتاق أن يكون قريباً من ربوة ليسألها.. لكن عليه أن لا يترك مكانه.. ولهذا كانت أمنيته في مهب الريح.. وقضى وقته صابراً ضجراناً إلى أن رأى الشبح يعود ثانية صاعداً باتجاهه.. وانفرجت أسارير

ربوة وجلمود عند ما عاد أدهم ولم يتأخر.. وبعد استراحة بسيطة قالت ربوة: لقد حان وقت العودة.. الصباح أصبح قريباً.. سنحتاج إلى وقت من الراحة.. ثم.. إنه علينا أن نشرح للرفاق الوضع والمهمة.. وعلينا توزيعهم.. ما رأيكما.. لو نؤجل التنفيذ إلى ليلة ما بعد ليلة الغد.. إذن هيا بنا الآن..

عندها راحت الانفجارات تتوالى مسرعة تملأ جو المعسكر وأرضه وقلوب القائمين رعباً وغباراً وتدميراً ولهذا اندفعت فلول الأعداء تعرقل بعضها بعضا لأنهم راحوا يتصادمون مضيعين اتجاهاتهم من الرعب الذي سبب لهم الفوضى والجزع.

وكم شعروا بالأمان عندما أصبحوا في عرباتهم منطلقة باتجاه الويل الذي نزل عليهم بغتة وكان من وراء عرباتهم بعض الدبابات.. ولكن كم هم مساكين؟.. لأن اطمئنانهم على قيد مئة من الأمتار قد ولى وحل محله الموت الزؤام الذي كان الخوف أهون منه وألذ عيشاً لهم..

- انظر أيها الرفيق أدهم.. ها هم يخرجون من باب المعسكر مسرعين.. واحدة.. اثنتين.. ثلاثة.. أربعة.. وها هي تخرج وراءهم دبابة.. اثنتين.. لقد أصبحت دبابتين يا رفيق

أدهم.. هيء قاذفك.. هل هيأته؟.. انظر رفيق.. انظر.
- اطمئن أيها الرفيق سهم.. هل لقمتما بندقيتيكما؟.. تمام.. كونا رابطي الجأش.. إن العربة الأولى ما تزال بعيدة.. اقتربي.. اقتربي.

ولما صارت العربة الأولى على قيد أمتار من محاذات أدهم انبعثت من قاذفه لهيب ذو رائحة بارودية عطرة.. فاشتعلت عربة.. ووقف الرتل يكاد يصدم بعضه بعضاً بينما كانت قذيفة ثانية تشق الهواء لتفجر الدبابة الثانية في آخر الرتل.. وحام غراب الموت يجمع الأرواح ويلقي بالأجساد على الأرض رخيصة حقيرة.

ونجح الأبطال الثلاثة نجاحاً باهراً.. فأزهقت أرواح الأكثرية من الأعداء ودمرت الدبابات والعربات جميعها.. وانسحب الأبطال الآخرون ورماة الهاون والصواريخ مطمئنين سالمين إلى قاعدتهم.. لا يشوبهم إلا تفكيرهم بمصير رفاقهم الثلاثة.. لهذا اجتمعوا يترقبون رفاقهم صامتين لا يتفوهون بأية كلمة إلا بالدعاء لهم بالعودة سالمين.. وبهذا سيكون النصر باهراً ودون خسارة.. وتلاحقت التنهدات وتتابعت وصوت اصطدام ودخان

السجائر على صفحة الهواء.. وكم ازداد هلعهم وخوفهم عندما سمعوا رعيداً يملأ الجو يرافقه دوي هائل في الأرض.. ولهذا خرجوا من مكمنهم مسرعين يستطلعون المشؤوم لكنهم لم يروا شيئاً سوى أن الطائرات المعادية تقذف ما وراء الجبل وقمته بالقنابل اللعينة وتحوله إلى نهار بقنابل أخرى مضيئة.

لم يكن من عادة الأبطال أن يبكوا أو ينتحبوا ولهذا تجلدوا خاشعين.. وبينما هم على هذه الحالة من الابتهال ودعاءات القلوب فوجئوا يقذفون بأنفسهم على أدهم ورفيقه.. والشاطر منهم من قبلهم أكثر أو احتضنهم.. وضاعت آلام الصبر والخوف وراء دموع الفرح والاغتباط.

عندما كانت الضربة على العدو عظيمة القسوة والصعوبة في نتائجها بعد فشل دباباته ومدرعاته قرر أن يلتجئ إلى طيرانه.. لكن الطيران لم يدرك المنطقة إلا بعد أن أضحى الأشبال بعيدين لا يُعرف لهم أثر.. ولهذا راح الطيران يضيء المنطقة ويرمي خيالات الصخور والشجيرات وليحرق الأرض من حولها.. وكم ظن نفسه قضى على هؤلاء الذين أسماهم مخربين.. ولكنه عندما تأكد في

الضحى فشله راح يحمل سورية البطلة مسؤولية أعمال هؤلاء الأبطال ليبرر عدوانه الفاشل أيضاً والذي قامت به مجموعات كبيرة من طائراته المقاتلة والقاذفة.. وكم كاد أن يجن جنونه لهذا الفشل الذريع ويفتح حرباً ربما قدر بها فشله أيضاً فعدل عنها.

لابد للأعمال العظيمة من ثمن عظيم وتتباين عظمتها من تباين أثمانها.. ولابد للجهاد والنضال من ثمن.. فتارة يدفع الأبطال عرقهم وشقاءهم وعذاب نفوسهم.. وتارة يدفعون دماء بعضهم وأرواح بعض آخر.. هنا يتجلى السمو وتتعالى القدسية ويتعاظم العطاء ثمناً لتعاظم النتائج.. فكم حبة عرق وآهات شقي كانت مقدسة لقدسية الإنتاج العظيم التي تبذل في سبيله.

إن البطل المخلص والمندفع المعطاء حباً بالعطاء لا أكثر ولا أقل يتدرج في عطائه يتباين شيئاً فشيئاً.. فتارة يبذل الجهد وطوراً يبذل العذاب والشقاء في كفاحه من أجل غايته.. وإن كان هناك لابد من العطاء فلتكن روحه ثمناً ودماؤه أغنية تحكي للحاضر وللمستقبل عن الماضي وغايته ومصائبه.

عند عطاء الروح التي هي أثمن من كل شيء إلا الحب والحرية لأنهما أثمن منها يجدر التعالي ويصبح المجد الأمثل حقاً للنفس التي وهبت عن حب وإيمان.. إن هؤلاء الأبطال وهبوا كثيراً من عرقهم وشقائهم في سبيل الغاية التي يقتبلونها فنالوا بذلك المجد وتقدير شعوبهم ووطنهم ومنهم من أعطى دمه ووهب روحه فبلغ قمة المجد ونال شرف قدوة شعبهم وتقديسه لهم.

ومن كانت تهمه الغاية المقدسة فلن يهمه الثمن.. ومن يهمه الثمن وصغرت في عينه الغاية انحطّ إلى مستوى الحيوانات الآدمية تقليداً في الأكل والشرب والنوم والجنس.

إن في الإنسان ثلاث مترابطات.. الجسد والنفس والروح.. فالجسد الذي قالوا عنه أنه مكون من المواد الأربعة.. الهواء والماء والنار والتراب.. ووظيفته المحافظة على استمرار الحياة.

أما النفس فهي السّر الرهيب الذي لم يصل إلى كنهه علم ولا معرفة.. هذا السر الذي يجمع عدة متناقضات في الإنسان من إحساس بالجوع والعطش والمرض وحاجة

الجنس ومن شبع وارتواء ومن ثمل وعربدة وضحك وسعادة وشقاء ولذة وتعب وراحة وخوف واطمئنان وما إلى ذلك من مرادفات مما نعيشه ونلتمسه في طباعنا وغرائزنا وما ينقصنا ويزيد عن حاجتنا.

أما الروح فهي القدسية التي ميّز بها اللّه الإنسان عن الحيوان تتركز في قاعدتين اثنتين هما العقل والضمير.

هذه المترابطات الثلاث.. سميت مترابطات لأنها ليس لأحدها وجود أو كينونة دون الاثنتين الأخريتين إلا عند الحيوانات حيث الاثنتين بدون الثالثة.. فإن جاع الجسد أو شبع تأثرت النفس بذلك غضباً وارتياحاً وإذا تألم أو استرخى استجابت شقاءً أو استرخاءً.. أما اذا كانت النفس ميالةً إلى طمع وشر تظهر شراستها في هذا على الروح والجسد فتجهد الجسد وتعذب الروح.. وإن كانت قنوعة ميالة للخير ينعكس ذلك منها أيضا على الجسد والروح فيرتاح الجسد وتسعد الروح.. أما الروح فليس لها سوى مركز التدرج فإن كانت ضعيفة يئست واستسلمت لرغبات النفس تطيعها وتعيش آلامها وسعادتها وإن كانت الروح قوية سادت على النفس والجسد وقادتها إلى المجد

والتعالي ولا ذنب على الروح اذا استمدت قوتها من ثقافة المجتمع أو مما تكتسبه من أحداث الماضي الذي مرت به.. ولكنها تبلغ القمة عندما تتثقف بحضارات المجتمع الانساني عامة والتقيد بأقومها على شرط أن تكون مسيطرة على الجسد والنفس.

من معرفة هذه الحقائق واندفاعاً من هذا المنطق يصبح الأبطال أبطالاً فأرواحهم قد سيطرت على كينوناتهم وقادتها الى التضحية في سبيل السمو والوصول إلى الغاية التي تتجلّى عند الكمال.

ولم تكن ربوه ورفاقها إلا بعض جماعة متدرجة في السمو.. لقد كانت أرواحهم مسيطرة على شمولهم.. لهم من العقول ما يعزون به المثل الصالحة ولهم من الضمائر ما يحكمون بها أنفسهم ولا يستطيعون أن يحكموا بها على أفعال الآخرين.. فاقتنعوا بالتضحية وارتكاب الأساليب المفيدة مما تتبعها المجموعات الصالحة في المجتمع الإنساني قاطبة ومما يتبعونه في عقولهم للوصول إلى غاياتهم أو على الأقل في السير على الطريق إليها.

كانت ربوه تتجول حول أحد المراكز العسكرية.. تستطلع

بعض الأهداف التي كانت ضمن مخطط عمل الأيام المقبلة.. وكان العدو قد أخذ الحيطة من المرة السابقة التي استطاعت بها ربوة أن تأسر أحد رجاله.. فوزع تعميماً على جميع قطعاته يشرح لها الحادث وينوّه إلى اليقظة والانتباه من الوقوع في حادثة مماثلة ويؤكد مراقبة كل عنصر ذكر كان أم أنثى يشك بأمره.. ولهذا عندما كانت ربوة تمشي كالعادة فلاحة ناجحة في إخفاء شخصيتها تبدي اللامبالاة وعدم الاهتمام بما تشاهده وما يجري بجوارها من حركات.

إن النجاح لم يكن دائماً مشروطاً بالربح.. كما أن كثيراً من الأعمال يصادفها الفشل والخسارة معا.. ولهذا جاء الفشل هذه المرة أن يؤكد معها الخسارة.. ولو كان بحد ذاته دعماً أكيداً للنجاح.. لأن كل ضحية تبذل أو أية نقطة دم يجود بها بطل تشكل حجراً في بناء صرح انتصار الأمة من جهة ومسمار يُدق في نعش العدو من جهة أخرى.. لقد شاء أن يوقع ربوة في قبضة العدو على أسلوب لم تكن تتوقعه.. فقد أرسلوا رجلاً يغازلها ويراودها عن نفسها.. يتعقبه اثنان مسلحان يترصدان كل حركة منه ومنها.. من

بعيد.. لقد كان اعتقاد ربوة خاطئاً هذه المرة.. إذ أملت أنها فازت بصيد جديد.. لقد تأكد المراقبان: أنها صائدة الرجال ولهذا عندما أسرت رفيقهما قاطعاً لها الطريق وكمنا لها.. واستطاعا أن يلقيا عليها القبض.. ولكن.. مسكين أسيرها فقد ذهب ضحية مراوغته اذ أصبح جثة هامدة بطلقة واحدة من مسدسها.. ولم ينفعها ما تبقى معها من طلقات ولا القنبلة اليدوية التي قذفتهما بها.. إلا أن هذا العراك نبه الأعداء فتجمهروا ببنادقهم مسرعين.. يظهرون الشجاعة والاقدام والجرأة على امرأة أصبحت عزلاء ونسيت نفسها في غمار المعركة من أن تترك طلقة واحدة تكون خلاصاً لها من الوقوع بين أيديهم.

سمعوا رفاق ربوة طلقات ودوي في الطيات البعيدة ولكنهم لم يعيروه أي اهتمام إلا من قريب في خوفهم على ربوة غير أن ثقتهم بها طمأنت أرواحهم التي أحبتها وتعلقت بها ولو كان الشك ما زال يداعبها.

عاشوا تلك الساعات ينتظرون ربوة على أحرّ من الجمر وكانت بين كل فترة وأخرى يذهب أحدهم إلى الرابية يترصد البعيد ليرى لها أثراً ولهذا راح الشك يقتل

الاطمئنان في نفوسهم شيئاً فشيئاً إلى أن تشاطر الشك واليقين نفوسهم.. وما جاء المساء وغابت به شمس ذلك النهار حتى غابت السعادة من نفوسهم وتلبستهم الكآبة بيقينهم الذي انتصر على شكهم بأن ربوة قد حدث لها أمر مكروه.

أما العدو فقد ظن أنه فاز بصيد جديد.. كان بعضهم يتشدق الابتسامات العريضة وبعضهم ينتظر بخبث المنتصر ممعناً إلى ربوه.. والبعض الأخر يهتف: لقد قبضنا على اللبوة.. لقد قبضنا على النمرة.. كم هي ضبعة لعينة.. لقد وقعت هذه المرة.. أين لها المفر؟.

حقاً.. لقد كانت ربوة وهي بينهم لبوة ونمره يخشاها الجميع.. ترعبهم بنظراتها الغاضبة.. ولهذا عندما كان أحدهم يمد يده إلى شعرها أو إلى عنقها ساخراً كان يمنى بالرد اللعين الذي كان يصعقه ويرعبه.. ولم يؤثر في معنوياتها أو بطولتها صفع أو لكم أو ركل كانوا يغدقونه عليها.

كل ما ذاقته ربوه خارج التحقيق وقبله لم يكن إلا تسلية.. ولكن عند مثولها للتحقيق انعكست التسلية

بها إلى ملاطفة ومؤانسة.

اقتيدت إلى أحد المكاتب ورحب بها ضابط يبدي لطفاً وظرافة ووداعة.. وكما العادة طلب لها فنجاناً من القهوة وقدم لها سيجارة.. لم تكن ربوه قد استعملت الخمر خلال عملها الفدائي.. وبما أن الجرأة وعدم المبالاة بالخوف كانا لها نبراساً فقد تجرأت عندما قال لها الضابط بعد أن أنهت شرب القهوة.. تريدين خدمة أخرى يا سيدتي.. قبل أن نبدأ الموضوع؟.. فأجابت..

ـ نعم أريد قنينة من الخمر.. أروي بها ظمئي.

ـ أمرك.. كما ترغبين.

كاد غيظ الضابط أن ينفجر وكاد حقده أن يحرقه وهو يحاول أن يحدثها وهي ترشف الخمر بهدوء ولا يقبض منها إلا النظرات الهادئة الفاحصة.. وكم كان يشتد غيظه عندما تغض بطرفها عنه بعد أن تكون قد رفعته إليه قليلاً وبإمعان لتعود إلى كأسها.. سأل كثيراً وثرثر كثيراً وكان من اللياقة التحقيقية عليه أن يكون طويل البال وأن لا يظهر أية شراسة.. ولكن أخيراً خرج غيظه عندما فرغت القنينة وقال وديعاً.. هل تسمحين.. لو

نتحدث قليلاً؟.. ولكن جوابها: نظرت إليه ثم غضت النظر عنه بمعنى أنها تسمع ما يقول.. وستستمع.. وستصغي.. ولهذا تابع متصنعاً الصبر والهدوء: ما اسمك؟.. ولما تريثت بالجواب؟ كرّر: ما اسمك؟.. ها؟.

ـ ربوة.

ـ كنيتك؟.

ـ ربوة.

ـ ااه.. إذا هذا اسمك المستعار؟.. أريد اسمك الحقيقي؟.

ـ ربوة.

ـ الظاهر أننا لن نتفق.. وليس خيراً أن تكتمي.

ـ ربوة: ربوة.

ـ هدئي من روعك.. لا تكوني عصبية المزاج.. لن أختلف معك على الاسم.. حسناً.. من أي بلد أنت؟.

ـ عربية.

ـ أفهم ذلك.. ولكن أقصد: سورية.. مصرية.. أردنية.. لبنانية.. عراقية.. جزائرية؟.. يعني: ما اسم القطر حسب مفهومك الذي أنت تقطنينه أو أبواك.. أسرتك؟.

ـ عربية.. عربية..

ـ الآن.. لا بأس.. اسمعي.. إنك امرأة جميلة ولا أحب إلا أن أكون لطيفاً معك.. إننا لن نعاملك إلا المعاملة الحسنة.. نحن نقدر المغرر بهم.

ـ ها.. هذا ما بدا لي من معاملتكم.. الحسنة رفس ولكم طول الطريق وشد بالشعر.. إن معاملتكم حسنة.. هذه هي المعاملة الحسنة.. أليس كذلك؟.. هل لاحظت؟.. ها ها.. ها ها ها.

ـ لا تلوميهم.. هذا هو مفهومهم.. أنا أعتذر لك عنهم.. هل لاحظت.. أننا كريمون؟.. وسترين كرمنا الحقيقي عند إجابتك على كل أسئلتنا بصراحة ووضوح.. فمن أي قطر أنت؟.

ـ عربية.. عربية.. لن تسمع مني غير هذا.. إنها الحقيقة.. فآنا عربية.

ـ لا بأس.. لابأس.. حسناً.. ما دينك؟.

ـ عدالة الانسانية.

ـ أعرف ذلك.. كل الأديان السماوية تنفخ ذلك.. من أي دين منها أنت؟.. مسيحية.. مسلمة.. يهودية؟.. وأعتقد أن هذا مستحيل.. مستحيل أن تكوني يهودية.. أليس كذلك؟..

المهم أي دين أنت تعتنقين؟.. أي دين أنت منه؟.

ـ لست منهم جميعهم.. وأنا منهم جميعهم.

ـ لم أفهم.

ـ إنني اؤمن بالعدالة الإنسانية.. تفيض على بني الإنسان جميعهم مهما كان مصدرها من السماء أم من الأرض.. إنني أحب الناس جميعاً.. وأخدم مبدأ الإنسانية الذي يخدم الإنسانية المقدسة.

ـ تعليل؟.. أو التوضيح؟.

ـ الإنسان.. أخ للإنسان.. وعار على الأخوة أكل لحوم بعضهم.. إنني ضد الظالم والمعتدي.

ـ بما أننا.. على سبيل الذكر أنك إنسانية.. فهل تترجمي عدائك لنا؟.. نحن بعض هذه الانسانية أيضاً.

ـ نعم.. إنكم جزء من الإنسانية.. ولكنكم جزء الشر.. والجزء العدو اللدود لصمود الانسانية.. ولقدسيتها أيضاً.

ـ ألا تظنين أنك تظلميننا؟.. أعتقد : أننا ما أذينا أحداً.

بل أن البشرية بأسرها تشكو قبح أذاكم ولعنته.

لقد كان الضابط الإسرائيلي يغلي كالقِدر ويتطلع بين كل كلمة وأخرى منه أو من ربوة ليقرأ على

الوجوه التي تحضر التحقيق أشياء كانت تبدو في تقاسيمها عند كل كلمة تقولها ربوة.. ومع هذا فقد تصنع الصبر وطولة البال.. أو لعله راق له الحديث.. أو ربما تفاعلت بطويته قابلية التعاطف وتغيير إيمانه عما كان يؤمن به سابقاً.. فأظهر حب الحوار والمناقشة فقال:

ـ إنك تنكرين على اليهود حقهم في فلسطين أرض أباءهم وأجدادهم.

ـ إننا لا ننكر على عربي حق الحياة في أرض أبائه وأجداده.. وفلسطين جزء من الأرض العربية لا يتجزأ ولن يتجزأ مهما كان الثمن.

ـ أحسنت.. إن العرب واليهود أبناء عم.. لقد كانوا يعيشون متجاورين في هذه البقعة من العالم.. ولهذا فأنت توافقين على أن لنا الحق.. كل الحق.. في إحياء دولة بني إسرائيل؟.

ـ إنك تغرق نفسك في مغالطات لغوية لا ترتبط مع بعضها بأي رابط مطلقاً.. إنك تقول: إن العرب واليهود أبناء عم.. لقد نسيت أو تناسيت: إن العرب أمة لادين لها.. لها من المقومات الثابتة ما يدعمها ويعيش فيها قوم هم من قومية واحدة متفقة المشاعر والأمانة.. ويدينون بجميع الأديان..

منهم المسلم ومنهم المسيحي ومنهم اليهودي ومنهم المجوسي.. ولكنهم جميعهم عرب.

ـ أحسنت.. أحسنت.. ها نحن يهود.. ونريد أن نسكن أرض أباءنا وأجدادنا.

ـ لا.. أنت.. أنتم لستم عرباً.. لو كان لكم الحق فيما تدعيه أنت وجميع اليهود الغازين لهذه الأرض العربية لكان على الإسلام جميعهم أن يتركوا بلدانهم ويهاجروا إلى مكة.. ولكان على المسيحين أن يتركوا مدنهم ويهاجروا إلى مهد المسيح.. وهكذا يصبح العالم بكثرته وعدده يأكل بعضه بعضاً والحياة للأقوى في هذين المنطقتين من العالم.. مهد محمد ومهد عيسى.. ولتخل بقية الدنيا من السكان.

هل لاحظت؟.

ـ إذا.. اليهود بنظرك كلاب؟.. كتب عليهم التشرد.. وعليهم أن يحافظوا على هذا التشرد؟.

ـ اسمعوا للملعون.. لا.. إن اليهود ليسوا كلاباً.. ولم يكونوا مشردين.. على العكس إنهم الأغنى في هذه الدنيا.

ـ قصدك؟.

ـ إنني سأطيع تغابيك.. لقد كان اليهود في العالم يعيشون سعداء مسرورين يعيشون في بحبوحة في أوطانهم التي هجروها.. لكنكم سممتم بشعاركم الكاذب عقولهم.

ـ من تقصدين؟.. من نحن؟.. الذين سمّمنا عقولهم.

ـ الصهيونية.. أنتم الصهاينة لقد غرستم في عقول اليهود الآمال البراقة حين العودة إلى أرض الميعاد التي زعمتموها لهم كذباً ورياء.

ـ لاا.. لقد تماديت.. لقد أسأتِ إليّ أكثر من مرة.. لقد احتملت منك كل هذا.. كل ما فات.. لكن.. أن تقولي: أننا نزعم كذباً.. فهذا.. ولكن لا بأس.. ولأثبت لك طيبتنا وحسن معاملتنا.. سأصفح عنك.. لكن لن أسمح لك أن تجرحي شرف اليهود مجدداً.

ـ أنا لا أجرح شرف اليهود.. وإنما أعتبر اليهود أناساً أبرياء وقعوا ضحية التشويق والترغيب وتضليل الحقيقة في مفاهيمهم.. لقد وقعوا ضحية المخدر والأفيون الديني الذي رويتموهم به.. لقد أراد الاستعمار أن يجند جيشاً ضخماً يكون طوع بنانه.. ليعسكره في هذه البقعة من الأرض وليسيطر به على جميع مقاديرها.. بشرط أن يكون له في

ذلك مبرّر.. ولهذا لجأ إلى أليفته الصهيونية ليجعل من اليهود جيشه المأمول.. هم يدفعون الثمن.. أقصد اليهود الأبرياء.. وللصهيونية جني الأرباح.. إن الاستعمار لن يهمه لو مات يهود أو مسلمون أو مسيحيون.. بل يهمه الربح.

ـ إذا نحن اليهود بنظرك أبرياء مساكين؟.

ـ نعم.. لقد استطاعت الصهيونية أن تهيج عطف اليهود الديني لتستغلكم به لمأربها.

ـ إذا لماذا تريدون ذبحنا.. قتلنا.. طردنا؟.

ـ لا.. إننا لم ولن نرد لكم ذلك.. بل أنتم الذي أردتموه لأنفسكم.. إننا نريد أن نحرر وطننا من الاستعمار والغاصب.. كما أننا نجاهد في سبيل تحرير الإنسانية من الطغاة والإمبرياليين.. في أي بقعة من العالم كانت.. إننا لنشارك النضال رفاقاً لنا ثائرين للتحرير من أعدائهم.. أعدائنا.. أعداء الإنسانية. ومن مستثمريهم في بقاع العالم الأخرى.. إنني لا أفرق بينكم وبين أي عربي أو غير عربي من جميع الأرض هو عدو الإنسانية والشعوب.. ارحلوا عن أرضنا.. اتركوا لنا وطننا.. عودوا إلى أوطانكم لتناضلوا بها من أجل الإنسانية.. آخونا نؤاخيكم.. عندما تتصادق

الشعوب لا يكون للدين أية دعامة من دعائم صداقتها.. إن الكادحين مهما كان دينهم أو بلدهم هم دائماً اللذين يدفعون الثمن من أجل المثل العليا التي تحلم بها الإنسانية.. كادحوا اليهود.. هم الضحية في فلسطيننا.. وهم وحدهم يدفعون ثمن جريمة الاستعمار.. نحن لا ذنب علينا.. إن ذنبكم عليكم.. ذنبك أنت.. أنت يهودي؟.

ـ نعم.. أنا يهودي.. وإن لا.. فماذا أكون؟.

ـ لا.. إنك صهيوني أو يهودي ضعيف.. بعت كرامتك للصهيونية أو للاستعمار.. وهكذا أنت تبعي.. إن كنت يهودياً حقاً.. عليك أن تجسد الوضع والحقيقة لأبناء دينك أو لأبناء وطنك الذين هاجروا معهم منه.. أو على الأقل.. لنفسك.. انظر.. وعلمهم أو حاول أن تعلمهم لأن ينظروا معك بالعين السليمة لتروا الحقيقة واضحة كالشمس متجلية.. إن الحقيقة واضحة أيها المظلوم وضوح الشمس.. هل لاحظت؟.. الآن تدرك من هو المغرر به.. أنا أم أنت؟.

ـ ما هي الحقيقة من وجهة نظرك؟.

ـ الحقيقة أيها المغرر به.. أن الاستعمار سينتهي من الدنيا كلها.. ولكن الثمن لانتهائه في هذا الوطن سيكون

غالياً.. غالياً جداً.. خلافاً لانتهائه من أي بلد آخر.. سيدفع الثمن اليهود الأبرياء.. على نفسها جنت براقش.. أعتقد أنك سمعت هذا المثل من قبل؟.. فأنت تجيد اللغة العربية.. إنك لو تمعنت النظر لحكمت: أن العرب أو على الأصح الكادحين العرب.. ليسوا مسؤولين عن فنائكم الذي ابتغيتموه.. لو أدركت الحقيقة لعلمت أن اللعين هتلر تآمر مع الصهيونية.. ليضغط على الكادحين اليهود وليلزمهم مع الدعاية التي نفخت أبواقها الصهيونية للهجرة إلى هنا.. إن اللعين هتلر لم يذبح ولم يقتل ولم يطرد من اليهود إلا الكادحين.. وها أنت ترى كيف أن الاستعمار والإمبريالية الصهيونية استطاعا أن يشكلا من اليهود جيشاً قوياً يخدم مصالحهما وأهدافهما.. لقد عبأت به جميع اليهود في هذا البلد والمهاجرين إليه.. ولكن.. وهذا أمر لابد منه.. إن خدمته لهما ستكون إلى حين.. لأثبت لك أن الجيش الذي صنعاه كان ليخدم مصالحهما.. أعتقد أنك تتذكر حرب السويس؟.. عام /1956/ ستتذكر حينها إذا كنت في جيش الصهيونية. اهرب.. ارحل.. ارجع إلى وطنك لتعيش به مطمئناً مسالماً.. أنقذ معك آخرين.. فالدائرة تدور والعجلة

تسرع ومسمار الأمان على قيد زمن قصير قد يتحطم.. ستكون سخيفاً لو فكرت أن القضية تنتهي بقتلي أو بقتل الآلاف.. إنك.. يا.. لن تحصد إلا الهواء.. إلا المآسي.. والنهاية للاستعمار محتومة.

ـ أعتقد أن محاضرتك قد انتهت.. وقد عرفت هويتك ودينونتك.. وأعتقد أنك لن تستطيعي القول: بأنني ما كنت كريماً معك.. ومتسامحاً.. لقد كنت رحب الصدر لكل ما قلتيه.. لكل محاضراتك.. ولهذا عليك.. أن تقابليني الحسنى بالحسنى.. إنني سأتنازل عن جميع الأسئلة والاستفهامات إلا أمراً واحداً.. وهو ذو شقين لسؤال واحد.. ما قولك؟.

ـ هات.. لنرى.

ـ من هم رفاقك؟.. وأين يختبؤون؟.

ـ هه.. هه.. إن الثعلب مهما بدا لطيفاً لن يستطيع أن يغير هويته.. لقد ظننت بادئ الأمر أنك تتعشق المعرفة.. لقد أفسحت المجال لأتحدث.. لأثرثر كثيراً.. لماذا؟.. إن الحديث الذي لا يجني.. يكون ثرثرة.. كنت تبغي التجسس من وراء الحبل الذي تركته لي بالحديث.

ـ كفى.. كفى ثرثرة.. أجيبي على سؤالي.. وإلا.. اعذريني.. سأكون مضطراً إلى.. أنت تعرفين؟.. إنني لأرجو أن نتفاهم بالحسنى.. إننا لا نريد منك أمراً صعباً.. كما تتصورينه.

ـ لا.. يا.. أهكذا ترى.. إنك سخيف.. أحقاً؟.. إن الأمر ليس صعباً.. كما تتصور.. اسمع أيها الأحمق إن قلت لك: أن لا رفاق لي.. أكون كاذبة.. شيء آخر.. إنك لن تصدقني.. أليس كذلك؟.. ولهذا أخير لك لو توفر على نفسك جهدها.. إذا كان الأمر بسيطاً كما ترى.. فتدبره بمعرفتك.. أنا لن أقول لك: لا أدري أو لا أعلم.. ولكنني سأقول لك: إنني أدري وأعلم.. وإنك مهما جننت أو تواقحت ومهما كنت لئيماً فلن تحصد مني إلا ما قدمته لك.. وهو فائدة غنية لو سلكته.. وأما بالذي يؤذيك ويؤذي رفاقي ورفاقك.. فأنت تحصد الهواء أيها المسكين.

ـ إنني أحذرك.. لنا أساليبنا.. كما قلت لك: إنني لا أريد إرغامك.. ولا استعمال العنف معك.. من أجل الحصول على ما تستطيعين تقديمه لنا دون أي عناء أو سؤال.

ـ احصد الهواء.. احصد الهواء.

ـ كوني حكيمة عاقلة.

ـ احصد الهواء.

ـ إنني أعدك: سأفعل المستحيل وسأبعد الأذى عنك.

ـ قلت لك: احصد الهواء.. احصد الهواء.

ـ إنك يابسة الرأس.

ـ احصد الهواء.

ـ إنك لئيمة.. حيوانة شرسة.. سأربيك.. سأعلمك.

ـ هـه.. فلتحصد الهواء.

ـ إن عيني لم تقع على مثلك امرأة فاجرة غبية.. لا تفهم صالحها.. ولا خيرها.

ـ أنت تعلم من منا الغبي.. احصد الهواء أيها القذر.. قلت لك احصد الهواء.. اصفع مرة أخرى أيها الحقير.. فلن تحصد إلا الهواء.. اسلخ الجلد وكسر العظم فلن تحصد إلا الهواء.. إنك لتفخر بأنك رجل شجاع أمام امرأة عزلاء.. ولكنك سخيف.. لقد نسيت أن الإيمان أمضى سلاحاً.. هه.. احصد الهواء.. ربما تستفيد.. إنه خير لك وأهون.. لو تحصد الهواء.. احصد الهواء.

ـ حسناً.. سنرى.. جدعون.. حايم.. جرّا هذه القذرة إلى البئر.

ـ أوغاد.. كلاب.. حقيرون.. اتركوني.. أذهب طوعاً.. أذهب

بنفسي.. أيها السفلة.

لم ينفع ربوة صراخها.. ولكنه تلاشى عندما أصبحت في غرفة تحت الأرض بعمق لم تقدره لأن عراكها وصراخها مع الشاحطين أنساها عد الدرجات التي نزلتها ولم يبق إلا أنينها وحقدها.

كانت الغرفة التي وضعت بها ربوة محكمة السد ومزلاج بابها أمتن من حصن خيبر.. أضيئت بمصباح كهربائي.. بواسطة قاطعة من الخارج.

قذفاها إلى داخل الزنزانة وأقفلا الباب عليها بعد أن ضحكا باستهتار ضحكة النصر.. وقطع عنها النور أحدهما وعادا مغرورين إلى أمرهما بينما بقيت ربوة في ظلام دامس.. كانت اول عهد لها به.

وترددوا عليها بجميع وسائلهم.. بالتعذيب من جلد ولكم وضرب ومن تنقيع بالماء.. ونتف شعر ومن تقليع أظافر.. ومن كرسي كهربائي تارة ومن الملاطفة والسياسة واستعمال الدهاء الغبي تارة أخرى.. لكنهم ما حصدوا منها إلا العبارة التي كانت ترددها لهم دائماً عند كل سؤال كانوا يوجهونه لها: احصدوا الهواء أيها

الحيوانات.. احصدوا الهواء.. وأحياناً كانت تقول لهم: أيها المساكين.

وإن دل هذا القول على أي شيء فإنما يدل على انعدام الحقد على هؤلاء الذين كانت تسميهم المغرر بهم.

لاحظت خلال إقامتها في البئر أن المصباح يضاء عند وجودهم فقط.. لقد كان يطفأ عندما كانوا يتركونها وحيدة.. ولهذا قالت لنفسها: القذرون.. يتركونني في ظلمة غاشمة.. ويضيئون على أنفسهم.. لا.. يجب أن تعم الظلمة عليهم وعليها.. أو يعم النور على الجميع.. إنها كما ثارت للنور ضد الظلمة في كفاحها خارج هذا المعتقل.. فستثور للنور في هذه الظلمة.. في هذا البئر.. إن هذا البئر الضيق هو الآن نموذج للعالم الخارجي.. إلا أنها في العالم الخارجي كانت تحلم بأن يتحقق النور.. لكنها هنا لا تستطيع إلا أن تحلم بتحقيق الظلمة لها ولأعدائها أو أعداء أمتها.. وكيف ستكسر المصباح؟.. ولكن.. أيضاً كيف؟.. فهو عال.. ولا تستطيع أن تناله.. ثم إنها.. لا تتبينه.. إنها أعمى من الأعمى لأنه لا بصيص ولا خيال من نور.. فالدنيا حولها كلها ظلام بظلام وجدران صماء.. العالم في عينها أصبح ظلاماً.. وفي

ظلام.. لكنها تستطيع أن تحدد مكانه واتجاهه في سقف الغرفة.. إذن فلتقذفه بأي شيء كان لعلها تنال منه وتكسره.. ولكن بماذا؟.. وتحسست حيزها.. ساعة إذن تأكدت أن الغرفة خالية من كل شيء.. لقد جردوها من كل شيء.. وابتأست وكادت أن تيأس وتحكم على أمنيتها بالضياع لولا أنها تذكرت: الوعاء الذي كانوا يقدمونه لها به خليط من الطعام المجوع.

لقد مرت عليها الأيام لا تقدر عليها حساباً.. فالليل عندها لم ينقطع والشمس قد هجرت الشروق.. أو أطمست في البحر بقوة عصا لعينة وحارس ألعن يهددها بالجلد لو تجرأت وحاولت أن تظهر على الكون مرة أخرى.. ولكنها طمأنت نفسها: مسكين هذا الحارس الغبي.. الشمس ستشرق.. ستشرق الشمس ويعم النور الكون والنفوس.

بعد قضاء مدة لا بأس بها عند تحقيق أمنيتها: لقد كسرت المصباح أخيراَ.. صممت أن تنفذ أمنيتها.. فراحت تمسك بالوعاء وتقذفه بعزم وقوة على المكان الذي حددته على السقف وقدرت به وجود المصباح.. ولم تيأس لفشلها عدة مرات بل راحت عند كل رمية تتحسس الأرض لتعثر

على الوعاء ثم تعود لترمي به المصباح مرة أخرى.. وكم ارتد إليها ليصدمها قوياً.. أقسى من الجلادين.. حتى إنه في إحدى المحاولات أصاب منها الرأس فشجه.. ومع هذا فقد خف ألمها عندما سمعت أن المصباح قد تحطم وتهاوى على الأرض متناثراً يختلط صوت تناثره مع صوت قرقعة الوعاء على الأرض.. وعندها ابتسمت حلمت بالحرية.. لكن الحرية مستحيلة.. وجاءتها فكرة من الأعماق: كأن هاجساً يصرخ بها: الحرية جميلة.. الحرية الأبدية خير من الظلام الأبدي.. انفلات من قبضة الكلاب خير من المكوث معهم هنا.. ربما يستفيدون منك آجلاً.. ربما يستعملون معك أساليب نفسية.. أساليب إلكترونية.. إذاً هيا.. هيا إلى الحرية.. انقذي رفاقك.. انقذي معلوماتك.. ولكن كيف؟.. تحسسي حولك.. فقطع زجاج المصباح الحادة القاطعة تملأ الغرفة.. إنه ألم بسيط.. وحرية أبدية.. اقطعي الوريد في معصمك.. وبالنسبة لك سينتهي كل شيء.. لن تحسي بألم الموت لأنه سيتحد معك بطيئاً هادئاً مع تدفق دمك الكريم.. أما بالنسبة لألم الجرح.. فسيكون آنياً وسخيفاً إذا ما قيس بالنتيجة الجلل.. إنها

فكرة رائعة.. خير لهذا الدم الطاهر أن يسفك على الأرض من أن: ربما يمتصونه الأعداء ليحيوا به عميلاً أو مرتزقاً كادت هي أن تقضي عليه.

ومدت يديها الاثنتين وراحت تتحسس أرض الغرفة.. تجمع قطع الزجاج وتختار بينها إلى أن اقتنعت بواحدة أعجبتها.. لم تتردد ولكنها ابتسمت..

قطع ابتسامتها ألم هين عند الأبطال ما لبث أن ولّى لتحل محله الابتسامة والاسترخاء.. ولم يؤثر عليها خوفها للمرة الأولى.. عندما وجدت نفسها تغرق في بحر من الدم.. لم الخوف.. الهدوء الأبدي يقترب مسرعاً..

عندما فتح الملاعين باب الغرفة صدمهم ظلامها ورائحة المسك فيها والسكون.. لا صوت لأنفاس تتردد.. ولا أصوات أنين حاقدة باهتة.. وقدّروا أن في الأمر شيئاً.. فصاح الضابط بجدعون وهو يفتح الباب على مصراعيه لعله يرى شيئاً: جدعون.. لماذا لم يضاء المصباح؟.. أسرع.. تبين سبب العطل.. أحضر مصباحاً يدوياً.. وعندما أدبر جدعون راح الضابط يتطلع بإمعان وهو يهتف: ربوة.. ربوة.. لكنه لم يتلمس إلا بقع ملتوية أشد سواداً من أرض الغرفة.. بينما

كانت ربوة تحلم الأحلام الجميلة وهي في الرمق الأخير سمعت نداء الضابط.. لكنها احتقرته ولم تأبه له.. بل ولى من نفسها الحقد وطمحت روحها للحرية ورثت لهؤلاء الذين عادت لتسميهم مساكين مخدوعين.

بقي عند ربوة قليل من الدم عندما فتح عليها الباب.. ولكنها لم تفكر بمحاولة إنقاذ.. بل حكمت بالنهاية.. الأبدية.. لكن عندما حضر المصباح وبان كل شيء واضحاً اندفع الضابط بكل سرعة ليقبضها من معصمها حيث الجرح بغية قطع النزيف المرهق كأن الشرايين في النضح الأخير.. وفوراً قفزت إلى رأسه فكرة حاسب نفسه بها وقدرها ثم حكم على نفسه بها: إنه هو الجاني.. وتساءل: لماذا فعل هذا؟.. خدمة للآخرين.. أم لصالح المثل الصالحة.. لقد صدقت ربوة: فما حصد منها إلا الهواء.. إنها لجريمة.. جريمة وحشية.. أين الإنسانية؟.. أين تسامي الروح؟.. إنني لن أكون عبداً بعد الآن.. لن أبيع كرامتي بعد اليوم.. ولكن.. كيف سأكفر عن ذنبي؟.. يجب التمثل بتضحية ربوة.. آه.. كم أنت عظيمة يا ربوة؟.. جدعون.. أسرع هات الضماد.. وأنت اذهب إلى الطبيب..

أحضره إلى غرفتي..

ولما خلا إلى نفسه مع ربوة وهو يضغط على معصمها بينما هي كانت تمني نفسها بالفشل بائسة.. فها هي محاولة الإنقاذ تحاك حولها.. هتف: ربوة.. ربوة.. ولما نظرت إليه بعينين وسنانتين.. تابع: اغفري لي يا ربوة.. سامحيني.. إنني أعدك: سأكون إنساناً.. إنساناً مخلصاً.. وهنا ثبتت نظرها به وتدحرجت من عينيها حبات من اللؤلؤ كانت دافعاً للضابط لأن يخفف من عذاب روحه بدموع تركها تجري.. وعندما سمع خطوات تنزل الدرج جفف مقلتيه بمنديله.. فإذا بجدعون ومعه الضماد.. لما تناوله منه قال له: اذهب إلى غرفتي انتظر الطبيب هناك.. جهز المكتب. وهكذا اختلى بربوة مرة أخرى.. قال: اطمئني.. سننجح بمساعدتنا إياك.. لماذا فعلت بنفسك هذا؟.. خيراً.. خيراً إن شاء اللّه.. لا تحزني.. الحمد للّه لقد أدركناك قبل فوات الأوان.. اطلبي مني ما تريدينه.. لعلي أستطيع خدمتك..

أجابت ربوة بصعوبة وبصوت خافت: لا.. دعني أموت.. لو أنقذتني سيستلمني جلاد غيرك.. فاقتنع الضابط بكلامها: وقال: حقاً.. إنه أمر لا بد منه.. لكن قولها:

جلاد غيرك.. جاءه كالسوط يسلخ روحه عذاباً وشقاء فعاد يتابع: أرجوك سامحيني.. اغفري لي خطيئتي.. وبعد أن لف معصمها بالضماد راح يقبل يديها ويتوسل الغفران.. يبلل يديها بدموعه مما جعلها تثق بحسن توبته فقالت له: إنني أريد منك خدمة واحدة.. أرجو أن تنفذها ولو بعد مماتي.

ـ هاتها.. هاتها.. إنني مستعد ما أمكنني..

ـ ضعني على رابية الزيتونة.. إنها بعد وادي السلام.. حية أو ميتة.. إما أن تأكلني الوحوش المفترسة أو ربما يُعثر علي من قبل الرفاق وأُحمل إلى أهلي.. يدفنونني عندهم.. إنك تستطيع أن تفعل ذلك الآن.. تأمر بنقلي إلى هناك بحجة فتقول: خذوها وارموها هناك.. لعل الوحوش تقتاتها.. فلا نريد أن نتعب أنفسنا بدفنها.. وإن قالوا لك: ننتظرها حتى تموت.. تجيبهم: دعوها تموت هناك.. أو تأكلها الوحوش وهي حية.. ما رأيك؟.. موافق.. سأغفر لك.. إنني أسامحك..

ـ إنني لا أعرف كيف سأشكرك.. سأنقلك إلى هناك فوراً.. وسأنفذ وصيتك.. سأتعلم الحب والتآخي.. إن منديلك في مكتبي.. سأحتفظ به هدية منك.. أتسمحين..

وأومأت برأسها علامة الموافقة ثم قالت: حسناً.. رافقني إلى هناك إذن.. كي لا يعاملونني بقسوة.. ربما يخطر لأحدهم الإجهاز علي.. لو تعطيني اسمك وعنوانك.. إن عشت سأحدث الرفاق عنك وسأرشدهم للتعرف إليك.. هذا إن كنت تحب.. فاطمأن خاطره وقال: سأفعل.. سأفعل.. والآن هيا.. ثم حملها بين ذراعيه وصعد بها الدرج.. وسار بها حتى دخل مكتبه.. حيث وضعها على كرسي كأنها جثة بلا حياة.. لون وجهها كالزعفران.. وعندما جاء الطبيب خرج الجميع خارج الغرفة إلا الضابط حيث بقي مع الطبيب وربوة داخل الغرفة.. وبعد أن ذهب الطبيب.. نكر الضابط على جنوده جميع توصيات الطبيب.. فقال لهم: لقد فعلتها الخبيثة.. لقد قال الطبيب: إنها انتهت ولا فائدة من علاجها.. اطلب السيارة يا جدعون.. سننقلها من هنا.. سنرميها في مكان بعيد.. لأننا لا نستطيع أن نضيع الوقت على دفنها.. إن رميناها قريباً.. ستملأ رائحتها المنطقة.. وإن ابتعدنا بها.. ربما تأكلها الوحوش.. المهم يجب أن نبعدها..

حملت السيارة ربوة ومعها الضابط وثلاثة من عناصره حتى سفح الرابية حيث أنزلت هناك لعدم تمكن السيارة

من الاقتراب أكثر من هذا.. وحتى لا ترمى في الطريق أمر الضابط بحملها إلى قمة المرتفع.

كانت الرابية التي وضعت عليها ربوة تقع تحت مراقبة رفاقها.. لقد شاهدوا رفاقها أشباحاً تتحرك على الرابية.. لكن البعد خان نظرهم بالتأكد من نوع الحركة.. ومن نوع الأشباح المتحركة.

عندما وضع الضابط ربوة على الرابية عاد مع جنوده إلى السيارة.. وكم كرههم وتمنى لهم مفاجأة الفدائيين.. حتى ولو كان هو معهم.. لأنه لم يقترح عليه أحدهم مساعدتها والقضاء عليها.. كانوا كلهم شامتين بها.. يريدون لها العذاب وعندما صعد إلى السيارة قال: إن هذا حرام.. لماذا لا نريحها من هذا العذاب.. كل الذي سنخسره.. طلقات لا قيمة لها.. إن تركناها على هذا الشكل.. سيكون منتهى الوحشية لنكن مرة واحدة بشر.. انتظروني هنا.. سأذهب إليها.. سأخلص عليها.. لا.. لا.. أذهب لوحدي.. هات رشاشك..

وحمل الرشاش وراح يصعد الرابية ولما وصل إلى ربوة مد يده إلى جيبه وأخرج منه ورقة تذكرت أنه كتبها عندما

كان وحيداً بعد أن خرج الطبيب ولكنها لم تكن تدري ماذا كتب بها ولا لأي سبب فعل ذلك.. الآن.. فهمت: إنه.. ربما اسمه وعنوانه.. وبعد أن أرخى لرشاشه العنان بعيد عن ربوة انحنى إليها وصافحها وقبل يدها وودعها داعياً لها بالعودة إلى العافية.

لقد كانت الرشة الطويلة باعثاً للفت الانتباه فقد سأل جنود الضابط ضابطهم: لقد كنت كريماً في رمايتك.. فأجابهم: رميتها حتى فارقت الحياة.. عملنا حسنة على الأقل.. أما رفاق ربوة فقد اهتموا للأمر: رجل واحد على الرابية.. لقد رمى رشّات طويلة.. إنها تدل على النجدة.. يجب أن يتأكدوا من الأمر ولهذا أسرع اثنان منهما يتنقلان بمهارة وسرعة ولما وصلا إلى سفح الرابية راحوا يصعدانها حبواً يستغلان الصخور.

عندما وصلا إلى قمة الرابية انبطحا على الأرض وزحفا قليلاً حتى كشف لهما: أن جثة امرأة ملقية هناك.. عندئذ ظنا: أنهما عرفا الحكاية.. إنها ضحية من بعض ضحاياهم.. وأن تلك الرشّات لم تكن إلا للقضاء على هذه المسكينة.. أخيراً تابعا زحفهما إلى أن وصلا الجثة

ولكنهما نسيا ظنهم عندما وجدا أن الجسد هو جسد ربوة وأن ربوة لا تزال حية.. وسيطر العجب عوضاً من الظن.. وأسرعا إليها يفكران أنها أصيبت بطلقات نارية وقد أوحى لهما جمودهما أنها في النزع الأخير ومهما يكن الأمر فلا بد من مساعدتها.

اختلطت في لسانيهما عبارات الفرح والحزن والاستفهام مع الدموع بينما هي صامتة لا تستطيع قولاً ولا حركة حتى كأنها لم تشعر بتحريكها وتقليبها للتفتيش عن مكان الإصابات.. أما هما فقد جحظا بعضهما عندما وجدا أن لا إصابات بطلقات.. ولما أرادا أن يمدا أيديهما إلى الضماد في رأسها ويدها أعلنت استنكارها بعينيها ورأسها فعدلا.. ولما شعرا أنه لا حاجة لتضييع الوقت رفعها أحدهما على ظهره وراح يزحف بها وهكذا استطاع أن يصلا بها إلى سفح الرابية حيث أسنداها على أحد الصخور ينظران إليها وعيونها مغرورقة بالدموع.

كان بقية الرفاق يلاحظون بعض ما يجري ولهذا اندفعت مجموعة منهم بغية مساعدة رفاقهم في محنتهم.

عندما تأكد الرفاق أن ربوة قد حدث لها ما أبعدها

عنهم وقعوا في حيرة وشك وتلبثهم اليأس والقنوط وأصبحوا يعانون الضيق أثر.. وكم تردّدوا ولكنهم أخيراً أبلغوا القيادة بأس عميق أن قائدتهم ربوة قد اختفت في مهمة استطلاعية.. أما أدهم فقد صغر قلبه حتى أهمل كل شيء.. وكم سرح وكم غدا وراح لا يبالي من مصير يفاجئه.. يسهر الليل ويناجي مفقودته.. يبتئس النهار ويلعن كل سبب لشقاء الشعوب.. ولقد نال من اهتمامه الخبر الذي جاءه به أحد رفاقه: أن قوماً.. وربما أنهم جنود.. يتحركون على رابية الزيتونة.. ولهذا خرج من صومعته المكمن كأسد ضاق به الجوع ذرعاً ثم اشتم رائحة فريسته تدنو من وكره ولما رأى ما رأوا رفاقه.. حسب للأمر كل حساب ولكن الغرابة في الأمر: أن الجنود ما لبثوا أن اختفوا من قمة رابية الزيتونة لكنها لحظة ثم ظهر رجل واحد أرخى لرشاشه العنان وأخيراً انحنى إلى الأرض لحظة ثم انصرف.. ولهذا أرسل أدهم اثنين من رفاقه ليستطلعا الأمر.. ولما شاهدهما يساعدان جريحاً وثب يطلب من بعض رفاقه أن يتبعوه.

كانت ربوة تدرك أن رابية الزيتونة تقع تحت أنظار رفاقها

ولهذا طلبت من الضابط الذي وثقت به أن يضعها هناك.. والآن عاد لها الأمل بالعودة إلى الحياة بعد أن كانت تشد إليها الموت.. وكم رغبت وكم عذبتها هذه الرغبة.. في أن تعود للعمل مع رفاقها.. ولكن كانت تحس أن جموحها هزيلاً ضعيفاً يقض رغبتها ويكللها بالبؤس وخاصة عندما تتصور أن الموت.. ربما يختطفها.. إن هذه الدقائق التي تمر في حياتها أصعب عليها من الساعات التي كانت تنتقع في بئر الدم وهي ترحب بالموت.. لقد كانت هناك تتمسك بحبال السعادة أما هنا تتشبث بخيط عنكبوت.. تتأرجح به.. تأمل النجاة تارة وتخاف عندما تتوقع أنه ربما ينقطع بها.. وأين من يثق بأن خيط العنكبوت يحمل من تعلق به إلى شاطئ النجاة..

كان الأصيل يزرع في الكون الهدوء عندما مزقت سكونه تلك الرشّات.. ربما اللعينة.. وربما الحبيبة.. فانتزعت من الهادئ الساكن هدوءَه وسكونه ومن القابع الخامل اليائس اهتمامه.. وأحدثت في محيطها على مدى سماعها آلاف الحركات حتى من بعض الوحوش.. فكم أشغلت فكراً وحركت قاعداً.. وكم فتحت عيوناً غافية

وأشعلت ناراً في قلوب المتربصين والذين يتوقعون شيئاً.. سيء النتائج.. أو أحسنها.. ولقد كان رفاق ربوة من هذا التفاعل الذي أوقده تلك الرشّات.

عندما وصل أدهم.. وكان أول الواصلين إلى رفيقيه.. ووجد أن من يساعداه هو ربوة.. ولما وقع نظره عليها دارت الدنيا في رأسه وأحس كأنه مربوط في دولاب طاحونة هوائية يدور مسرعاً.. كاد أن يفقد وعيه لولا سمات الرجولة وفظاظة القلب وقسوته.. وقد ساعد ذلك في انقاذ شعوره بالعار والضعف إن لم يتمالك شجاعته.. لقد خففت دموعه ونظرات العتاب من ربوة عذابه.. فراح يقبل يديها تارة ويضع رأسه على صدرها أخرى.. بينما الرفاق كل ملتجئ إلى صخرة ينتظر إشارة أدهم ودموعه تسيل كالغدير.

ـ أيها الرفيق أدهم.. يجب أن لا نمكث هنا طويلاً: قالها نمرود.

لكن أدهم لم يكن موجوداً..

ـ إن الوقت مازال باكراً ولا نستطيع أن نتحرك بالشكل الذي يمكننا من الوصول بها إلى الكهف إلا بعد العتمة:

أجاب سهم.

ـ ولكنها تحتاج لمساعدة سريعة..

ـ عفوك يا رفيق جلمود.. يجب أن نكون رابطي الجأش أمام واقعنا وليس من الخير أن نفقد رشدنا ومتانة أعصابنا لنتصرف بغير الحكمة وربما لا ندري كيف.. ما قولك أيها الرفيق أدهم..

لكن جواب أدهم كان النهوض والنظر إليه ولم يفه بكلمة.. لقد كانت الدموع تمنعه وخشي إن أجاب يسبقه الإجهاش.. بل ولى الأدبار ورفاقه يرعونه بعيونهم إلى أن جثا وراء صخرة يختفي بها عن أنظار رفاقه.. لقد ظن أنه يخفي أساه ولوعة قلبه عنهم أو عن نفسه..

كان تصرفه هذا دعماً لرأي سهم ولهذا قال: اذهب أيها الرفيق جلمود وأبعد الرفاق من هنا.. وزعهم وكلفهم بالمراقبة والاختفاء.. أنا سأبقى بجوارها.. الليل أضحى قريباً.. ولا داعي للسرعة.

ـ والرفيق أدهم.. هل نتركه وحيداً هكذا؟..

ـ لا عليك من الرفيق أدهم.. إنه يعرف كيف يتصرف.. إنه وإن كان حزيناً فلن يمنعه هذا عن أن يكون حكيماً وعاقلاً.

توزع الرفاق على مشارف الوادي يراقبون المغيب والحركات المشبوهة إن وجدت.. يرصدون الليل بقلوب ملهوفة بائسة.. لقد تحقق حلمهم وأملهم: أنهم سيلتقون بربوة.. لكن هذا اللقاء كان أصعب من عدمه.. ها هي أحلامهم قد تحققت.. أحلام البراءة تجسدت في بؤس أشر من البؤس.. إن عذاب أدهم لم يكن أعظم من عذابهم ولو لم تكن في أعينهم كما كانت في عينيه.. ألا يكفي.. لقد بلغ عذابهم وبؤسهم نهايته حتى شمل كل مشاعرهم وإحساساتهم وحتى أجسادهم.

اختلفوا فيما بينهم على سرعة نقلها إلى المستشفى.. فمنهم من أوجب نقلها فوراً.. ومنهم من قال: لا خوف عليها حتى الغد.. وآخرون: إن عنايتنا بها هنا خير علاج.. ستعيش.. لن نتركها تموت.. لا خوف عليها.

كانت ربوة تسمع جميع أقوالهم وتنظر إليهم بثبات ينم عن الأمل ولكنه كان يبدي الوهن.. عيناها جافتان إلا من قطرات كانت تتدحرج بين الحين والآخر.. ولكنها لم تستطع الإجابة على أي من أسئلتهم وترحيباتهم وأدعيتهم.

كان أدهم يجلس لجوارها واضعاً رأسه بين يديه

عندما لاحظ أنها تريد أن تحرك يدها ولهذا رفع رأسه ومد لها يده فسحبتها مستسلماً لرغبتها دون أن يفهم شيئاً.. ولما وضعتها على صدرها عند العنق نظر إليها مستفسراً السبب.. لكن جوابها: أن حركت أجفانها قليلاً ثم أرختهما فوق عينيها.. ولما شعرت أن يده ثبتت في مكانها فتحت عينيها مرة أخرى وحاولت أن تحرك شفتيها ولكنها أعيت ولهذا سألها بحزن واهتمام: هل هناك أمر ما؟.. فأجابته بمد جفنيها.. عندئذ فكر أن في صدرها شيئاً فمد يده إليه حيث له الصلاحية وأخرج منه ورقة.. وعندما سألها: أهذا ما تقصدين مدت جفنيها إشارة: نعم.. وفتح الورقة وهي تنظر له بعينين وسنانتين ذابلتين ثابتتين.. وقرأ فيها:

أنا الضابط ابرهام موسى أقطن في القدس ـ الحي الشمالي ـ شارع الإذاعة ـ الجادة الأخيرة ـ البناية رقم /3/ الطابق الثالث..

إنني أقر وأعترف بأنني مسؤول عن جميع النتائج التي تحل بالمناضلة ربوة.. أقول: إنني مسؤول.. ولو كانت ظروفي تفرض علي أن أتصرف بالذي يُطلب إلي.. ولكن كان

يجب علي أن ألتزم بإنسانيتي مهما كان الثمن.. ولهذا فالمسؤولية.. تقع على عاتقي.. ولهذا تكفيراً لذنبي وعما جنته يدي أقدم نفسي رهن إشارتكم.. تطيعها.. وأرجو أن تعتبروني رفيقاً مخلصاً ربما تحتاجونه كثيرا وخاصة في المجال الذي أعمل به.. أرجو أن تثقوا بي.. وبالمناسبة: إنني من أصل عربي.. ولقد آمنت بإنسانيتي على يد رفيقتكم البطلة.. أرجو لها النجاة لتخبركم الحقيقة ولتعود للنضال من جديد.. تصوروا: كم يعذبني ضميري.. ولا شكّ أنه سيرتاح عند شعورها بثقتكم وبنجاة ربوة..

رفيقكم البائس ابرهام موسى

اجتمع الرفاق حول أدهم وربوة وراح يقرأ عليهم مضمون الورقة.. وبعد أن انتهى راحوا ينظرون لها نظرات الإكبار.. يثنون عليها: أينما حلت تبني صداقةً وتزرع أخلاقاً.. ثم أخذوا يشجعونها ويلاطفونها بينما هي راحت تحس أكثر مما مضى أن السكون الأبدي يلتحم بها شيئاً فشيئاً.. ولما سمعتهم يتشاورون على إسعافها وأنهم قرّروا أن ينقلوها فوراً إلى المستشفى.. عندئذ تدحرجت من عينيها

آخر حبتين.

لما وجد أدهم دمعتين تدحرجتا من عينيها قال ملاطفاً: أي.. حبيبتي.. كوني شجاعة.. سننقلك إلى دمشق.. هناك سيزورك بالمستشفى ولديك وبقية أقربائك.. ستجدين بهم هناك سلوة.

عندما سمعت بولديها تشنجت عضلاتها وجحظت عيناها بقوة تحاول أن تقاوم هزالها.. لعلها تستطيع أن تسبق الموت بوصية من أجل ولديها.. ولكن تصرفها هذا جعلها تبذل كل قوتها لتنفقها بسرعة بعد أن كان الموت يسلبها رويداً رويداً.. عندما تحركت بعنف انفقت القوة المتبقية لديها.. وفقدت كل شيء.. إلا أن الحسرة وما كانت تريد أن تقوله بقي في صدرها وارتدّت إلى الوراء سكوناً أبدياً.. سكنت كل أمانيها وأحلامها وعذابها وحنينها حتى بؤسها.. ناشفة العينين جامدتهما ملتوية العنق يابسة الأطراف صفراء كعباد الشمس.. لقد فقدت النور والتسامي والقدسية وأصبحت بقية لا نفع منها.. سوى أنه بقي منها التذكر والاقتداء بفضائل ستبقى خالدة لها أبد الدهر.. لقد تعالت روحها طاهرة قسراً ليبقى جسدها يدفن في التراب.

هكذا قضت بدون وصية ولم ينفع أدهم احتضانها ولا هزها ولا تجمع الرفاق حولها كل يحاول أن يجعلها تفتح عينيها ثانية.. إذن.. ماذا ينفعه؟.. ماذا ينفع رفاقه؟.. لقد انتهى كل شيء.. لقد انتهت ربوة.. وانتهت عايدة حبيبته.. حبيبتهم.. وهل ينفعه البؤس والحزن؟.. هل ينفعوه رفاقه؟.. ها هما يجللون المكان.. وراحت دموعه ودموع رفاقه تنحدر ساكنة إلا من صرخات صامتة كانت تنفجر في أحشائهم تغذيهم بالحقد ونار الثأر.. أما أدهم فقد شعر أن مقاومته قد تداعت وأن فرائصه ما عادت قادرة على حمله.. ولهذا وجد رفاقه أن لا بد من تشجيعه.. إن استمر الحال هكذا فستقع الكارثة.

ـ أيها الرفيق أدهم.. إننا نعهدك بطلاً لا تؤثر في شجاعتك عوادي الزمن: قال أحدهم.

ـ إننا لن نتفق معك في هذا.. أين شجاعتك.. قالها آخر.

ـ أيها الرفيق.. هيا.. هيا.. ننقلها إلى أهلها.. قالها ثالث.

وجاءت جماعة منهم يتأبطون أدهم ويرفعونه بينما آخرون راحوا يرفعون ربوة على كتف أحدهم.. وما أن أشرقت الشمس حتى كان البيت السعيد الذي قضى به

حسين وعايدة أحلى أيامهم ينعى بدقة جرس مشؤومة.. وما فتح الباب حتى امتلأ البيت بالعويل والصراخ.. وهرج في الحي كله.. وهكذا تحول البيت والحي إلى جحيم من البؤس والشقاء.. حيث ولّت السعادة والسرور.

استغربت نعيمة لأنها لم تسمع جرس الكنيسة ينعي قديستها الحبيبة.. لهذا ذهبت مسرعة إلى الكنيسة تطلب من الأب إيليا أن يتكرم بإقامة مراسم الدفن.. لكنها عادت تجر أذيال الخيبة تتذكر وتعيد لمخيلتها أمراً كانت قد نسيته: لقد تذكرت: أن أملاً الممرضة أشاعت الخبر في الحي: بأن عايدة متزوجة من رجل مسلم اسمه حسين.. لقد رأتها تقبله في المستشفى وتهتف اسمه.. إنها منحت غفارة على زواجها الأول من مسلم.. لكنها في المرة الثانية وربما كان ذلك منها سفاحاً لا يغتفر ماتت دون أن تحظى بنيل غفارة.. وحكمت: أن الحق مع أبينا إيليا لرفضه الصلاة عليها أو دق الناقوس.. على حسين أن يتدبر الأمر.. فالكنيسة لن تقبل أن تدفن في مدافن النصارى.

عندما سمع حسين ما أسرته به نعيمة تزاحمت في رأسه عوامل هزء ونقمة وسخرية.. وازداد حزناً على حزن.

تناقش مع نعيمة على أن تدفن في مقابر المسلمين ولما سألته: من سيصلي عليها؟.. أجاب: إنها ليست بحاجة إلى أية صلوات.. فهي غنية بمكارم الأخلاق والفضائل.. ولما وجدت أن لا حيلة هناك تركت له الحرية.. لهذا ذهب إلى مكتب دفن الموتى المسلمين.. سأله الشيخ هناك: أين إخراج قيد نفوس المتوفية؟.. أين شهادة الوفاة؟.. ولما أبدى عدم الفهم تابع الشيخ قائلاً: إننا لا نستطيع أن نمنح رخصة الدفن إلا بعد إبراز شهادة طبية تثبت الوفاة.. لا بأس.. وإن كان ذلك بدون إخراج قيد.. أما بدون شهادة طبية.. فهذا مستحيل.. اذهب وأحضر شهادة وفاة من طبيب.. هل أمنت الشيخ الذي سيصلي عليها.. نحن نؤمن لك شيخاً.

لم يهتم لكل الصعوبات التي زللها في سبيل الحصول على شهادة طبية.. ولكن الشيء الذي عذبه.. عدم استطاعته الاعتماد على الآخرين في إنجاز الأمر كي ينصرف إلى قضاء الوقت بجوار حبيبته الراحلة تلك الساعات المتبقية لها فوق التراب.

أما الصدفة العنيفة التي اصطدم بها أخيرا كادت أن تخرجه عن تعقله.. عندما قدم شهادة الوفاة للشيخ قال له:

ـ هي مسيحية؟

ـ طبعاً.. وهل في الأمر غرابة؟..

ـ نعم.. كل الغرابة.. أأنت مسيحي؟..

ـ كلا.. أنا مسلم الأبوين.

ـ إذن ما علاقتك بالأمر؟

ـ إنها زوجتي.

ـ معك إثبات.. دفتر عائلة.. مثلاً..

ـ لا.. ولكنها زوجتي.. أنا أقول لك: إنها زوجتي.

ـ هذا لا يكفي.. إن كنت لا تملك دفتر عائلة.. فعليك بالقاضي الشرعي.. تذهب له.. فإن أعطاك شهادة بأنها زوجتك يصبح الأمر محلولاً.. أرجوك لا مجال للحديث في المستحيل.. نحن لا نستطيع مساعدتك مطلقاً..

وزادت النقمة تقرع طبولها في رأسه والذي زاد في نغمها القاضي الأبله الذي أجابه بعد أن أطال له الشرح أوقل الشكوى.. أحضرها وأحضر معها شاهدين لنثبت زواجك منها.

ـ الظاهر يا شيخي لم تعِ حديثي..

ـ وكيف يكون ذلك.. لقد فهمت ما تريد.

ـ لقد قلت لك: إنها توفيت.. نريد دفنها.

ـ آ.... الآن فهمت.. والآن ماذا تريد مني..

ـ سامحك اللّه يا شيخي.. ألم أقل لك: إننا نريد أن ندفنها.

ـ ماذا تنتظر.. ما يمنعك.. رح ادفنها.

ـ أريد ورقة منك.. شهادة.

ـ شهادة ماذا.. ورقة ماذا.

ـ شهادة أنها زوجتي..

ـ من أين لي أن أعلم أنها زوجتك.. هل تستطيع أن تثبت.. أنها أسلمت.. أنها تشاهدت..

ـ كلا..

ـ إذن وأنت لن تستطيع الحصول على الشهادة.. لأنني لا أستطيع أن أمنحك إياها.. لا تتعب نفسك.. بما لن تحصد نفعا.. لماذا لا تدفنها في مدافن ذويها..

ـ لقد رفضوا ذلك..

ـ آ.... وماذا أستطيع أن أفعل لك.. ذنبك على جنبك.. ذنبها على جنبها.. رح.. رح أخي.. روح.. دبر ذلك بمعرفتك.. هه.. اشتر لها مقبرة خاصة.. ادفنها في جفنه.. في رجمة.. في أي مكان. دبرها.. أرجوك.. لا تشغلني.. مع السلامة.. مع السلامة.

كان الفشل عاملاً من عوامل الثورة التي راحت تعتمل في داخل حسين: حتى في الموت تختلفون.. كم هم أغبياء.. إنها ليست بحاجة إلى صلواتهم ولا إلى عفاريتهم...... لقد صعدت روحها إلى السماء.. على طريقتهم طبعاً.. شاءوا أم أبوا.. أما على طريقتي.. فلقد بلغت السمو وتربعت المجد.. لكنها الضرورة.. إذا أين سأدفنها.. لقد رفضاها قسيس لعين وشيخ ألعن.. وتساءل: لما الخداع.. لم.. لم النفاق.. وتراقصت على شفتيه ثمة العبارة: {وتآخينا هلالاً وصليباً}.. ترافقها بعض الهمهمات الساخرة.. شيء مخز.. كم هو القائل كاذب.. فهل حقاً يتآخى القمر والخشب.. أو هل تتآخى صفة من صفات القمر أو إحدى مراحله مع مصنوع تافه من الحطب.. ثم.. ما فائدة الشعوب من هذا التآخي.. وإن كان حاصلاً حقاً.. لماذا لم يقل: اتحدوا هلاليون وصلبانيون.. لماذا لم يقل: اتحدوا محمديون وعيسويون.. مسلمون ومسيحيون.. لماذا لم يقل وحد العرب عقيدتهم؟.. انسنوا عقيدتهم فتوحدت؟.. لماذا لم يقل جمعتهم كلمة حق ومبدأ عدالة؟.. إنهم كاذبون دجالون.. إذ.. أين التآخي؟.. لقد رفض الإبليس أبونا أن تدفن مسيحية

في مقابرهم لأنها تزوجت رجلاً مسلماً.. والسيء أنه ليس مسلم ولا مسيحي.. ورفض الشيطان شيخنا أن تدفن في مدافن زوجها لأنه لم يستطع أن يثبت أنها زوجته أو لأنها لم تسلم ولم تتشاهد.. أين التآخي إذاً أيها الفجار؟.. حرام عليكم.. تباً لكم.. فلتسقطوا.. ازيحوا عن الكادحين الأبرياء ثقلكم اللعين.. امسحوا هذه الغشاوة عن عيونهم.. دعوهم ينظرون.. لم لؤمكم.. أمن أجل السيطرة.. هذا صحيح.. ولكن إلى أية مقبرة أذهب بعايدة بحبيبتي.. آه.. لو أستطيع الصعود بها إلى السماء.. ولكن هذا سخف أحلام البسطاء السذج وأقوال المنافقين المتسلطين.. ليتني تركتها على رابية الزيتونة.. ليتني شيدت لها هناك قبراً أو بنيت لها ضريحاً.. كم كان ذلك أهون علي..

وبيأس بعد أن أقسم بإيمان: لو يمنحه الله القوة.. ليحطمن رؤوس المضللين وليرميهم للأسماك في اليم لتكون أجسادهم قوتاً ولتكون الأسماك للصالحين غذاء.

ولما ضاقت به الحيل ذرعاً تراقصت أمام عينيه حيلة واحدة راق غليله لها قليلاً.. واستطاع أن يخرج من المأزق الذي أوقعه به الشيطان والإبليس.. وهكذا بمساعدة رفاقه

وبعض الحفارين بالأجرة دفن عايدة وحيدة الرمس في إحدى الروابي بعد أن استطاع بعض رفاقه أن يثيروا حماس المسؤولين عن العمل الفدائي لإقامة حفلة دفن تليق إلى حد ما بالبطلة.. وهو.. أما هو فلم يكن يعتقد أن احتفالهم ووداعهم ينفعها أو ينفعه في شيء.. ولو كان يعتقد لخشي عليها وحدتها في البرية..

وجثا حسين بجانب قبرها حزيناً.. وحيداً.. وتساءل: يا رب كيف أخذتها وأنا لا أستطيع العيش بدونها.. فهي كانت تحبك لجمالك المطلق ولطفك المطلق.. هي لا تخاف منك، بل تحبك لما فيك.. فأنت الرحمة والغفارة وهي تعتقد أن عفوك وغفرانك أكبر من ذنوبها بكثير.. وتعتبرك الوطن الذي هو دفئها وطمأنينتها وقد ضحت بنفسها حباً بك واستشهدت في سبيلك.. ورجائي عندك أن تخفف عني وعنها ألم الفراق.

عاش حسين في بيت عايدة أيامه القليلة لا يحسب للواقع الذي يتخبط به أي حساب.. والشيء الذي كان يحس به: يأسه وهزاله.. وفراره المؤقت بالبعد عن رفاقه وعن العمل الفدائي معهم.. علماً: أن رفاقه لم يكن يفوتهم

أن يمروا عليه بين الفينة والفينة.. ليطمئنوا على صحته وأحواله وليخبروه عن بعض أعمالهم ونتائجها.

راحت أخيراً تمر عليه الأيام يحسبها سنيناً يعاني فيها الأمرين من فراغ موحش قاتل ومن ذكرى تعذبه إلى ذكرى أشد عذاباً: هنا على هذا السرير.. تعانقا.. هنا على هذه الطاولة.. على هذين الكرسيين.. تجالسا مرات متجاورين.. في هذه الزاوية من البيت وفي تلك وشوشته ووشوشها أحاديثا وأحاديث.. على ذلك المقعد جلسا يدخنان ويتضاحكان مرات لا تعد.. ومرات تعاتبا.. على ذلك الباب تؤنبه.. على تلك المرآة.. وقفا ينقدان مظهريهما.. كم ربط لها شعرها مرة.. وكم لاحظت عليه قساوة شعر ذقنه مرات.. هنا.. وهنا.. وكان في كل هنا وكل تلك أو تلك وفي كل هذا وذاك وذلك ينتقل بجسمه مع فكرته ليعيش مع الأحداث فترة قصيرة تدمي قلبه ذكراها.. ولم يستطع أن يخفف من عذابه ولا من ضناه عذاب القوم.. أهل البيت طيبة أخلاقهم.. وحسن سلواهم.. ولكنهم كانوا يزيدون من عذابه عذاباً.. إنهم قوم كريمون.. ولكن ما فائدة كرمهم؟.. فحبيبته ليست بينهم.. لقد ذهبت لقد رحلت

ورحل معها أنسها.. فذهبت عذوبة الحياة.. وليس له رغبة في العودة للعمل الفدائي.

وجاءه الوحي أخيراً بالسؤال:.. ما علاقتك بهؤلاء القوم؟.. إن كبيرتهم التي هي حبيبتك قد رحلت.. تقاسمهم البيت والعيش.. تعذبهم.. من أنت بالنسبة لهم.. إنه لا يليق بك المكوث عندهم أكثر.. اذهب.. ارحل.. عد إلى قريتك.. عد إلى زوجتك نجوى.. إنها تنتظرك.. ابنتك تدور في الحارة تلعب مع الصغار.. لا تعرف أباها.. عد.. عد.. حقاً: إن هؤلاء القوم يحبونك.. ولكن ما رابطتك بهم؟.. هل تحلم بهيام؟.. بنعيمة؟.. إن هذا عار عليك.. ارحل.. ارحل.. أسرع.. أسرع.. إن الموت يدب فيك أكثر من الحياة.. إنه يدب في جسدك وروحك.. هيا.. هيا.. أسرع.. أسرع..

وانتفض كمن لسعته أفعى في منامه ليرى نفسه أمام الواقع المرير.. يدخل إلى عقله ألف حساب ليخرج منه آلاف أخرى.. ولكن.. هل تتركه أفكاره يرحل بسلام هكذا.. كيف أترك هؤلاء المساكين.. كيف أتعالى عنهم وقد عشت معهم أخاً وأعز.. أليس من كرم الأخلاق أن أبقى معهم.. إكراماً لأمهم.. أسهر على مصالحهم وأساعدهم

على حل مشاكلهم في الحياة.. ولكنهم ليسوا بحاجة لي أو لمساعدتي.. فحالتهم المادية حسنة.. وهم ليسوا صغاراً.. إنه لأخير لي أن أهرب من هذا البيت.. لأن كل خطوة فيه.. كل قطعة.. كل حركة أو سكون.. يسبب لي الذكرى والعذاب.. ولكن ليس من اللياقة أن أترك قوماً أحبوني وأحببتهم للضياع.. ولكن ما عساي أن أفعل لهم؟.. ربما أنا ثقل عليهم؟.. إن الرحيل أخيراً.. سأرحل.. سأرحل.. ولكن.. هل أرحل دون وداعهم؟.. أسرق نفسي دون أن أعلمهم.. كلا.. هذا سوء.. سأودعهم.

عندما اجتمعوا في المساء على مائدة العشاء كانوا جميعهم.. كل واحد منهم في واد.. جلسوا صامتين إلا من تبادل التحيات.. أخذوا يأكلون دون شهية.. ولا يتكلمون إلا للضرورة.. لقد لاحظوا أن حسين رفع رأسه عدة مرات يريد أن يقول شيئاً ولكنه كان لا يلبث أن يخفضه دون أي قول.. واشتهى كل واحد منهم أن يسأله: ماذا تريد أن تقول؟.. لكن الخجل والخوف اللذين لبسا حسين لبسهم ولم يتركهم.. وهكذا انتهوا من العشاء وحسين يتوسل إلى الإقدام أن يزوره مرة ليكون جريئاً ويتكلم.. لكنها آمال

كانت تختفي خلف عيون من توقعوا قولاً.

كانت هيام أكثر عذاباً من الآخرين.. لقد كان عذابها عليه يعادل أو ربما أطفح كيلاً من عذابها على أمها.. هي بذلك أعلم.. فعندما يرفع حسين رأسه تفتح أذنها وقلبها وترنو بخشوع وتصلي بصمت.. لتنفرج أعماق حسين عما تكنه.. وعندما كان يخفض رأسه ويغض نظره تحس أن قلبها يضيق ويضيق حتى يكاد أن يختنق في صدرها وأذنيها تزدادان اتساعاً إلى درجة أنها كانت تسمع صراخاً وأصوات نواقيس تنبعث من أعماقه.. فيزداد بؤسها.. إنها لم تفهم من هذا الصخب شيئاً.. وأخيراً بعد أن تداعت إرادتها وفشلت في مقاومة دوافع مكمنها.. وبعد أن جلسوا يحتسون الشاي وجدت لها مخرجاً فقالت: إن شاء الله أعجبتكم الشاي؟.. وبعد أن أجابوها: بالإيجاب.. تابعت: لكنني أرى حسيناً على غير عادته هذه الليلة.. أليس هذا صحيحاً يا سيد حسين؟.. ولما أجابها بنظرة متباطئة فقط.. تابعت وهي تنظر له كنظرته لها.. وربما كان هناك اختلاف في معنى النظرتين..:

ـ أعتقد أن هناك أمراً أشغل تفكيرك؟.. إنك تريد التحدث

به؟.. لا أدري ما الذي يمنعك؟.. إنك لست غريباً.. إنك واحد منا.. هل نخجلك بعد هذه العشرة الطويلة؟.. ودعمتها خالتها نعيمة قائلة: أحقاً؟.. أسمعنا ما عندك؟.. هات لنرى.. ولو.. سيد حسين؟..

ـ يا ست نعيمة.. (وبعد صمت قصير).. لا شيء.

وسكت عن الكلام ثم نظر إلى هيام وابتسم ابتسامة باهتة وهو لا يدري إن كان يلومها أو يشكرها على قولها.

ـ إيه.. سيد حسين.... احكِ. قالت نعيمة.

ـ الحقيقة: إنني أفكر بالرحيل، ، أريد العودة إلى القرية.. وليس من أمل يدفعني للعيش هنا.

ـ ماذا تقول؟.. ما هذا الكلام؟.. هل كرهت العيش معنا؟.. هل هناك ما يزعجك؟.. لقد تعودنا عليك.. إننا لن نوافقك على فكرتك هذه. قالت نعيمة.

ـ استغفر اللّه.. مما تتهمينني به.. من يكره العيش معكم؟ إنكم أحسن من الأهل ولكن ما حيلتي؟ إنها الضرورة.

ـ مستحيل.. مستحيل.

ـ واللّه.. يا ست نعيمة إنني أثق بحسن محبتكم إنني

أشكركم.. لكن.. أرجو أن تعذروني فأنا قد صممت ولامجال للتراجع عما أرغبه.. فأنا لن أنقطع عنكم.. سأزوركم دائماً.. لن تزول صداقتنا مطلقاً.. سأكون طوع طلباتكم في كل حين.. أرجو أن تسامحوني.. إنه لأخير لي ولكم.. فمهما طال اجتماعنا سنفترق.

كانوا صامتين ينظرون إلى بعضهم بعضاً.. يسجل كل واحد منهم تعابير وجه الآخر والتي أحدثها قوله.. كل واحد منهم يحب أبا اسكندر.. كل واحد منهم لا يثق بمشاعر الآخر.. ماذا يفعلون؟.. ماذا يقولون؟.. لقد خجلوا عن قول أي شيء وتلبسهم السكوت واللوعة الصامتة.. وعندما لمس منهم أن ردهم على ما راح يقرب به ويبعد كان سلبياً أخذ يوجه حديثه إلى غسان.

كان غسان أقل إظهاراً للعواطف.. وكان أقل تماسكاً بما لا يعتبره هاماً.. لقد كان سنّه يفرض عليه طبيعة معينة تلزمه التفتيش عن متطلبات روحه المنفتحة جديداً.. ومع هذا كان يحترم حسين احتراماً فائقاً.. ولم يذكر يوماً أنه جادله بأمر أو أشركه بقضية أو أسند له رأياً.. كل ما كان في الأمر أنه احترام تلبسه ربما لعطف

التمسه أو لشخصية جديرة بالاحترام.. وكان يعلم أن احترامه لحسين مقروناً بالحب والثقة.. لقد تعود أن يكون صامتاً إلا على ما يهمه أو ما يسأل عنه.. أما هذه المرة فقد اضطرته نظرات حسين وشرحه المؤثر على أن يرد قائلاً: إننا تعودنا عليك.. لاشك أن الفراغ سيزداد في هذا المنزل إن تركته.. لقد كنت أخاً أكبر عطوفاً وأباً رؤوفاً.. أعتقد أننا سنعاني الوحشة بعدك.. أرجو أن لا تكون قاسي القلب فتظلمنا.. لقد غابت أمي.. رحمها اللّه.. كم كنا سعداء بوجودها.. الآن.. أنت أبونا وأمنا.. أنت أخونا الأكبر.. أرجو أن تفكر بالأمر ملياً.

كانت كلمات غسان على حسين سياطاً أصعب من الموت.. وقع في بئر التردد والإقدام: أيعود عن قراره:.. أم يبقى صامداً لا تزعزعه رياح المحبة التي تثور عاصفة من قلوب هؤلاء الأصدقاء الأشقّاء.. كانت تسيل بعض الدموع الصامتة من عيني نعيمة التي غاص بها الحزن.. أما هيام كانت تصلي في سرها خاشعة بائسة: لعل كلمات أخيها غسان تحدث وقعاً صائباً في قلب وعقل أبي اسكندر.

خنق حسين العبرات في عينيه وقال وهو يكبت خفقان

قلبه يبذل كل قوته ليكبح جماح روحه عن الانفلات:

- لا أدري ما سأقوله لك يا غسان.. إن رحيلي لن يغير من محبتي لكم.. ربما تدرك: كم أنا معذب.. يجب أن نكون واقعيين.. كن واقعياً يا غسان.. إن حبنا لبعضنا شيء وواجبنا شيء آخر.. ليس من الحكمة أن يبتلع أحدهما الآخر.. فليكن الحب حباً والواجب واجباً.. فليستقل أحدهما عن الآخر.

- إن كلامك لا غبار عليه.. إنه الحق.. ولكن.. إني لست أدري..

لقد كان حديث غسان فاتحاً لباب المناقشة على مصراعيه بين الجميع كل يشد ويرخي.. كل يريد أن يثبت حجته.. كان حسين ألينهم عراكاً.. وحان وقت اللوذ للأسرة دون أن يصلوا إلى قرار نهائي ودون أن يستسلم أحد الطرفين كلية لرغبات الطرف الآخر.. بل اتفقوا جميعاً على رأي واحد هو تأجيل الحديث إلى يوم الغد.. فودعوا بعضهم بابتسامات باهتة صفراء.

ركب القلق المنزل.. ولم يفته واحد منهم أن جاهد السهاد وحاربه: لكن السهاد كان هو الأقوى والمسيطر..

نعيمة تفكر قلقة بماضيها وحاضرها بأيامهم مع أختها عايدة.. تقارن ما بين معاملتها التي كانت معاملة الأم للابنة ولو كانت عايدة هي الصغرى والمخالفة للعهد القديم {الجديد} وبين معاملة أختها الأكبر مريم والدة منى.. لقد كانت العلاقات بينهم وبينها أضعف رباطاً من علاقات المعارف.. إنها لا تحس بميل أخوي نحو مريم.. لأن مريم تعلقت بزوجها وأولادها وتركت أختيها تتخبطان بالعزلة والانفراد إلا من ولدي عايدة.. وأخيراً من حسين.. ستكون الحياة من الآن وصاعداً صعبة وقاسية وستزداد قسوة وصعوبة إذا ما غادرهم أبو اسكندر الطيب أحب الناس إليهم.. ليس في الحي من لا يتهم هذا البيت بالشذوذ التقليدي.. ليس هناك من لا يدل ولا يؤشر.. ليس هناك من لا يهتم.. ليس.. ليس هناك من لا يتجنى.. أين أنت يا أبانا الذي في السموات:.. أين رحمتك.. أحقا نحن خاطئون.. وهدأ عذابها وهمد غليلها عندما جادت عيناها بالدموع انسكاباً.. وارتاحت بحكمها بالبراءة من الخطيئة التي يزعمونها الآخرون.

أما غسان فقد عانى من القلق حرزاً وناقش أمر رحيل

أبي اسكندر.. كما أنه لم يفته أن يتأمل رفيقاته وأن يتصور بعض عشيقاته.. لكنه لم يكن يعاني الحزن والكآبة كغيره.. لقد أسلم نفسه للتفاؤل.

أما هيام فكان همها الوحيد أن تحتفظ بأبي اسكندر ولو بأية وسيلة.. لقد كانت تحبه.. وهي ما زالت تحبه.. لقد كان أملها معدوماً.. وها هو اليوم أملها يترنح.. يداعب روحها تارة ويقتلها أخرى.. إنه حبيبها.. ولكنه زوج أمها.. أين السبيل.. لم الهرب من الواقع.. لقد ماتت أمي.. نعم إنها ماتت.. إنني لست شامتة بها ولكن ما عساي أستطيع أن أفعل أمام الحقيقة التي تتراقص في حيزي.. أحب حسين وأريده عشيراً أليفاً.. إنني أتمناه.. ما يمنعني من تحقيق أمنيتي.. لم يعد زوجاً لأمي.. لقد أصبح بالنسبة لي رجلا كبقية الرجال إلا أنني أخصه بالحب والميل والهوى.. إنه لا ينسى: أن يوما كانت هناك علاقة بيننا.. لقد تحاببنا.. أنا ما زلت أحبه وهو ما زال يظهر لي ذلك.. ولكنني لا أدري إن كان ذلك عطفاً أم حباً.. سأناقشه الأمر هذه الليلة.. ورأي الآخرين.. وأقوالهم.. إن أقوال الآخرين كثيرة ولكن لا رأياً صائباً لهم.. إنهم نمامون

مغتابون.. يمدحون حاضراً ليسلخوه عند غيابه.. لا يذكرون أحد بفضيلة وهو غائب عن مجلسهم، ويتهمون بالرياء والدهاء رجلاً عمل صالحاً وبالكذب واللصوصية وعدم الائتمان إن كان فقيراً ولا يجيد المداهنة وتنفيض الأجواخ والثرثرة الفارغة.. إنهم لن يهموني.. لن يكون لهم في حسابي أية منزلة.. فإلى الجحيم أيها الأنذال.. أيها الوسواسون السفلة.. أعتقد أن أخي وخالتي قد ناما..

ونهضت من سريرها بكل حذر.. لكن لم تفلت من مراقبة نعيمة التي سكتت عن تصرفها إيماناً منها بحرية الصبية واثقة بأخلاق حسين الطيبة.. وإقراراً: إنها لن تتدخل.. فكل ما سيجري لن يكون ذو أهمية إلا عند الآخرين السخيفين.. والسخيفون.. ما سيطروا يوماً علينا.

وكان حسين أشقى الجميع وأتعبهم تدور في مخيلته صور من الماضي الذي عاشه وترتسم في أفكاره صور المستقبل الذي يتوقعه.. قلقه مرير وسهاده أرعن وبكاء قلبه مجنون.. آه.. لو تنسكب دموعه.. لعله يرتاح من كربه.. لقد كانت عايدة بالنسبة له شذى.. لقد كانت أماً وأختاً.. لقد كانت دواءاً ووردة.. يا لشقائه المخمور..

أيصحى؟.. الرحيل خير وسيلة.. لن أغير رأيي.. ولكن كيف أستطيع أن أقنع هؤلاء الأعزاء.

بينما هو يتحسر ويتأفف.. حزنه في الذروة وكآبته شاملة كيانه.. مستلقياً تشخص عيناه السقف الذي ارتسمت منه على حدقتيه صور شتى عندما شعر أن باب غرفته يفتح.. فأصابه الهلع وتزايد خفقان قلبه وشعر أنه قيد بالزرد مما تخيله: هبط عليه من السماء فجأة.. من هو الذي يفتح باب غرفته.. كاللص في هذا الليل المتأخر.. لكن الجواب جاءه عنيفاً سفاكاً عندما بدت هيام على الباب قمراً حزيناً لا يضمر إلا الحب والبراءة.. واستوى كالمجنون على سريره جاحظاً عينيه.. طارداً جميع ما رسا عنده من أفكار وتصورات ليحتل الحدث الجديد مكانة الكل.

- هيام.. الله!! ما الذي جاء بك إلى هنا.. إننا في الهزيع الأخير من الليل..

- جئت للا شيء.. إن كنت تطردني...

- لا.. عفوك.. أنا لا أطردك.. كيف تقولين هذا.. أطردك؟!.. ويحي.. لكن هذه الزيارة المتأخرة لا وجوب لها.

ـ جئت لأحدثك بأمر هام.. أعتقد أني لن أزعجك.. ربما أخلصك من وحدتك قليلاً.

ـ ولكن.. ماذا لو شعروا بنا..

ـ نحن لا نسرق.. لا نعمل مخالفة.. كل ما في الأمر.. أننا سنتحدث.. لماذا أنت خائف.. اطمئن.. أتسمح لي بالجلوس جوارك على السرير..

ـ أمري لله.. ياستي.. خذي راحتك.. تفضلي..

ـ تمام.. هكذا كان عليك أن تقابلني يا أبو اسكندر.. من البداية.

ـ أمرك.. إنني أعترف بخطأي.. هل أرضيتك؟!.. هذه هي.. ياستي أهلاً وسهلاً.. والآن.. هات لنرى.. تحدثي.. احكي.. إنني أستمع.

ـ يوه.. لماذا بصلتك محروقة.. إنك تحبطني.. إن كنت تريدني أن أحكي وأذهب.. فخير لي أن أذهب دون أن أحكي.. أما إذا كنت تريد أن أحكي وتسمعني وتفهمني وتناقشني.. فلا مانع من هذا عندي.. أنا لا أريد أن أسلق الكلام سلقاً.. إنني أريد أن أعبّر عن فكرة.

ـ حسناً يا سيدتي.. احك.. ريحيني أرجوك.. أتوسل إليك..

ياللّه خلصينا..

ـ على رسلك.. على رسلك..

وبعد أن حاوصت بعينيها الجميلتين لتلملم بين أهدابها صور جميع الأشياء التي وقع نظرها عليها.. ثم مدت أجفانها قليلاً تبدي خجلاً مما ستقول.. وقبل أن تحسر جفنيها عن مقلتيها قالت بصوت أجش تختنق فيه العزيمة..: حسين.. ولم تجرؤ على النظر إليه إلا بعد أن أجابها: خيراً إن شاء اللّه.. الظاهر أنها فرجت.. وحيال جوابه لها نظرت له خطفاً وابتسمت ثم رفعت نظرها إلى السقف تجمع شتات أفكارها وجرأتها ثم أعادت النظر إليه وتابعت لتخفف عليه توتر أعصابه وتوسلاته المستعجلة لأن يفهم مقصدها..:

ـ حسين أنت لابد أنك تتذكر أن علاقة كانت بيننا..

ـ هذا صحيح.. ولكن.. ما قصدك؟..

ـ لقد كنت أحبك يا حسين.. ولا زلت.. لكن والدتي رحمها اللّه كانت مضيعة أملي بك.. الآن.. والدتي أصبحت بعيدة.. أقسم أنني لست شامتة بها.. ولكن.. أعتقد.. أنه ليس من ضرر هناك لو تعود العلاقة بيننا إلى أحسن ما كانت

عليه.. تتزوجني..

ـ كيف تقولين هذا يا هيام.. هل نسيت أنني كنت زوجاً لأمك.. أين احترامك لها..

ـ إنني أفخر يا حسين.. أنه كان لنا أم تقوم مقام الأب والأم بالنسبة لنا.. إنني أفخر بها لما استطاعت به أن تعلمنا لأن نكون أحراراً وواقعيين.. إنني أحترم أمي وأجلها ولكن ما الفائدة.. إنني لا أؤذيها بزواجي منك.. حقاً.. هي أمي وكنت أحبها ولكنها في الموت عندي ككل امرأة تموت أو رجل.. ما الفرق عندي إن كانت هي زوجتك أو غيرها.. طالما أن زوجتك هذه قد رحلت عنك.. طالما أنك أصبحت بلا زوجة.. إن الأمر سيان عندي إلا أنني أحبك.. ألا تصدق أنني أحبك يا أبا اسكندر..

ـ اسمعي يا هيام.. لقد كنت أحبك في الماضي.. ونما هذا الحب وكبر.. لي حب الماضي.. إنني أحبك الآن أكثر.. لكن حبي قد تحول من نظرة إلى نظرة.. كنت أراك في الماضي شيئاً.. أما اليوم.. فإنني يا عزيزتي أراك شيئاً آخر.. الحياة يا هيام.. كل الحياة تغيرت في نظري.. عندما تزوجت أمك كنت شاباً في نفسي وعواطفي.. لقد حولت

أمك الحياة في أعماقي من جذورها.. أنا حقاً لا أنكر أنني كنت إنساناً لكن والدتك رحمها الله هي التي جوهرت إنسانيتي وقلدتها وسام الإيمان بالحقيقة عقلاً وفكراً وحتى نفساً وغرائزاً.. لقد كنت أرعناً.. وربما لست أنا السبب في علاقتنا.. علاقتك معي.. أنت تعلمين.. أما الآن فلا أستطيع أن أكون أرعناً.. فطيف والدتك يعيش حيّزي.. واحتراماً لها أو ربما خوفاً منها.. سأبتعد عنك.. أنا لا أستطيع يا هيام أن أعود إلى صنع مسرحيات جديدة على منوال قديم.. مفهوم الحياة يا عزيزتي يختلف عند المرء بين كل يوم وآخر.. اعذريني.. اعذريني..

- إنني أنظر لك نظرة احترام وتقدير.. هكذا تعودت.. ولكن.. اسمح لي هذه المرة أن أقول لك: إنك تتفلسف.. إن أمي امرأة.. وكانت أجرأ منك.. ربما هي التي علمتك الجرأة.. لقد علمتنا أنه لا فرق بين الإنسان وآخر بعامل الدين أو المذهب.. لقد علمتنا أن الصالح من يعمل صالحاً وليس الذي يعتقد صالحاً أو يدين بصالح.. لقد تزوجت أمي من رجل مسلم وتحدت جميع القساوسة ورفضت بعد أن تركها زوجها أي أبي أن تذهب إلى عند الأب إيليا

لتطلب منه غفارة.. ولو استجابت لثرثرة القوم اعتقاداً منها أنها تقطع ألسنتهم عنها وبوجهها.. فهي لم يكن يهمها أن يثرثروا عنها في غيابها ما يشاؤون.. وأخيراً.. إن مفهومها للغفارة لم يتغير.. فها هي قد تزوجتك.. تزوجت رجلاً مسلماً آخر ولم تهتم لذلك بغفارة أو عقاب.. كان المفروض علينا أنا وأخي غسان أن نتبع دين والدنا.. لكننا نمونا وكبرنا في بيئة مسيحية.. واعتبرنا مكتسبين بالعادة.. الحقيقة أن والدتي علمتنا أن نتحرر من قيود أولاء وهؤلاء.. فها أنا كما تراني أتمنى الزواج منك.. لقد كنا حديث الحي بأكمله لأنهم لاحظوا أن شاباً مسلماً اسمه محمود العلي يتردد على بيتنا ومن أجلي.. أعتقد أنك تعرفه.. التقيت به في بيتنا.. هنا.. ولو كنتما منفصلين بعقليتيكما وتفكيركما.. إنني لا أريد أن أكذبك القول بأنني أحبه لأن والدتي قطعت جميع آمالي بك.. أما الآن.. إنني لا أستطيع أن أترجم مشاعري.. لقد تعودنا عليك.. لقد عشت بيننا أباً وأخاً وصديقاً حميماً وكان هناك علاقة غرامية بيني وبينك.. حقاً.. أنا أحب محمود لكنني أحس أنك أقرب إلى قلبي.. إنك قريب إلى قلوب الجميع يا أبا

اسكندر.. إنني اؤمن أن هذا البيت يجب أن يبقى كما هو.. لقد ذهبت أمي.. وستذهب أنت.. وربما أنا سأكون من اللاحقين لأذهب مع محمود.. هكذا سيضيع البيت السعيد.. ستتشتت أعضاؤه.. لماذا لا تعتبرني أية فتاة أخرى تريد أن تتزوجها.. لا شك أنك ستتزوج.. ما الفرق بيني وبين غيري.. ألست فتاة كبقية الفتيات ربما أنا التي تحبك فقط.. إني أعتقد أن زواجك مني حكمة تحفظ بها هذا البيت من الضياع.. إنني حزينة على أمي ولكن حزني لن يدوم هذا أمر لا مفر منه لأنها الحقيقة.. إن تزوجتني ستعود السعادة إلى هذا البيت ولو بعد حين.. ألست إنساناً مثلي يا حسين.. إذا سينتهي حزنك مع انتهاء حزني.. فالحزن لا يدوم كما أن السرور لا يدوم.. الاعتراف بالواقع والحقيقة والتجاوب مع هذا الواقع وهذه الحقيقة فضيلة.. أنا أعهدك واقعياً.. لم هروبك مما تؤمن به..

- إنني يا عزيزتي اؤمن بالحقيقة لا بغيرها أعشق الواقع وأشده إلي.. إنني أقدر أننا سنكون غير سعداء لو تزوجتك.. أقسم أنني أحبك.. أحبكم جميعاً.. أنتم وحدكم أسرتي وأهلي.. فأنا عندما كنت مريضاً وفي دور

النقاهة نكروني أهلي جميعهم.. لم يزرني واحد منهم لم يؤنسني حديث أحدهم.. أنتم وحدكم كنتم أهلي وإخوتي.. فكيف إذن أنكر حبكم.. إنني أحبكم جميعكم لكنني لا أريد أن يحوم البؤس في جو هذا المنزل.. دعي حبنا على ما هو.. إنني لا أريد أن أغير نظرتي إليك.. سأكون سعيداً لو تزوجت من محمود.. سأكون لكما خير أخ وأحسن صديق.. إن سروري لذلك عظيم.. على الأقل أساير المجتمع بمفهومه.. ماذا سيقولون الناس لو تزوجتك.. ماذا سيقولون عني وعنك.. وعنكم كلكم..

ـ هه.. متى كنت تعير أقوال الناس الاهتمام.. إني أعهدك سوطاً على العادات والتقاليد ووسوسة الآخرين.. لماذا ضربت العادات والتقاليد عرض الحائط عندما تزوجت أمي.. إنك لم تقرأ الفاتحة ولم تكتب كتاباً شرعياً.. ولم أرك تعمد نفسك.. لماذا تركت زوجتك وابنتك وجميع أهلك.. لماذا تركوك.. قل لي لماذا.. إنني أعلم.. طبعاً لأنك مخالف للعادات والتقاليد وتصم أذنيك عن ثرثرة الآخرين.. هه.. هه والآن.. هه.. تعود لتقول لي أنك محافظ.. اعذرني مرة أخرى يا عزيزي لأن أقول لك ثانية أن فلسفتك في هذا

المجال غير نافعة.. الآن تأكدت.. أنك لا تريد.. كان يكفي أن تقول لا أريد.. لما عليك أن تقدم وتؤخر.. تقرب وتبعد.. كان عليك أن تقول فوراً: لا أريد.. سأقتنع.. وسأصدقك.. وهذا يعني أننا لن نكره بعضنا.. ليس من داعي لأن تجهد نفسك في المجاملة وجبران الخاطر.. أين أنت يا تعبي..

ـ اللّه يسامحك يا هيام.. كل ما تقولينه حق.. إنك تقولين الحقيقة.. إلا أنك تتهمينني بالفلسفة والمجاملة واللف والدوران.. هذا لا حق لك به.. أنا مسامحك.. على كل حال الفراق قريب.. غداً في الضحى سأرحل.. إنني لا أريد.. إنني لا أريد.. أهذا ما تريدين سماعه.. إنه لا يمكنني أن أريد.. أن علاقتي بكم لن تقطعها عوامل الزمن إن استطعت.. إنني سأكون مخلصاً لكم.. طبعاً إن استطعت أيضاً.. اعتبري أن هذا اللقاء هو الآخر من نوعه.. إياك أن تنسي ذلك.

عندما يئست هيام من جميع الأقوال والأساليب في إرجاع حسين عن تعنته الحزين الباكي.. حكمت: ربما يكون الشقاء والعذاب النفسي والروحي هي العوامل

الأساسية في إبعاده عن الحياة.. عن حب الحياة.. عنها.. لكنها عاودتها آمال.. ربما تستطيع بها أن تقنعه على التراجع إن هي ركبت صبابتها.. فتحايلت وتمايلت.. وارتعد أبو اسكندر.. فخاف وجبن.. لقد أصبحت مقاومته ضعيفة.. إن التيار الكهربائي يهز ضلوعه ويضغط شرايينه ويجعل قلبه في خفقان.. ماذا يصنع.. إنه إنسان.. لكنه يجب أن يتخلى عن إنسانيته هذه المرة.. عليه أن لا يقابلها.. ولكنه إن أبى سيهين كبرياءها.. ووقع في الورطة.. كيف سيخلص نفسه.. وكيف سيخلصها هي.. إنه يجب أن يكون جدياً.. لهذا وبكل رجولة واتزان قبض حزمة شعرها المسدول على ظهرها وقال بلهجة أبوية:

- اسمعي يا عزيزتي هيام.. إنني لا أريد أن أحتقر البراءة والجمال في عينيك.. في كلك.. أنت تعلمين إنني إنسان كأنت وليس من العار عندي وعندك أن نلتقي.. ولكن الحب يا عزيزتي يمنعني.. إنني أخاف عليك.. من أن تتحول حياتك إلى جحيم.. نحن الآن متحابان.. لكن إن تزوجنا سيتحول حبنا إلى عداء.. لماذا سيكون عداء بيننا.. اعتقد لا داعي لذلك.. أتحبينني.. إن كنت تحبينني فعليك أن

ترفضي الزواج مني حتى لو شئته.. إني أنظر إليك نظرة الأخت.. أرجو أن تنظري لي نظرة الأخ الأكبر.. لقد كنت تقولين: إنك نسيت كل شيء مضى وأنك كنت تفقدين الأمل بي.. أرجو أن تبقي على نسيانك.. أرجو أن لا يكون أمل لك بغير أخوتي.. اعتبريني أخاك الكبير.. أرجو أن لا تغضبي يا عزيزتي.. سامحيني.. لقد آنت عودتك إلى فراشك.. هيا حبيبتي هيا.. غداً سأودعك.

ـ أهذا قرارك النهائي.. أهذا ما قررت عليه وصممت..

ـ أرجو أن تقلعي عن عذابي بما تقولينه.. هذا ما نويت.. أرجو أن لا تعيدي علي الحديث نفسه.. إنك تعذبينني.

ـ حسنا كما ترى.. ولكن.. هل تذهب قبل أن تكون ولي أمري في خطبتي لمحمود العلي.. إنه ينتظر يوماً أحدده له.. إنني سأحدد يوماً قريباً.. قريباً جداً.. إن سامحتك بكل شيء فلن أسمح لك بالتغيب عن إنجاز هذا المشروع.. لن أعيق رحيلك بالمكوث هنا طويلاً.. يومين أو ثلاثة على الأكثر.. وأكون زوجة لمحمود.

ـ بهذه السرعة..

ـ نعم.. إنني سأتخطى جميع العادات والتقاليد.. بكتاب أو

بغير كتاب.. سأتزوجه.. سأتزوجه على غير العادة في الدينين.. على غير العادة عند المسلمين والمسيحيين.. كل ما يهمني أن لا أقيد نفسي بتقاليد وعادات مزيفة.. أعتقد أنك تشاركني الرأي.. أعتقد أنك إلى جانبي.. القادم قريب.. خاطرك.. قبل أن أذهب.. لي رجاء: أن تنسى الحديث الذي جرى بيننا.. هذا ما أريده منك فقط.. حذار.. حذار.. والآن.. خاطرك.

ـ مع السلامة.. مع السلامة يا عزيزتي.. اطمئني سأنسى.. اعتبريه منسياً.

كانت نعيمة تنتظر عودة هيام بفارغ الصبر.. ولهذا فقد خاب أمل هيام بأن أحداً لن يراها ولن يشعر بها.. لكن اصطدامها بانتظار خالتها كان خفيف الانعكاسات.. وزال بقول نعيمة: ما الذي أبطأك هناك؟..

ـ كنت.. في..

ـ هه.. لا سيدتي.. لقد كنت عند حسين.. في غرفته.. وربما في فراشه..

ـ كفى.. كفى.. إنه أنبل من أن يفعل بتقديراتك.

ـ على رسلك.. لما صراخك.. ربما أيقظت غساناً بصراخك..

هدئي روعك.. هدئي روعك..

ـ آه.. إنك يا خالتي تقسين باتهامك.. ثقي أنه لم يحصل أي سوء.

ـ إنني يا ابنتي.. لا أعاكسك.. لكنني أحكم على سرعة تهورك.. لو حصل.. أنتن بنات اليوم هكذا.. متهورات.. سريعات الهوى والسقوط.

ـ إنك تجحفين يا خالة.. اطمئني.

ـ إنني ما قصدت يا ابنتي إلا أن أناقشك الأمر.. لأننا إن تناقشنا في مشاكلنا خففنا منها الأخطاء.. هذا رأيي.

ـ إنه.. الحق معك.. لكن.. ليس هناك مشكلة.

ـ ليس هناك مشكلة.. إذن.. ماذا فعلتما؟.. كل هذا الوقت.

ـ لم نفعل شيئاً.. لقد عرضت عليه.. لكنه رفض.

ـ عرضت عليه.. ماذا عرضت عليه.

ـ يوه.. يوه.. لقد عرضت عليه أن يتزوجني.. لقد كنت أحبه.. إنني أحبه..

ـ ألم أقل لك إنك متهورة.. هل لاحظت.. إذن لماذا كنت تقابلين محمود.

ـ على كل حال.. لم يحصل ما يسيء.. سأتزوج خلال

اليومين من محمود لقد قطع علي جميع الآمال.. لقد أقنعني.. تناقشت معه كثيراً.. حاولت معه كثيراً.. آه.. لكنني.. ما حصدت منه إلا إنه أقنعني بالإقلاع عما أفكر به.. لقد قدم لي خيبة الأمل على صينية الواقع الذي يفهمه.. إنه مصيب.. معه الحق.. أوف.

ـ إنه إنسان طيب.. ولا يعني زواجه غير الشرعي من والدتك أنه غير أخلاقي.. لكنها مبادئه.. هي هكذا.. آه.. كم أنا آسفة لرحيله عنا.. اسمعي.. ربما لأجلك قرر أن يتركنا.

ـ لا أعتقد ذلك.. إن كان من أجلي.. فليبق.. أنا سأتزوج.. كما قلت خلال يومين.. على كل حال.. حاولي يا خالتي أن تقنعيه بالبقاء هنا طالما أني تاركتكم.

ـ المهم.. الصباح رباح.. يجب أن تنامي.. أن ننام الآن.. لقد قرب الصباح.. على الأقل نرتاح قليلا.. تصبحين على خير.

ـ لكن الاثنتان ما غمض لهما جفن ولا كفت أفكارهما وخيالاتهما لحظة عن السباحة في عوالم وعوالم.. وكانت كل واحدة منهما تواسي نفسها براحة الأخرى.. براحة الآخرين.. فهي لا عليها.. طالما أن جميع أحبائها يغطون في نوم عميق.. هادئون.. مرتاحون.. وهذا سلام النفوس الذكية.

فوجئ سكان حارة الزهراء في حي المزة بشاب قبيح الوجه شوهته علامات حروق بشعة، يمتلئ حيوية ونشاطاً وله قد حسن، يدق أبوابهم يفتش عن غرفة يسكنها.. وخاف منه أكثرهم.. دعا أكثرهم إلى الله: أن لا يلاقي بينهم من يؤجره.. فهم توقعوا: أن إنساناً شيطاناً سيقيم بينهم: لا بد أنه مجرم.. قاتل.. إنه سيخيف الأطفال والنساء.. إن منظره مخيف.. يا لطيف.. ما هذه المصيبة التي ستحل بهذه الحارة.. الوديعة الآمنة.. التي لم تحدث بها أية حادثة لا من قريب ولا من بعيد.. لا صغيرة ولا كبيرة.. إن هذا الشيطان سيملأ هذه الحارة حوادث ومشاكل.. لن يسمح له الرجال الشجعان بتخويف نسائهم وأطفالهم.. اللهم.. جيرنا.. يا مجير..

بعد أن تزوجت هيام من محمود العلي، صار على حسين أن ينفذ قراره بمغادرة المنزل...وغادر دون أن يحضر في رأسه خطة أو طريقة يسلكها في حياته الجديدة..

عندما غادر المنزل وأصبح في الشارع ظهرت في مخيلته إشارات الاستفهام: إلى أين؟.. إلى أين؟.. إنه لا يدري.. هل يذهب إلى أخيه.. يتوسل له ويرجوه.. يذل له نفسه.. لعله

يعيده للاستخدام بوسائطه الخاصة.. ولكن.. ربما يعود لضغطه من جديد.. لا.. لن يذهب إليه مهما كلفه الثمن..: إنني أنكر كل أخوة قائمة على أساس {من فرد بطن وظهر}.. سأعود للضيعة.. لزوجتي ولابنتي.. لوالدتي.. ولكن.. من أين سأعيش.. من أين سأطعمهم.. لا.. لن أرجع إليهم.. سأهيم على وجهي.. سأعيش فريداً وحيداً.. أين تحلو لي الحياة سأعيش

أما سؤاله: من أين سيطعم زوجته وابنته لو ذهب إليهم في الضيعة، لم يتركه بل لاحقه كيفما خطا وكيفما لف ودار، وحاول عبثاً أن يبعده عن فكره، لكن محاولاته كانت تجوهر السؤال أكثر في رأسه: إذا كنت عاجزاً عن إطعامهم هناك.. فمن أين هم يعيشون.. من يطعمهم.. من أطعمهم كل هذه المدة التي غبتها عنهم.. هل تستطيع أن تتصور كيف كانت حياتهم.. سيئة.. سيئة.. رديئة.. رديئة.. من المسؤول.. أنا.. لا.. المجتمع.. وما مسؤولية المجتمع؟.. هل نسيت أن المجتمع هزيل وضعيف؟.. ويكاد أن يجثو على ركبتيه.. هل تطلب من النظام النتن أن يتولى معيشة زوجتك وتربية طفلتك.. إن كان المجتمع هزيلاً

والنظام فاسداً فعلى من تقع المسؤولية؟.. عليك أنت.. عليك.. لا على أحد غيرك.. عد إلى رشدك يا هذا.. فمن ابتلى فعليه أن يصبر.. وإن كنت تريد أن تصلح المجتمع فعليك أن تتقلد نظريات قيمة وأن تناضل من أجلها.. لا أن تكون زوجتك الضحية أو طفلتك.. فزوجتك لن تقف حاجزا أمام جموحك في سبيل إصلاح هذا المجتمع.. ولكن ما عساي أن أفعل.. إنني لن ألاقي وسيلة للرزق في القرية.. آ.. وجدتها.. سأحاول تأمين عمل هنا.. وسأجلب زوجتي وطفلتي وسنعيش هنا سوية إن قدر لنا ذلك.. إنها فكرة معقولة.. وهكذا اقتنع برأيه فراح يفتش عن غرفة يأوي إليها ويجعل منها قاعدة للانطلاق كل صباح للتفتيش عن عمل.. عن أي عمل..

شاء له الحظ أن يدق الباب على أم خليل العجوز وصاحبة دار في حارة الزهراء.. أعجبتها نبرات صوته وأنست له أما نظرها الضعيف فقد حجب عنها قبح وجهه.. لهذا وافقت على أن تؤجره غرفة عندها.. فهي في الدار وحيدة.

وانعكست الآية خلال أيام قليلة في عقول ونفوس

جيران حسين سكان حارة الزهراء فقد أصبح أطفال الحارة جميعهم أصدقاء له وأصبح حبيبهم وحديثهم عند العشاء.. يعشقونه من قلوبهم ويتحدثون عنه بشوق وشجاعة ويقلدون حركاته وكلماته.. يزعجون أم خليل العجوز بذهابهم وإيابهم بصخبهم وضحكهم وصراخهم.. وكم حاولت مرة أن تطردهم ولكنها كانت تفاجأ بالتوسل والرجاء من حسين أن لا تفعل.. وكم تمنت لو أنها لم تكن قد وضعت نفسها في هذه الورطة وكم قررت مرة أن تطلب إليه مغادرة المنزل ثم لا تلبث أن تتراجع أمام شعورها بطيبة وإنسانية الإنسان الوديع العاقل.. فقد سمعت أكثر من مرة تراجع القوم هناك عن رأيهم به.. لقد كان رأيهم في الأيام القليلة الماضية صورة للشر.. أما اليوم فجميعهم مجمعون على أنه إنسان ولا أطيب.. ولا أعقل.. كله شهامة ومحبة.

هكذا راح حسين يمضي أيامه هادئاً مطمئناً لا يشوبه إلا ما ندر من الذكريات.. لقد أنساه الأطفال آلامه وهواجسه لكنهم كم ذكروه بطفلته.. فتصورها مراراً تحبو وتقفز وتركض وتلف ذراعيها حول عنقه وترخي

نفسها ‌في حضنه.. وكم منى نفسه بلقائها عن قريب.. يذهب كل صباح ليفتش عن عمل يعود عليه بنفقات الحياة البسيطة.. وأحياناً كان يقوم ببعض المساعدات التي تدر عليه قليل من الدريهمات.. ولم ينقطع حلمه بالحصول على عمل دائم يدر عليه ما يستطيع أن يؤمن به زوجته وطفلته عن الحاجة.. لم يفتر له عزم ولم تلن له قناة.

وأخيراً جاءته الصور التي كان يعيشها من استثمار لجهوده ولجهود رفاقه قاطعة لعزمه.. وأن صبره عليها لم ينفعه بشيء وراح اليأس يدب في روحه شيئاً فشيئاً للحصول على العمل الدائم، كان يعمل يومين أو ثلاثة وأحياناً يوماً واحداً ثم يقضي بعدها أياماً يفتش عن عمل.

بطالته في هذه الحارة وما شاهده من فقر مدقع، ومن تباين في القول والعمل عند الحكومة، في الراديو والصحف، كانت دعما لثورته الكامنة في أحشائه ودافعاً لأن ينظر إلى الواقع الذي لا يبدله كلام ولا خيال ولا خطب بواقعية وجدية {بعين واسعة}.. لقد شاهد بأم عينيه أن الحارة ترزح تحت أطمار الفقر البالية.. لكنه شاهد هناك شيئا يدل على غناها، إنه جامع الزهراء الذي شيد

على أحسن طراز، وها هو يزين بأحلى النقوش والتلاوين، المياه تغدق به في الليل والنهار ولتذهب هدرا وبدون فائدة {وقليل منها تغسل به مؤخرة المصلين النظيفة} وتنيره كهرباء عظيمة من الداخل والخارج، توحي للضال منارة مدينة حديثة، سقفه يجاري السماء ومئذنته تعالي الكواكب وتفاخرها، بينما البيوت التي من حوله أكواخ حقيرة تكاد أن تزحف على الأرض، سقوفها تفرض انحناءة الرأس وجدرانها متعرجة تستطيع نسمة قوية أن تزيلها من مسالحها، أزقتها تنفث المرض والروائح النتنة، غبار وحر في الصيف وأوحال وقر في الشتاء.. تفتقر لحنفية ماء واحدة.. والأطفال لا يفتؤون ذهاباً وإياباً يجرون خلفهم أو يدفعون أمامهم عربات{زحافات}صغيرة تحمل بعض الأواني ليملؤوها ماء من الحنفية التي تقع على الشارع العام في المزة والتي تبعد أكثر من سبعمائة متر عن أقرب نقطة لها من الحارة.. كم عذب هؤلاء الصغار قلب حسين وكم حرقوا كبده وكم ساعدهم بالجر والدفع وهم يبتسمون له بعد أن يكون قد سبقهم بالابتسامة الصفراء التي تنم عن الألم والحقد المكبوتين في صدره.. والحي كله لا

يوجد به مصباح كهربائي واحد، حتى الأزقة تغط عند الليل في ظلام دامس لا ينير بعض زواياها إلا أشعة القمر، وأشعة مئذنة الجامع.. وتساءل حسين: لماذا هذا الكرم كله في غير موضعه؟.. لماذا لم يبنوا لهؤلاء المساكين بيوتاً صحية صحيحة.. إن كل نافذة في هذا الجامع تبني بيتا حسنا.. لماذا.. لماذا لا تضاء الحارة بما ينفق على هذا الجامع من مصابيح ونور.. إن ما ينفقه هذا الجامع من أضواء في سكون الليل يكفل الإنارة للحارة كلها ويزيد.. لماذا.. لماذا لا يسمحون لهؤلاء الفقراء في استغلال بعض المياه التي تذهب هدراً.. فالحنفيات في هذا الجامع لا تنقطع لا ليلاً ولا نهاراً.. هي مفتوحة دائماً وخريرها موسيقى عذبة لعينة.. إن ما تغسل به الأطياز النظيفة خلال اليوم الواحد يكفي لأن يغسل قذارة رؤوس أهل الحارة أسبوعاً كاملاً.. لماذا.. لماذا لم يتكرموا عليهم ولو بحنفية واحدة من حنفيات هذا الجامع.. التي لا تنقطع.. أهل الحارة سيكونون حريصين وسيقطعون الحنفية عند عدم استعمالها.. ونزل عليه السؤال الشامل: لماذا بني هذا الجامع الضخم.. هذا البناء الضخم.. وطارت ذاكرته في معالم التاريخ، وتذكر حضارات الأمم

السابقة وما شيدته من معالم ضخمة ما تزال تدل زعماً تاريخياً كاذباً على رقي تلك الأمم.. اصطدم تفكيره بخيبة الأمل من نفاق الحضارات.. فكم شيد بناء ضخم على أكتاف الفقراء وعلى حساب معيشتهم وحريتهم وحبهم.. وثارت أعماقه صارخة: إن كل بناء شيدته أمة تكذب به على الأجيال اللاحقة، إن حياتها واقتصادها كانا مزدهرين.. ها نحن نتلمس صحة ذلك في بناء هذا الجامع الضخم الرهيب.. وهدأت ثورته ليحكم بأسى: إن التاريخ سيذكر هذا الجامع وسيتجاهل هؤلاء المساكين الفقراء الجياع المحرومين.. الوطن لهذا الجامع الأصم ولمشيديه أعمياء الفكر والروح.. للذين يعيشون من خير هذا الوطن ويبنون بقليل مما يفيض عنهم جوامعا وكنائسا لا مدارس ولا مستشفيات.. وإن هؤلاء الفقراء لا وطن لهم لأنهم في هذا الوطن أذلاء، جياع، عراة.. ومن كان في وطنه ذليلا جائعا لا وطنه له ولا وطناً له.. لأن وطنه الأرض التي يعيش منها عزيزاً كريماً.. يكسب قوته من جهده بدون إذلال ولا منة ولا استغلال..

وراح يحصي بأفكاره صوراً كان يراها: هنا وهناك

في كل مكان يبنى جامع وتشيد كنيسة وهنا وهناك أو هناك توضع لافتات كتب عليها: يعمرون بيوت اللّه من آمن باللّه وبرسوله.. لقد نسوا أن يكتبوا: ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائعاً.. لقد نسوا أن يكتبوا: أن دخول جمل في ثقب إبرة أهون من دخول غني إلى ملكوت السموات.. لقد نسوا أن يكتبوا: ما جاع فقير إلا بما متع غني.. لم أرهم يكتبون على مدخل حارة الزهراء حتى ولا: أيها الفقراء احملوا عصيكم وخناجركم واملؤوا حروجكم بالحجارة وانطلقوا صفوفاً متراصة لتقتلوا سارقيكم ومضلليكم.

وتأكد حسين مما يراه بصراً وبصيرة ومما يلتمسه حقيقة لا جدال فيها أن هناك وسيلة ومخرجاً وأن هناك صعوبات ومشقات.. وتساءل: ما عليه أن يفعل.. ثم توصل إلى قرار: أن هؤلاء الفقراء هم وحدهم وسيلة إنقاذ نفوسهم وهم وحدهم الذين سيسلكون المصاعب وسيعانون الشقاء لأجل غايتهم التي ربما أكثرهم لا يدركونها، وتساءل: ولكن كيف.. وجاءه الوحي: بالثورة.. بثورتهم.. بثورة الفقراء.. فإن هؤلاء الفقراء هم المادة الأساسية للثورة.. ولا

يمكن أن تكون هناك ثورة صحيحة سليمة الغاية والهدف إلا في زنود أهل المصلحة فيها.. هؤلاء الفقراء وغيرهم من الفقراء في الدنيا أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة لأنهم جميعهم يعانون نفس الآلام {جوع وحرمان ومرض وفقر وجهل}.

وصمّم حسين على أن يحتك بهؤلاء الفقراء في هذه الحارة.. وسيحاول معهم إنجاز أمر ما يدرسه بواقعية وبجد عندما يتأكد من تماسكهم معه ومع بعضهم ويقتنع.

زارهم جميعهم وتحدث إليهم في القريب والبعيد.. شجع وحث وحمس.. وقاس مدى ما يحصده.. وكان عدوه الوحيد واللدود القوي: هو سلبيتهم وأملهم بالفرج عن قريب من قبل العلي القدير.. لقد نسوا في تاريخ حياتهم أن هذا القريب مر على أجيال الفقراء أزماناً وأن موتهم وانتهاء آجالهم هو أقرب من هذا القريب.. لكنه لم ييأس لقد كان بعضهم يصدق ويؤيد بقوله: هم محرومون.. هم فقراء.. هم مظلومون.. هذا صحيح.. لكن الله لن يتخلى عنهم.. سيفرجها عن قريب.. ولهذا فهم لا يريدون المشاكل والمشاغبات.. وعوضاً عن أن يكون الحق إلى جانبهم أمام

اللّه يوم القيامة والحساب سيكون ضدهم.. إن فعلوا.. لا.. لا خيو.. نرجوك.. لا نريد عملاً ربما نخالف اللّه فيه.. إن اللّه قد وعد الفقراء الجنة.. إن هذا يكفينا.. يكفينا أن تكون لنا الآخرة ونحن في هذه الدنيا زاهدون..

لقد كانوا يتبعون أكبر معصية للّه وهي الكذب.. لقد كانوا يكذبون على أنفسهم وعلى اللّه: إنهم سعداء بفقرهم.. لقد كان كل فرد فيهم عندما يخلو إلى نفسه ينفخ وينفخ كالثور الهائج المربوط من قدميه ويديه.. لم يفته واحد أن يتذكر تمرد طفله عليه ورفضه الذهاب إلى الحنفية مع أخيه الصغير ليجلب الماء وكيف كان يضطر أخيراً إلى جلده: الحق.. هناك فرق بينهم وبين الثيران المربوطة لأنها تنفخ وتخور وتنتفض أما هم فمقيدون حسب زعمهم أو اعتقادهم بإرادة اللّه لهذا فهم لا يخورون ولا يثورون بل تبقى الغصة في حلقهم ويتبدد نفيخهم في الفراغ..

وتمر الأيام على حسين لا يكل ولا يمل يدعمه حب الأطفال والنساء هؤلاء الذين لم يفته أحدهم إلا وقدم له أكثر من مساعدة.. لقد لمسن النساء عطفه على أطفالهم وحبه لهم ولهن فهن تعودن منه عدم الخجل من أن يطلبن

منه أية مساعدة.. كان يقدمها مسروراً متحمساً.

واشتد العراك بالحديث والمناقشة بينه وبين القوم واعتبر أن ذلك له نصراً: فها قد تمكن من كسر الأقفال التي كانت تربط ألسنتهم فجرهم للحديث والمناقشة وترجّى خيراً: لعل هذا الحديث يتطور فيكسر قيد الأرجل والأيدي ويقودهم إلى الحركة والعمل.. للنضال.. {تحية.. فسلام.. فكلام.. فحديث.. فلقاء.. فتكتل واتحاد}.
{فانتفاضة وثورة}.

رضي عن هذا وتجاهل وقاوم بعض نظرات الشذر والازدراء هنا وهناك..

عندما وصل الخبر اليقين إلى شيخ الحارة ووجهائها والفهمانين فيها بمفاهيمه التي يطرحها قرر {الأستاذ: أن يلتقي به أمام جمعهم ليناقشه وليقنعه بخطأ مفاهيمه.. وليهزأ منه وليجعله سخرية القوم هناك.. والتقى {الأستاذ} بحسين ودار بينهما العراك: كل يحمل مصلحته في كلامه وحديثه.. لقد كانت مصلحة الشيخ: أن يبقى سكان الحارة أزلاماً له ينعم بخدماتهم وزكواتهم وتبجيلهم.. فهو خارج هذه الحارة لا اعتبار له.. وحسين يريد

أن يحرر عقل الشيخ وعقول أهل الحارة من رواسب سيئة لعينة توارثوا ثقلها أبا عن جد.. ولما لمس {الأستاذ} فشله أمام صحة المفاهيم القيمة التي كان حسين يقدمها ويشرحها راح يفتش له عن مخرج فلم ير أمامه أية وسيلة سوى مخرجاً شيطانياً رهيباً.. فقد رفع يده مؤشراً إلى حسين وملوحاً تهديداً صارخاً: إنك ملحد وكافر.. وزنديق ولعين.. دهري.. يجب أن ترحل عن هذه الحارة قبل أن تسمم أفكار أهلها وتفسد اعتقادهم السليم الذي لا اعتقاد فوقه.. هم.. هم قال اشتراكية.. قال.. ارحل عنا بسخافتك هذه يا هذا قبل أن نواجهك بما لن تحمد عقباه.. واشتعلت المهيطة بين الجميع وعلا الصياح، وانقسموا إلى جماعات تناقش أقوال كل منهم.. فمنهم من حمل على الشيخ قسوته مع حسين.. ومنهم من أيد الشيخ ومنهم من أيد حسين.. ولولا وقوف بعضهم بوجه البعض الآخر لخرج حسين محمولاً.. اقتنع جميعهم أخيراً برأي واحد.. وهو: أن يغادر حسين الحارة.. من كان إلى جانب الشيخ راحوا يطردونه ومن كانوا إلى جانبه والحياديين قالوا له: الخير أن تترك الحارة لتسكن في مكان آخر.. سيصعب عليك

السكن هنا بعد الذي حدث.

خرج حسين من الجمع ملاحقاً بالنظرات والكلمات ويرافقه بعض من أيده.. يمشي في الزقاق الضيق العفن وقد تجمهر خلفه الأطفال والفضوليون والمخبرون.. الأطفال يتساءلون بائسين وبعضهم كانت في مآقيه دمعات.

عندما وصل أحد شباب الحارة والذي كان غائباً في مكان ما إلى الحارة لاحظ في زاوية هناك تجمعاً من أطفال ورجال ونسوة وسمع صخبهم قوياً ودفعه الفضول للاهتمام بالأمر واندفع إلى الجمع يتساءل.. وقد استطاع أن يفهم من بعض الأطفال أن صديقهم حسين سيطرد من الحارة.. ولما تساءل من هو حسين.. لم يجبه أحد.. لكنه عندما دخل بيت العجوز أم خليل ليقف على حقيقة الأمر شهق شهقة من أعماقه: إنه أدهم.. رفيقه في الفداء والتضحية والبسالة.. وهتف بصوت باكي حنون مختلط بالمفاجأة: أدهم.. والتفت حسين إلى مصدر الصوت لكنه قبل أن يتم التفاتته طوقه شخص قوي وراح يشده إليه ويغمره بالقبل.. وبسرعة فائقة عاد بذاكرته إلى الماضي وعرف رفيقه الفدائي وراح يقابله العناق والدموع والقبل.

ـ كيف حالك يا نمرود.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟..

ـ بل أنت قل لي ما الذي جاء بك إلى هنا..

ـ إنني مستأجر غريب..

ـ الغريب الشيطان يا رجل.. أنا من أهل الحارة.. أراك استغربت وجودي..

ـ طبعاً.. من أين لي أن أعلم.. ما كنت أعتقد أن رفيقي نمرود ابن هذه الحارة الـ....

ـ ما بك.. تكلم.. وأرجو أن تناديني هنا سعيد.. أنت تعلم اسمي الحقيقي..

ـ إنهم يطردونني يا سعيد.. إنهم لا يريدون المعرفة.

ـ وهل ستستجيب إلى مطلبهم؟.. هل سترحل؟..

ـ إن لا.. ماذا سأفعل.. إنني لا أريد أن أصطدم بأحدهم.. ثم إنني لا أحمل سلاح الحقد عليهم لأنهم ضحية.. إنهم يحملون في أحشائهم وعقولهم أمراض تاريخ طويل.. وعلاجهم لا يحتاج إلى حقد.. إن علاجهم يحتاج إلى الدواء القوي والزمن الكافي.. وإنني متأسف جداً لأنني سأرحل عنهم وسأتركهم هكذا.. إنه أمر مؤسف.

ـ لاسيدي لن ترحل.. هل أنت خائف؟ إنني أعهدك بطلاً لا تخف.

ـ القصة ليست قصة خوف أو جبن.. كما قلت لك أنهم ليسوا أعداء.. لو كانوا.. كنت ترى.

ـ يا سيدي أعداء أو غير أعداء.. لن ترحل.. وكلمة واحدة تخيفهم جميعهم.. إن هؤلاء مطبوخون بالذل وبالخوف.. إن عملاً شجاعاً منك يجعلهم في رهبة.. وإن كان هناك ثمة من رجل بالمعنى الصحيح ويريد أن يحرر كرامته من ديث الصغار.. فلا بد من أن ينضم إلى صفك.. إنني هنا معروف وسأعرفهم عليك.. لاحظ.. والتفت إلى الجمع وصرخ بعزم: اخرجوا.. كل من لا عمل له فليخرج.. وراح يدفع الأطفال والغلمان الأبرياء بلطف إلى الخارج ولما وقف على باب الدار الخارجي المطل على الزقاق المحشو بالفضوليين وبالمراقبين تابع بصوت أعلى: اسمعوا.. والحاضر يعلم الغايب.. إن كل من يسيء لرفيقنا حسين سنحاربه حساباً عسيراً.. إنكم لا تعرفون من هذا الذي تطردونه.. لو كنتم تعرفون لندمتم ولتأسفتم ولاعتذرتم إن كنتم حقاً تحبون الشرفاء لكنه أمر مؤسف فأنتم لا تحبون إلا على شاكلتكم.. إنه رفيق كادح منكم.. إنه من طينتكم يرزح بالفقر والحاجة.. لكنه بطل رهيب.. واللّه.. لو شاء لفرق جموعكم.. إنه أنبل

فدائي عرفته هذه البلدة.. وجاءه صوت من الجموع: إن كان ما تقوله صحيحاً.. ما الذي جاء به إلينا؟.. فأجاب سعيد: ظروفه.. لقد ترك العمل الفدائي مؤقتاً لمصائب ألمت به.. وهو سيعود للعمل الفدائي عن قريب.. أكرر: الحاضر منكم يعلم الغائب وليسمع شيخنا.. انقلوا له ما أقول.. انظروا إلى هذه القنبلة اليدوية ستحطم بيتاً على رأس.. لو أساء لرفيقنا حسين.. وليحذر الشيخ.. لقد أعذر من أنذر.

ولما كانت العاطفة العائلية وزمالة الصبا لها التأثير الفعال فقد انضم إلى صف حسين وسعيد كثير من الحضور يلوحون بأيديهم ويصرخون.. وانسل العوازل منسحبين أفراداً وجماعات وفرغ الزقاق إلا من الأطفال وأقرباء سعيد وزملائه ومؤيدي حسين الذين اندفعوا نحو سعيد ليسلموا عليه وليرحبوا به.. وتردّدت أصوات هنا وهناك: أي.. سعيد صبراً.. إننا جئنا لنسلم عليك.. إنك لم تترك لنا مجالاً..

بعد أن سلم عليه والده وقبل جبينه وكان من مؤيدي حسين قال: تفضل يا ولدي.. لا بد من أن تأخذ معك حسين.. أدعه ليكون ضيفنا الليلة بمناسبة وجودك هنا.

كانت تلك الأمسية التي كان فيها حسين في بيت سعيد ممتعة.. فهو قد تحدث بها كثيراً.. لقد اعتبرها مؤتمراً ناجحاً استغله في استقطاب أفكار وآذان الجميع.. وسيطر على مشاعرهم وعواطفهم سيطرة تامة وكان يدعمه بذلك رفيقه سعيد.. لقد سيطر حتى على الموتورين قليلا أما الموتورين كثيراً فلم يحضروا تلك السهرة الممتعة المفيدة.

جاوب على جميع أسئلتهم.. واقتنع بعضهم.. وعجز من لم يقتنع عن أن يرد على أحاديثه وآرائه.. تحدث عن الفقر ومشاكله.. عن العلاقة بين رأس المال وجهودهم التي يستغلها وعن الوسائط التي يتبعها في ذلك.. تحدث عن الإشاعة والدعاية.. عن الفهلويات والخيالات.. وعن الشعارات التي لا هدف لها إلا الشعارات {الشعارات للشعارات فقط}.. الشعارات لاكتساب عطف ومشاعر الجماهير.. ثم توصل بهم أخيراً: إلى عقيدته..: لن يستطيع أحد أن يفهم مشاعر الفقراء عمالاً وفلاحين وكادحين وبطالين أو يقدرها إلا من عاش مشاعرهم وعانى مصيرهم جوعاً وفقراً وشقاءً.. لن يحل مشاكل الفقراء إلا الفقراء..

ولن يكون لهم أو لأبنائهم أي حول إلا إذا تسلموا السلطة.. هنا صمد أمام الرد الذي كان يجابهه على أن الحكام في هذا البلد هم فقراء.. من طبقة فقيرة.. ويؤمنون بالفقراء ويعدونهم بالاشتراكية.. واستطاع أن يقنعهم: إن هؤلاء كانوا في يوم مضى فقراء.. لكنهم كانوا يحملون رواسب عائلية قديمة.. ولم يتوصلوا إلى مراتبهم إلا بعد أن نسوا فقرهم وفقر أهلهم.. حتى أنهم تعالوا عن أهلهم.. لقد مضى على أكثرهم أكثر من خمس عشرة سنة يعيش حياة الترف والبزخ.. فكانوا في تاريخهم هذا بعيدين عن النضال الطبقي.. لقد توصلوا إلى مراكزهم عن طريق استغلال مشاعر الشعب القومية والعاطفية.. إنه حقاً أمر مؤسف.. فهم لا يدركون نظرية يناضلون بها ومن أجلها.

وراح يؤكد لهم: أنه لا ثورة بدون نظرية ثورية.. ربما هناك ثوريون.. لكنهم لا يدركون حاجيات الجماهير لأنهم بدون نظرية.. بدون إيديولوجيا نظرية علمية غايتها تحسين عيش الجماهير الكادحة بالاشتراكية.

جاوب على أسئلتهم وأسهب لاستفساراتهم: لماذا نسي هؤلاء الفقراء فقرهم وطبقتهم التي هم منها؟.. لأنهم لم

يدركوا يوماً ما معنى الفقر.. حقا هم نشأوا فقراء.. وشبوا فقراء.. لكن ظروفهم عندما بدأت أفكارهم تتضج وتتفتح أبعدهم عن الفقر والفقراء إنهم لا يدركون معنى الاشتراكية ولا ديالكتيتها.. أنا لا أستطيع أن أتهمهم بالخيانة.. فهم قوم طيبون.. ونظيفون.. أما إن قلت أنهم يدركون الاشتراكية وديالكتيتها أكون ظالما لهم.. لأن ذلك يعني اتهامهم بخيانة مفاهيمهم وجماهيرهم.. أستغفرهم.. أنا لا أتهمهم.. حتى ولا أستطيع.. أما الحقيقة.. أنهم أصلا غير اشتراكيين ولا يفهمون من الاشتراكية إلا الكلمة والشعار ومع هذا فذلك له أضرار ومنافع.. أضرارها أنها تشوه مفهوم الاشتراكية في عقول جماهيرها ومنافعها أنها تعود الأجيال الناشئة على الأقل التغني بالاشتراكية.. وعندما تنضج مفاهيمهم.. لا مناص منهم.. سيصححون معناها ومبناها ولن يرضوا عن الاشتراكية بديلاً.

انفض المؤتمر وانتهت السهرة ورغب كل من حسين وسعيد أن يقضي مع رفيقه بعض الوقت يتسامران به ويتحادثان في مشاكل شتّى وليعيدا على بعضهما ذكرى

أيام قضياها سوية.. وليبث كل منهما همومه وشكواه.

ـ حسين.. ما رأيك لو نذهب إلى غرفتك.. نقضي بعض الوقت منفردين.. حتى لا نزعج أهلي هنا.. أو ربما هم يزعجوننا..

ـ إنها فكرة عظيمة.. يمكنك أن تنام عندي.. هذا إذا أردت طبعا وأن لا تزعج نفسك.. أمه.. ما رأيك؟.

ـ ألا تعلم أنه لا أهمية لذلك عندي.. أين ننعس ننام.. إن الأمر لا يحتاج تفكير أو مناقشة.

وبينما كانا منطلقين في الزقاق المظلم راح حسين ينظر خلفه يمينه ويساره.. إنه يظهر حالة من الاستعداد..

ـ لا أعهدك تخاف.. إنك خائف..

ـ ربما قولك في مكانه.. لكن الحيطة لها حسناتها.. وربما هي رجولة أيضاً.. أعتقد: ليس ذلك عاراً.. ألا ترى ذلك؟..

ـ أنت دائماً تتصرف استجابةً لسلامة أفكارك.. لا تعليق لي على ما تقول.. سوى أنه حسين..

ـ معك ولاعة.. كبريته.. لقد نسيت كبريتتي على حصيركم..

ـ خل عنك.. أنا أولع عنك.. ألا ترى مكان المفتاح..

ـ تفضل خش.. إياك أن تتذمر من رائحة الرطوبة في غرفتي.. ولع عوداً آخر لنشعل السراج..

أشعل حسين السراج ومد فراشه العفن ذا التضاريس المزعجة وتشاطراه اضطجاعاً.

ـ أرى فقرك يزداد.. إيه.. كم هي الأيام سيئة.. إن سوءها يتراكم على مظهرك وحياتك.. وهذا ما يدل..

ـ إنك تثير جروحي يا سعيد.. ماذا أقول لك.. هناك الكثير.

ـ لا داعي لا للكثير ولا للقليل.. لماذا لا تعود للتطوع في العمل الفدائي.. لقد كنت فدائياً ماهراً.. هذا عهدي بك..

ـ إننا نخوض معركة هنا.. ما الفرق أن نناضل هنا أو هناك.. كله نضال..

ـ ماذا تقصد..

ـ إننا نناضل هنا مع الفقراء ضد أعدائهم.. مستغليهم.. أليس هذا نضالاً..

ـ خلِّ عنك يا.. لا تتركني أشكّ برجولتك.. ربما قولك هذا تبريراً لجبن حل بك حديثاً.

ـ إنك تظلمني.. أنا مسامحك.. أريد أن أسألك:.. وليكن الحديث بيننا صريحاً وجدياً.. أعتقد أن أحداً لن يسمع

حديثنا.. في هذا الليل المتأخر.. الحي جميعه يغط بسكون عميق وكأنه لا حياة فيه.. اسمع.. أينما تحل الحرارة تحل الحياة.. يجب أن نبعثها بهم..

ـ أرجوك.. دع الفلسفة جانباً وهات اسألني.. أنت قلت إنك تريد أن تسألني.. اسألني.

ـ طيب.. طيب.. هل تستطيع أن تجيبني: نحن نحارب من ولماذا؟..

ـ نحن نحارب إسرائيل.. لنحرر أرضنا من احتلالها..

ـ هل لاحظت يا عزيزي.. إنك لا تدري.. أننا لا نحارب إلا فقراء إسرائيل.. فقراء اليهود الذين ضللتهم الصهيونية اللعينة.. حليفة الإمبريالية ربيبتها.

ـ إيه.. ونحن نحارب الصهيونية.. وبحربنا معها نحارب الاستعمار..

ـ في هذه الحالة.. أنا معك.. لكننا لم نستطع يوماً التوصل إلى أي قطب من أقطاب الصهيونية.. إن كل الأيام التي أمضيناها في القتال.. نقتل ويقتل منا الأبرياء.. لم نقتل صهيونياً واحداً.. ولا مستثمراً واحداً.. ولم نتوصل إلى أية فائدة.. سوى أننا نخسر أعز شبابنا وأفرسهم.. في سبيل

من؟.. اللّه أعلم؟..

ـ إذن أنت تؤمن بإلغاء العمل الفدائي..

ـ إنني لا أستطيع أن أترجم ما أعتقده.. لا أستطيع أن أقول لك: أن العمل الفدائي يجب أن يلغى.. لكنني أستطيع أن أقول: يجب أن يكون العمل الفدائي عاماً وشاملاً.. لا يقتصر على جبهة معينة.. أو جماعة معينة..

ـ إنني لا أفهم.. أوضح..

ـ ما الغاية من وجود دولة بني صهيون في فلسطيننا..

ـ إن غاية وجودها لا يختلف عليها اثنان.. إنها لحماية المصالح الإمبريالية والاستعمار.. وقاعدة لتوسيع نفوذها.

ـ تمام.. حسناً.. ألا تعتقد أن هناك في هذه المنطقة من العالم حكاماً يخدمون مصالح الإمبريالية والاستعمار كإسرائيل أو أكثر.. ما رأيك بالملك.. والملك.. والحكومة.. كلها ذيول ألد أعداء لشعوبنا.. وتخدم أسيادها بإخلاص.. وهي تقدم بين كل فينة وأخرى ولاء الطاعة فتتفذ على حساب شعوبها كل ما تؤمر به.

ـ لكن هؤلاء من شعبنا.. إنهم عرب منا.. غضبهم وتنكيلهم ولا تحيات بني إسرائيل..

ـ خلِّ عنك هذا الهراء يا هذا.. ما الفرق بين أن يضربك بن غوريون عصا على رأسك أو أن يضربك أخوك.. إن الألم واحد.. لهذا سيكون الشعور واحد.. ما الفرق بين أن يستغلك ويستعبدك بن غوريون.. وهذه بغيته وبغية الصهيونية والإمبريالية وبين أن يستغلك ويستبعدك في أرضك مدير أو مستثمر خادم للإمبريالية وهو من أصل عربي.. إنه كابن غوريون.. إنه لا فرق بينهم.. إنني أعلن عدائي لهم جميعاً.. إن كانوا هنا أو هناك.. يجب أن نناضل في سبيل تحرير الإنسان أينما يُستغل.. يجب أن نتكاتف مع المستغلين حتى في أرض فلسطين ونحارب جميعاً صفاً واحداً ضد عدونا الواحد المتمثل بالاستغلال والسيطرة.. وفي هذه الحالة ستكون حربنا جميعاً ضد الصهيونية والاستعمار وضد ذيولها في وطننا العربي وفي العالم.. إن بتكاتفنا معهم يزداد النضال حدة وينمو معناه.. وسننتصر حتماً.. إن المعركة واحدة في كل الدنيا بين مسيطر مستغل وبين تواق للتحرر منهما..

ـ هل يعني هذا أنك لن تحارب من الآن فصاعداً جنود بني إسرائيل..

ـ إن حاربتهم فلا ذنب لي.. سأكون مضطراً لقد أثبت الماضي القريب والبعيد وقولك منذ قليل أن كثيراً من الدماء البريئة تهدر من الطرفين ومن الخصمين.. ومع هذا فهي لا تذهب بدون ثمن.. ستكون عبيراً طيباً للأجيال اللاحقة من الجهتين ينتفعون منه.. أنا لا أحقد على الذين يحاربوننا بدافع حقدهم الديني.. فأنا ألاحظ وأنت أيضاً: أن في مجتمعنا الكثير ممن يعرفون شعار الحقد الديني على اليهود.. لكن الفرق شاسع.. فحقد الأكثرية في مجتمعنا تكون حلبته الشوارع والحوانيت والمقاهي.. لا يتعداها.. أما حقد اليهود فهو على فوهة بنادقهم وعلى خطوط النار.. كلا الطرفين مضلل به ومغرر.. أما اليهود فيستغلون بشكل أعمى ويقادون قيادة علمية سليمة حكيمة دينية كانت أو عسكرية أو سياسية.. وهم طائعون مندفعون.. إنهم بعكس إخواننا.. فقيادتهم غوغائية جبانة.. وفهلوية كاذبة إن كانت دينية أو عسكرية أو سياسية أيضاً.. هل تصدق: أننا نستطيع أن نحرّر أرضنا باسم الدين.. لن نستطيع حتى ولا الدهر كله.. علينا أن نحارب العلم بالعلم.. والتكتيك بالتكتيك.. لماذا لا نكون

واقعيين؟.. إن اليهود ليسوا أعدائنا.. لكن أعداءنا الذين يضللونهم ويوجهونهم ضدنا ضد قضية الإنسان العادلة مع أسيادهم الإمبرياليين ومع أذيالهم من أمتنا.. هؤلاء هم أعداؤنا.. لهذا.. يجب أن نحارب الجميع.. يجب أن تكون هناك ثورة على الجميع لا تستثني مستغلاً ولا عميلاً ذيلاً للإمبريالية يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً كان.

ـ إن قولك في مكانه.. إنك تصيب.. لكنك.. هنا.. في هذا البلد أو في بقعة أخرى من الوطن العربي ستفقد السلاح الذي ستقاتل به.. الجماهير التي ستقاتل من أجلها ستكون ضدك..

ـ هنا المصيبة.. هنا الطامة الكبرى.. ومع هذا يجب أن نضحي.. إن تضحيتنا ونضالنا لن يذهبا بدون ثمن.. حتى ولو كان ذلك لعهد أطفالنا..

ـ أرى أنك تستطيع أن تجمع بين المعركتين.. أو على حسب تعبيرك: تستطيع أن تحارب في طريق المعركة..

ـ كيف؟.. اشرح..

ـ إن تطوعت فدائياً.. تستطيع أن تحارب على الخطوط الأمامية وأن تحارب هنا.. بنفس الوقت..

ـ نعم.. ماذا قلت..

ـ قلت: إنك تستطيع أن تنفذ بعض المشاريع في فلسطيننا..

ثم تنفذ بعضها هنا أو في بلد عربي آخر.. بعد تنفيذ المشاريع في الأرض المحتلة ترجع لجماهيرك الفقيرة.. تعلمها وتوجهها.. وإنني أعتقد: أن التنظيم السري في هذا المجال هو أنجح لك وللجماهير.. ما رأيك؟.. كما أنني أعتقد: أنك ستهزم الحكومة الإسرائيلية التي هي من وجهة نظرك عميلة للإمبريالية وربيبة لها عندما تدمر لها مصالحها في أرضنا أو عندما تقتل لها مئات من جنودها الذين تحملهم السلاح وتوجههم لإبادة شعبنا.. لإبادتنا يا حسين.. إنهم جنودها على كل حال.. حتى ولو كانوا من وجهة نظرك أبرياء ومغرر بهم.. ثم.. إن انتسابك لإحدى المنظمات الفدائية سيحصنك بتقدير الشعب.. من هؤلاء الكلاب الذين تسميهم ذيولاً للإمبريالية وعملاء خدماً لها.. لن يتجرؤوا التطاول عليك.. لأنهم يدعون دعمهم العمل الفدائي.. أليس هذا صحيحاً؟..

ـ تمام.. تمام.. وجدتها.. لقد وجدتها.. إن رأيك في هذا الأمر مفيد.. إنني سأرافقك بعد أن نؤسس أول خلية سرية.. هنا..

إنك معي.. هذا ما أعتقده.. إنني أثق بك.. بكل رفاقي.. سنعمل هنا وهناك.. أليس كذلك.. في الأردن وفي سورية.. في لبنان.. وحتى في فلسطين.. ها.. لقد تذكرت: ألا تذكر كتاب أبراهام الذي أرسله مع الشهيدة ربوة رحمة عليها.. رفيقتنا.. إنني لا أزال أحتفظ به.. سنحاول الاتصال به.. سنوحد نضالنا وجهودنا في سبيل تحرير الوطن العربي وفي مقدمته فلسطيننا.. من الغاصبين والمستثمرين ومن عملاء الإمبريالية.

عندما كان حسام {الاسم الحركي الجديد لحسين}.. يتقدم مع رفاقه الذين ابتهجوا به كثيرا وعاهدوه على السير في دروب النضال مهما شقيت.. في اتجاه الهدف المحدد من فلسطيننا كانت روحه تعزف موسيقى متنافرة متباينة بين حب وحقد بين عطف وثورة.. تتوجها نغمة الإيمان بالقضية العادلة.. قضية تحرير الإنسان من عدوه اللدود الاستثمار.. لتحرير الإنسان من استغلال أخيه ابن آدم ومن بلطجته.. حتى الانفجارات ودوي الطلقات كانت ترافق موسيقى روحه بموسيقاها الشقية الصلبة العنيفة.

ودخل إلى حياته أمر جديد استسلم إلى رأيه.. فراح بين كل فترة وأخرى يرسل إلى زوجته كتاباً يضمنه بعض اعتذاراته وعواطفه مجاملة.. وحبّه البارد الذي كان يسبغه بالحرارة المصطنعة.. فهو قد اقتنع: على أنّه لن يلوذ إلى زوجة أخرى.